اغتصاب الذاكرة

الإستراتيجيات الإسرائيلية لتهويد التاريخ

اغتصاب الذاكرة

الإستراتيجيات الإسرائيلية لتهويد التاريخ

إيهاب الحضري

تصميم الغلاف: د. عبد الله رجب

الطبعة الثانية: 2021

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: 16273/ 2021

الترقيم الدولي: 2- 50-6798-977-978

إشراف عام: رباب الشهاوي



برج سانت فاتيما. أمام جنينة مول. مدينة نصر

Alfouad_publishing@hotmail.com

facebook.com/fouadpublishing

اغتصاب الذاكرة

الإستراتيجيات الإسرائيلية لتهويد التاريخ

إيهاب الحضري

الفؤاد للنشر والتوزيع

فهرس

مقدمة جديدة.. لجريمة مُزمنة**!**..4

قبل البداية بقليل..9

أولاً: الشق التوثيقي 19

الفصل الأول: التاريخ في خدمة الجغرافيا 20

الفصل الثاني: فن تصنيع الكارثة..47

الفصل الثالث: تعبئة الزيف 63

الفصل الرابع: اقتباسات حضارية**!** 98

الفصل الخامس: فتش عن بابل 124

الفصل السادس: مغامرات تاريخية 140

ثانيا: الشق التحليلي 173

الفصل السابع: تشكيل الخيال 175

الفصل الثامن: الوجود وحده لا يكفي..195

الفصل التاسع: سرقة شجرة العائلة**!** 219

الخاتمة: قبل النهاية بكثير 235

مقدمة جديدة.. لجريمة مُزمنة!

قبل خمسة عشر عاما صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب، عقب فوزه بجائزة جمعية أصدقاء أحمد بهاء الدين. كانت الجائزة بوابة لجيل من شباب الباحثين، وجدوا من يمنحهم فرصة التركيز على البحث والكتابة، عبر الحصول على منحة مالية تكفل لهم بعض التفرغ وشراء المراجع. لم تكن هذه هى المرة الأخيرة لي، حيث فزتُ بها عقب خمس سنوات أخرى، عن كتابي الثاني" الفضاء البديل.. الممارسة السياسية والاجتماعية للشباب العربي على شبكة الإنترنت".

خلال مراجعة الطبعة الأولى، وجدت نفسي مع فرصة نادرة للنقد الذاتي. حيث رصدتُ تحوّلات شخصية على مستوى الكتابة، أهمها الانتقال من مرحلة استعراض عضلاتي في الصياغة إلى أسلوب أكثر سلاسة. وهكذا أقدمتُ على فك شفرة بعض العبارات المُعقّدة، دون تدخل جذري في المضمون، الذي يظل يستهدف قارئا مُثقفا، يرغب في أن يفهم بعمق أبعاد مُشكلة مُزمنة، بعيدا عن الشعارات المُستهلكة والحكايات المُسلّية. مع استغراقي في القراءة اكتشفتُ أنني مُضطر لإضافة كلمة الراحل، إلى علماء ومتخصصين اعتمدتُ على رؤاهم، بعد وفاة كثيرين منهم على مدار السنوات الماضية، لكن المفارقة تمثّلتْ في أن السياق العام لم يتغيّر كثيرا. وفي نسق كهذا، لا يُمكن وضع نُقطة في نهاية السطر، كي نُؤكد أن الأحداث انتهت. فالمُخطّط مستمر، تماما كاستمرارية عجزنا عن التعامل العميق معه، بوعي أو بدون وعي.

في نهاية الطبعة الأولى، ذكرتُ أن الوصول إلى خاتمة للكتاب حلم صعب المنال، فمحاولات اغتصاب تاريخنا لم تنتظر خروج تلك الطبعة إلى النور، رغم أن الفاصل

الزمني لم يتجاوز بضعة أسابيع. وبعد مُضي هذه السنوات، تزايدتْ وطأة السرقات، حتى أن رصدها لتحديث المعلومات يحتاج إلى كتاب جديد، غير أن المشكلة الحقيقية تتمثل في منهجية تعاملنا مع الأحداث، فلا زلنا نُركز على الشق السياسي، ونتجاهل تأثيرات ثقافية تضرب البُعد الحضاري في مقتل. قبل أسابيع- مثلا- انشغلنا بالهجوم الوحشي الجديد على غزة، ونسينا أن الشرارة كانت في القدس، حيث جرتْ محاولة لم تُكتب نهايتها بعْد، لتهويد حي الشيخ جراح. صحيح أن الضحايا من قتلى ومصابين ومُشرّدين يستحقون أن تتدخل الإنسانية الجريحة لإنقاذهم، بشرط أن يجرى ذلك دون أن نمنح نجاحا غير مُستحق، لخطة تستهدف إلهاءنا عن الأصل، وهو السطو على التاريخ، لإحكام القبضة على الجغرافيا. دائما ما نقع في الخطأ نفسه، بينما العدو يمارس ألعابه ببراعة، فيواصل التقدّم على أكثر من جبهة، بينما نكتفي بالعزف على وتر واحد، وهكذا ندّدنا بالجدار العازل باعتباره نموذجا قميئا للفصل العُنصري، واستمر تشييده لتتزايد تأثيراته على كافة الاتجاهات. في هذا الكتاب سبق أن حذّرنا من التهامه لمواقع التراث الحضاري الفلسطيني، وهو خطر لم يتحقق لحُسن الحظ حتى الآن، لأن الفكرة الجُهنمية تعتمد على سياسة النفس الطويل، لذلك تغاضى الكثيرون من الباحثين العرب عن هذا التهديد، واكتفوا برصد تأثيراته التي حدثت على أرض الواقع، في المجالات الاقتصادية والتعليمية والسياسية والإنسانية.

نحن نُركّز إذن على الحاضر بدعاية خطابية في أغلب الأحيان، بينما يراهن العدو على المستقبل بتخطيط مُدمّر. ومجرد قراءة عابرة لمضمون هذا الكتاب تُثبت ذلك، فالخطة التي بدأت قبل عشرات السنين لم تترك بلدا ذكرتْه التوراة في حاله. امتدت عمليات السطو خارج فلسطين المحتلة، واستهدفتْ تراث مصر وسوريا ولبنان والعراق واليمن. في هذا السياق أجدني مُضطرا لاعتراف مؤسف، فخلال مراجعتي للكتاب استعدادا لطبعته

الثانية، فوجئت بكمّ هائل من التوثيق لم يجد هيئات مُتخصصة تستخدم محتواه في ضخ دعايات تفضح المؤامرة، ليس هذا فقط، بل إنني كمؤلف اكتشفتُ أن كثيرا مما رصدتُه غاب عن ذاكرتي الشخصية! يمكن إيجاد مُبررات للنسيان على المُستوى الفردي، مثل تقدّم العمر وتراجع الذاكرة، لكنه يتحوّل على مُستوى المؤسسات المختصة إلى خطأ فادح بمذاق الجريمة. ما ينطبق على التوثيق يشمل الشق التحليلي، فرغم كل محاولات إثبات أن التوراة ليست كتاب تاريخ يُعتمد عليه، نجد وجهات نظر تخرج في بلداننا، من علماء دين يوصفون عادة بالمُستنيرين، تساهم- بكل براءة!- في تشكيك الأجيال الجديدة في عظمة تاريخهم، عبر ربْط ملوك مصر القديمة بأحداث التوراة.

في هذا الكتاب حاولتُ حل المُعادلة الصعبة، التي تربط بني إسرائيل القُدامى بمُنجزنا الذي لا يزال يُبهر العالم، وأكدتُ أن وجودهم في مكان ما، لا يعني أنهم ساهموا في إنتاج حضارته، ثم افترضتُ جدلا أنهم كانوا أحد أسباب صناعة الحضارة قديما، فهل يعني ذلك أن الصهاينة المعاصرين هم الورثة الشرعيون للعبرانيين؟ الإجابة بالنفي لم تعتمد على رؤية أيديولوجية، بل انطلقت من حقيقة تُثبتها الأدلة، فقد تم تزييف شجرة العائلة كي تنتقل التركة المُفترضة إلى ورثة مزيّفين.

هناك وقائع كثيرة استجدتْ خلال السنوات الماضية، وشكاوى مستمرة من استهداف قوات الاحتلال لمواقع التُراث الحضاري الفلسطينية، لكن هذا لا يعني أن صلاحية مضمون الكتاب قد انتهت، لهذا أتمنى أن تساهم هذه الطبعة في كشف عمليات التزييف المُزمنة، وإذا تحقّق ذلك ولو جُزئيا، فسوف أجد دافعا لاستكمال توثيق اغتصاب الذاكرة في كتب أخرى. أما إذا ظلّت النتيجة مُشابهة، بفعل الهرولة المتزايدة للتعامل مع الاحتلال،

فيكفيني شرف المحاولة الأولى، التي سوف تُصبح مجرد اسهام متواضع، قد تجد في زمان مُستقبلي، من يحتاجه لاسترداد إرثنا المنهوب.

القاهرة– يونيو 2021

قبل البداية بقليل

فى عشرينيات القرن الماضى، كان الإنجليزي هوارد كارتر يمضي بدأب للكشف عن خفايا مقبرة توت عنخ آمون. نتيجة ملابسات عديدة حدث خلاف بين كارتر والحكومة المصرية، ووجدت الحكومة الإنجليزية أن ظروف الاحتقان السياسى لا تسمح بتدخلها لصالح مواطنها، فتركت له مسئولية التعامل مع مشكلته بأسلوبه. لكن تأزُم الموقف جعل كارتر يتجه إلى القنصلية البريطانية طالبا دعمها. لم يكن اللورد اللمبى موجودا بالقاهرة فقابل المكتشف الإنجليزي مسئولا بالقنصلية. حتى هذه النقطة تبدو الحكاية عادية، لكن تفاصيلها تأخذ منحى مختلفا وغريبا بعد ذلك. ثار كارتر عندما أوضح له المسئول الإنجليزى أن القنصلية لا تملك ما تفعله ضد الحكومة المصرية، ووجّه للمسئول اتهامات بالتقاعس انتهت بتهديد غريب كان نصه:" إن لم أحصل على ترضية تامة وحقوق كاملة، سأنشر على العالم كله نص البردية التي وجدتُها بالمقبرة والتي تُظهر الوقائع الحقيقية لخروج بني إسرائيل، كما سجلتها الحكومة المصرية القديمة عن الخروج من مصر"(1)، الكتاب الذي روى الواقعة السابقة أشار إلى أن القنصل فقد صوابه، وفي تجاوز لكل معايير الدبلوماسية، تناول محبرة كانت أمامه وقذفها بكل قوته باتجاه كارتر الذي تفاداها فارتطمت بالحائط وتناثرت شظاياها. المشهد السابق ذو نكهة سينمائية، يُفجّر سؤالا منطقيا عن محتوى البردية التي أثارت كل هذا التوتر. مؤلفا الكتاب رجّحا أن البردية كانت تتضمن ما يُثبت أن موسى كان مصريا من أتباع إخناتون، وأن توت عنخ أمون- حسب رأى باحث آخر- كان الفرعون الذي عاد موسى في عصره ليقود عملية خروج أتباعه المستعبدين! الفرضية السابقة إذن تستبعد بعض تفصيلات القصة التوراتية، لتجعل قصة الخروج شأنا مصريا خالصا، استلهمه العهد القديم ليجعل من بني إسرائيل أحد

أطرافه الأساسيين. وفقا لهذا التصور يُصبح الإفراج عن هذه البردية بمثابة سلاح في يد عرب فلسطين:"لدحض ادعاء اليهود الصهاينة بحقهم التاريخى في أرض فلسطين وينسف دعواهم من جذورها" (2). لكن هل كان لهذه البردية وجود فعلي، أم أنها كانت مجرد ورقة ضغط استخدمها كارتر في محاولة لإنقاذ حلمه من التحول إلى كابوس؟ يُرجّح كتاب" توت عنخ آمون.. مؤامرة الخروج" وجود هذه البردية، اعتمادا على رسائل من كارتر واللورد كارنارفون- ممول عملية البحث عن المقبرة- إلى آلان جاردنر عالم اللغات القديمة المعروف، وإدجار والاس بادج أمين قسم المصريات والآثار الآشورية بالمتحف البريطاني، بالإضافة إلى تقارير الصحف البريطانية التي واكبت الكشف، وأكدت العثور على برديات، بل أن المخاطبات بدأت فعليا مع جاردنر ليتولى قراءة هذه البرديات. المُثير أن كل ذلك تحوّل فجأة إلى لا شئ، وتمّ نفيه من جانب المُكتشفين، الذين أكدوا أن(وهْم) العثور على برديات نتج عن معاينة سريعة، في ظروف لم تكن مناسبة، ليُثبت الفحص المتأني بعدها أن البرديات المُشار إليها لم تكن إلا لفائف كتانية، ربما تُمثّل بقايا ملابس داخلية للفرعون الذهبي!!

على مستوى القراءة الأولية يُمكن أن تلقى الحكاية السابقة ردود فعل متباينة، فهناك من سيرى فيها نواة لتفسير مصري لتاريخ معرض للسطو، ويطالب بتدعيم هذا الاتجاه البحثى، وفي المقابل سيعترض آخرون على ذلك اعتمادا على عدم وجود أدلة قاطعة تؤكد اكتشاف هذه البرديات. وبين الاتجاهين سينطلق رأى ثالث من أطر دينية، ترى أن اعتماد هذه الرؤية يُمثّل ضربا لثوابت وردت فى الكتب المقدسة. وبقليل من التركيز سنجد أن الاتجاه الأول- رغم دعمه لحقّ مصري في الأساس- يصب فى نسق لا يبتعد كثيراً عن الاتجاهات الأخرى، فهو يجعل التوراة نقطة انطلاق أساسية، ورغم أنه يستبدل أطراف

الحدث بآخرين إلا أنه حافظ على ضخامته ومحوريته على المستوى التاريخى كمُسلّمة راسخة، وهو أمر سنعلق عليه بعد قليل. كما أن الاتجاه نفسه يربط بين سياقين لايُفترض لهما أن يتقاطعا لأسباب تتعلق بخصوصية كل منها.

في الشق التحليلى من هذا الكتاب أركّز على أن التعامل مع التوراة كمصدر تاريخى يجب أن يتم بحذر شديد لأسباب عديدة، منها أن المسافة الزمنية الفاصلة بين نزولها وتدونيها تبلغ 950 عاما، مما جعل النص الأصلي عرضة لعمليات الحذف والإضافة والتعديل على مدى قرون من التداول. كما أن الأدبيات التوراتية اعتمدتْ- كما سنُثبت- على نصوص ترجع لحضارات أقدم كالفرعونية والآشورية والبابلية والفينيقية. ورغم ما يبدو من تماس بين هاتين الفكرتين ووجهة نظر مؤلفي كتاب " مؤامرة الخروج " إلا أن الفرق جوهري. فالفكرتان مطروحتان فى" اغتصاب الذاكرة" كدليلين على أهمية الفصل بين النسقين التاريخى والدينى، أما " مؤامرة الخروج" فيتبنّى رؤية تمضي فى اتجاه عكسي مع القراءات التوراتية للتاريخ، لكنها تربط بدورها بين الدين والتاريخ، وإن كانت تُقدم طرحا ينحاز للأخير. هنا يطرح السؤال نفسه: هل يمكن الفصل تعسفيا بين التاريخ والدين؟ الإجابة لن تتم إلا بعد طرح سؤال آخر: ماهى الحدود الفاصلة بين القصة الدينية كواقعة تاريخية وبين ملاءمتها لدور وظيفي مرتبط بالعقيدة؟

قبل الإجابة على السؤالين السابقين نجد أن الأمر يحتاج إلى وقفة تمهيدية مؤقتة، فالكتابان المقدسان اللذان ركزا على سرد قصص ذات صبغة تاريخية هما التوراة والقرآن. ورغم أن هناك سرديات متشابهة فى الكتابين إلا أن أسلوب الطرح كان مختلفا. فقد كانت التوراة أكثر تفصيلا فيما يتعلق بسرد أحداث يفترض لها أن تكون تاريخية، لدرجة أنها تأتى فى بعض الأحيان بوقائع محددة زمانيا ومكانيا. أما القرآن فقد أورد الأحداث مجردة من

الزمان، كما أن المكان- خاصة فيما يتعلق بقصص بني إسرائيل- شديد العمومية، لتظل مصر- مثلا- مسرحا شاملا بالغ الاتساع. هذه القصص الدينية كان يُمكن أن تبقى فى إطارها الطبيعي، لكن المشكلة بدأت مع محاولات ربط ما ورد بها من أحداث بالتاريخ الذي أثبتته الاكتشافات الأثرية. ولأن الأخيرة لم تسفر عن أسانيد لما ورد بالتوراة، فقد حلّت مدارس بحثية غربية هذه الإشكالية بالتعامل مع ما ورد فى الكتب المقدسة على أنه أساطير تم استخدامها لأهداف دينية. حدث ذلك بعد قرون من تنامي حركات البحث المحموم عن أسانيد أثرية لما ورد بالتوراة، هذا البحث الذى زادت إسرائيل من معدلاته بدرجة غير مسبوقة في كل الأماكن التى احتلتها. وبين الاتجاهين تضيع عادة حقائق كثيرة، غير أنه يُمكن التعامل ببعض الحذر مع التيار الرافض لاعتماد القصص الدينية كأحداث تاريخية، بما يطرح إمكانية تعديله جزئيا، والوصول إلى فكرة ليس المقصود منها تقديم حل وسط، بقدر ما يصبح الهدف هو تقديم رؤية أكثر موضوعية بين اتجاهين يتسمان بالتعصب. تتضمن القصة الدينية وقبلها الأساطير فى بعض الأحيان تفاصيل تكاد تتشابه إلى درجة التطابق، برغم اختلاف بقعها المكانية، مما يؤكد أن الذاكرة الجمعية تحتفظ فى أعماقها بوقائع ضاربة فى القدم تواترت عبر الأجيال وجاءت الكتب المقدسة لتُثبتها. هنا ننطلق من فرضية أساسية هى التعامل مع القصة الدينية باعتبارها حقيقة راسخة لا يمكن التشكيك فيها، لكن دون ان تمتد هذه اليقينية إلى تفاصيلها، التى تلعب التفسيرات فى أحيان كثيرة دورا فى تشكيلها. فالزمان والمكان وأيضا مستوى الحدث وضخامته تتحول كلها إلى أمور تحتاج إلى وقفة. من هذه النقطة تحديدا تبدأ الإجابة على السؤال السابق، الذي يُناقش مدى إمكانية التعامل مع القصة الدينية كواقعة تاريخية.

مراجعة الزمان والمكان تقود بالضرورة إلى مراجعة السياقات التي وردت بها هذه الوقائع.
وقبل أن نعمد إلى مزيد من التوضيح نشير إلى نقطة جوهرية، هى أن كثيرا مما ورد فى التوراة بدءا من وقائع الخروج وما تلاها من أحداث حتى تأسيس المملكة الموحدة لم تجد ما يدعمها أثريا، رغم أن السياقات الموازية شهدت نموا ملحوظا لحضارات أخرى، لم يرد بمدوناتها أى ذكر لأحداث يفترض- حسب الروايات الدينية- أنها كانت محورية. من الجزئية السابقة ننطلق إلى سؤال يدفع بنا خطوات إلى الأمام، هو: هل يعنى التسليم بصدق ما ورد فى الكتب المقدسة من أحداث ضرورة الاقتناع بأنها كانت مؤثرة فى سياقها التاريخي العام؟ الإجابة بالنفي تتطلب بعض التوضيح. فى إشارة عابرة سابقة أشرنا إلى أن أهمية الحدث فى سياق الدين لا يعني بالضرورة أهمية مماثلة فى النسق التاريخى. فقصة أهل الكهف مثلا وردت فى القرآن لتُمثل إحدى سردياته الأساسية، لكنها غابت تماما عن الأنساق التاريخية، دون أن تتسبب هذه المفارقة فى أية أزمات بين السياقين. الأمر اختلف عند ما أصبحت الأحداث متعلقة ببنى إسرائيل وما ورد من أخبارهم، فالممارسات الاستيطانية الحديثة جعلت المفكرين الصهاينة يحاولون باستماتة أن يوحدوا بين نسقين لا يُفترض لهما أن يتحدا، لأن هذا الخلط يختلق تاريخا يبرر اغتصاب الجغرافيا. ورغم أن الوجود التاريخي لا يمكن أن يكون مبررا لحقوق حاضرة، خاصة إذا كان هناك شك فى كون اليهود الحاليين امتدادا حقيقيا لبنى إسرائيل القدامى، إلا أن لعبة الإعلام يمكنها أن تقوم بتكريس منطق آخر مغاير لأية معايير موضوعية، هنا يصبح الخلط بين الديني والتاريخي مقدمة لعملية تزييف كبرى.
التعامل مع النسقين التاريخى والدينى يجب أن يعتمد- إذن- على معايير مختلفة، ففي القصة الدينية يتم تضخيم الأحداث بحيث تبدو كما لو كانت محورا في نقطة زمانية

ومكانية ما، وهو أمر مُستوعب لأن الهدف بالأساس تكريس قيم أخلاقية ودينية، لكن لا يُشترط بالضرورة أن تمتد هذه المحورية إلى النسق التاريخى كما سبق أن أشرنا. المثال الذي يمكن أن يسهم فى تقريب الصورة هو الأعمال الفنية، فقد يركّز فيلم فى عصرنا الحديث على قصة بسيطة لأشخاص هامشيين، تدور أحداثها فى زمان ومكان محدودين جدا، لكن الحارة الصغيرة قد تتحوّل إلى عالم لا محدود ويُصبح الزمن القصير أكثر امتدادا! وهكذا يتم التركيز على أحداث هامشية وتضخيمهما لأهداف فنية، مما يجعل أحداثها محورية، لكن فى سياق العمل ذاته وليس بمسار التاريخ الأشمل لبلد ما على الإطلاق. لهذا ليس طبيعيا أن يظهر بعد قرون من إنتاج الفيلم، من يُحاول الاعتماد عليه لإثبات أن هؤلاء الهامشيين كانوا مؤثرين في بيئة لم تلحظ وجودهم من الأساس، ويتحوّل الأمر إلى نكتة سخيفة، لكن المشكلة أن هذه النكات هى التي تحظى بالانتشار الآن.

قضية أخرى تُضيف بعدا آخر للإشكالية السابقة، وتُسهم في مزيد من الإضاءة للمشهد. فالمشكلة الأساسية تتمثل في أن البعض يُطبّقون مفاهيم الحاضر على الماضي، دون مراعاة لاختلاف الظروف. الكتب السماوية مثلا تتحدث عن مُلْك سليمان الذى لم ولن يكون له مثيل، ويتم تفسير ذلك بأنه سيطر على العالم كله في زمانه، رغم أن القصة الدينية تُوضّح أن المقصود هو فرض السيطرة على الجن والحيوانات ومُختلف الكائنات الحية، وهى قُدرة غير محدودة لم يمتلكها بشريّ، ومع ذلك نجد التفسيرات التوراتية للتاريخ تتعامل مع المملكة الموحدة كمحور للعالم. لسنا في حاجة هنا للإشارة من جديد إلى أن القصة الدينية لم تجد حتى الآن أسانيد أثرية، تؤكد وجود هذه المملكة في عصر سليمان، لأننا سنمضى فى اتجاه آخر يبدأ بسؤال: أى عالم بالتحديد سيطر عليه النبي سليمان؟ مفهوم العالم ليس ثابتا، لأنه يتغير حسب مواصفات و طبيعة الزمن الذى يتم تدواله فيه، وإذا كنا تتعامل الآن مع

أمريكا بوصفها سيدة للعالم، أي الكرة الأرضية، فإن المُستقبل يمكن أن يقدم مفهوما مغايرا للعالم، يقوم على ضم مساحات من كواكب أخرى إلى دائرة السيطرة الأرضية، وهو أمر بدأت إرهاصاته تظهر بالفعل. بالمنطق نفسه نجد أن مفهوم العالم تغير عدة مرات عبر التاريخ. فعالم آدم مثلا يختلف عن عالم نوح، بحكم أن دائرة المعرفة بما هو محيط تتسع تدريجيا، مع تطور الأساليب التي تعمل على تنمية هذه المعرفة، كوسائل الاتصال والمواصلات والتوسعات العمرانية والبشرية. يمكن أن نتخذ من قصة النبى نوح نموذجا تطبيقيا للإطار النظري السابق، فقد ذكرت الكتب المقدسة أن نوحا أرسل إلى قومه دون غيرهم، والمنطق يدعم ذلك بالفعل، فالقدرة على إبلاغ الدعوة فى ذلك الزمان المبكر كانت محكومة بحدود تفرضها الظروف. لكن في المقابل يُمكن أن نفترض أن العالم في عهد نوح لم يكن قد توسع بالشكل الذي يحتاج فيه النبى إلى الابتعاد كثيرا، لأن التوسع البشري كان محدودا، مما يجعل عالم هذه الفترة مقصورا على قوم نوح. وهكذا نُصبح أمام فرضيتين أساسيين فيما يتعلق بالطوفان الذي يعتبرا واحدا من الأحداث الدينية المهمة :

الأولى: أن يكون الطوقان قد ضرب الأرض التي شهدت دعوة النبي نوح دون غيرها، لأنه لا يمكن للعقاب أن يقع على بشر لم تصل إليهم الدعوة، ويُحاسبون على خطأ ارتكبه آخرون. وبالتالى لا يكون الطوفان محورا لأحداث العالم وقت حدوثه، بقدر ما كان محورا لقصة دينية وقعت أحداثها في مكان ما من العالم.

الثانية: أن يكون الطوفان قد حدث في الأرض التي شهدت دعوة النبى، وأجهز على العالم كله. على اعتبار أن العالم في هذا الزمان المبكر ووفقا لمعدلات التطور البشري، لم يكن قد تجاوز الحدود المكانية للنبي نوح وقومه.

هنا يتضح أن مفهوم العالم نسبي، وأن من كان يملك الأرض كلّها فى عصر سحيق، لم يكن يُسيطر فعليا إلا على بضعة كليو مترات مربعة. وهو أمر وضعته النصوص الدينية في الاعتبار، فأدرجت هذه الأحداث في أنساقها التي حدثت فيها، وليس فى إطار ما هو معلوم بالضرورة لله بحكم أنه الخالق. هنا نجد أن المساحة التي ضربها الطوفان ربما تكون أقل بكثير من تلك التي أضرّ بها إعصار تسونامى عام 2004م أو إعصار كاترينا عام 2005، أو غيرهما من الأعاصير الُمدمّرة عبر السنوات التالية.

انطلاقا من كل ما سبق نستطيع أن نفهم لماذا كان الخروج حدثا دينيا بالغ الأهمية، لكنه على الصعيد التاريخى لم يلفت انتباه المصريين القدماء، لدرجة أنهم لم يثبتوه فى نقوشهم، وكيف كانت المملكة الموحدة حدثا دينيا فريدا بينما لم تنتبه إليها كل الحضارات المفترض أنها كانت موازية. هنا يمكن أن تفيد مقولة عالم الآثار الأمريكي توماس تومسون الذي قام بحفائر عديدة على أرض فلسطين:"... وبتراكم المعلومات بدأ المؤرخون في النزول بمملكة شاؤول وداود وسليمان وإمبراطوريتهم إلى مستوى مشيخة قبيلة "!(3)

إن الخلط بين السياقين الديني والتاريخي وسحب مفاهيم الحاضر على الماضي يمثلان مغالطتين أساسيتين، تمضيان معا في مخطط يسعى لسرقة التاريخ أو تزييفه، والأدلة المستمدة مما يحدث تشير بوضوح إلى ذلك. وهو أمر نُثبته بوقائع محددة في الفصول التوثيقية الستة الأولى من هذا الكتاب. الوقائع مرعبة تُوضّح أن المزيفين يتوغلون في كل بلدان المنطقة خالطين الأوراق ببعضها. أما الشق التحليلى فيسعى إلى كشف هذا الخلط عن طريق التفرقة بين الوجود والإسهام الحضاري. وأيضا فضْح مقولتي العرق النقي والديانة المغلقة. هاتان المقولتان اللتان يتم تكريسهما لإعطاء انطباع بأن يهود الحاضر هم امتداد لعبرانيي الماضي، ليكون لهم الحق فى وراثة حضارة مُختلقة.

من أجل تحقيق هذا الهدف تتضافر كل الجهود، فتقوم المؤسسة العسكرية الإسرائيلية بأعمال حفائر في المناطق المحتلة، بينما يتولى المستشرقون أعمال الاستخبارات، في حين تواصل الأخيرة توجيه المؤسسات البحثية المدنية لما يخدم الأمن الإسرائيلى فى مواجهاته مع العرب. ويوضح الكاتب الإسرائيلى يئير عميكام أن كل مدرسة تُعنى بالاستشراق بها ضابط كبير من المخابرات يتولى توجيه دراساتها.(4)

المخطط مستمر- إذن- ويجد من يدعمه على الدوام لأسباب دينية أو سياسية، والأمر يحتاج منا إلى مواجهة منطقية لا تنطلق من الشعارات. أعتقد أن أهم خطواتها هو وضع إطار إستراتيجي لمجابهة التفسيرات التوراتية للتاريخ، والتكريس لقراءات عربية موضوعية لا تعتمد على التشنج. لذلك تحديدا فضلتُ أن أبدأ المقدمة بهذا المدخل النظري، الذي يُحاول تقديم اقتراحات لقراءات مغايرة، قد نتفق حول هذه الاقتراحات أو نختلف، لكن المهم أن نعثر على نقطة بداية مناسبة، خاصة أن هناك على الطرف الآخر من يسطو فى السياقين التنظيري والميداني دون أن يجد من يجابهه، والغريب أن باحثين غربيين عديدين بدأوا يردون لنا حقنا المسلوب، بينما لا نزال نحن في أحيان كثيرة نمارس فعل المقاومة... بالشعارات!

هوامش المقدمة

(1) أندرو كولينز وكريس أوجيلفى – هيرالد – توت عنخ آمون.. مؤامرة الخروج، ترجمة : رفعت السيد على – دار العلوم للنشر والتوزيع، 2005، ص: 203، 204.

(2) المرجع السابق – ص:412.

(3) توماس تومسون – أسفار العهد القديم فى التاريخ.. اختلاق الماضى، ترجمة: عبد الوهاب علوب، مراجعة وتقديم : محمد خليفة حسن،المجلس الأعلى للثقافة، 2000،ص: 240.

(4) د. محمد جلاء إدريس – الاستشراق الإسرائيلى فى الدراسات العبرية المعاصرة، مكتبة الآداب، 2003، ص:88،89.

أولاً: الشق التوثيقي

الفصل الأول: التاريخ في خدمة الجغرافيا

فى عام 1967 ، وبعد أربعة أيام فقط من بدء الحرب، أعطى ضابط إسرائيلي إشارة(قد تكون لاسلكية أو يدوية)، ترتّب عليها تقدم الجرافات لإزالة حي اثري بأكمله بالقدس. هدْم حي المغاربة وقتها كان مجرد بداية، فبعد أيام تم الاستيلاء على المتحف الفلسطيني وتحويله إلى مقر لدائرة الآثار الإسرائيلية! كما سطا المحتلون على أرشيف دائرة الآثار الفلسطينية ونهبوا مقتنيات المتحف في محاولة للقضاء على أي أثر كنعاني فلسطيني.

وبعد خمسة وثلاثين عاما أعطى ضابط آخر إشارة انطلاق جديدة، لكنها هذه المرة كانت ذات قوة قتل ثلاثية، إذ أطاحتْ بالمدن القديمة في نابلس والخليل إضافة لكنيسة المهد في بيت لحم. اتساع رقعة طمس الهُوية استدعى اتساعا مماثلا في الأدوات، فالجرافات لم تعد تكفي وحدها. لذلك تم منْح الفرصة للدبابات والمُدرعات وطائرات الاباتشي وال"إف 16"، لتتولى القيام بأكبر عملية تدمير منهجي حسبما أكد خبراء فلسطينيون وصفوا ما حدث بأنه هدم ثقافي يشبه ممارسات التطهير العرقي.

إنها وقائع لعبة تعمد إلى تزييف الحقائق التي ظلت راسخة لفترة طويلة، بدأتْ بإضفاء أبعاد توراتية على ما يُكتشف من آثار، ثم محاولة ضم مواقع عربية إلى قائمة التراث العالمي باعتبارها إسرائيلية! ومالا يمكن تطويعه ليدور فى هذا النسق يتم تدميره.

"نطلب منكم على وجه السرعة، بوصفكم المدير العام لليونسكو بأن تُحركوا المساعي الحميدة لهذه المنظمة الدولية، لمنع المزيد من الدمار وحماية الإرث المعماري للمدن التاريخية فى فلسطين". الفقرة السابقة مقتبسة من نص استغاثة صدرت من اللجنة الوطنية الفلسطينية للإيكوموس(المجلس الدولي للمتاحف والمواقع). أكدت اللجنة أن الكثير من المباني التاريخية والأثرية كانت مستهدفة: "لقد كنّا شاهدين على الدمار الذي حدث في مدن فلسطين التاريخية بالضفة الغربية: نابلس وبيت لحم بدءا من 29 مارس 2002 عندما أعادت إسرائيل احتلال المراكز السكنية الفلسطينية بالقوة. العدوان التالي بالصواريخ والقصف والدبابات والجرافات العسكرية حوّل قسما كبيرا من المدينة القديمة بنابلس إلى حطام، وهدد بانهيار نسيج المدينة القديمة الممتد لالفي عام". (1)

بيت لحم لم تكن أسعد حالا.. فقد واصلت الرسالة:" وفي بيت لحم التي تحظى بالاحترام باعتبارها مسقط رأس السيد المسيح وتُعد واحدة من أهم المواقع المسيحية في العالم، دمرت الدبابات شوارعها وواجهاتها والعديد من مبانيها التاريخية ". ما حدث فى نابلس وبيت لحم امتد إلى الخليل، والمدن الثلاث:" تشتمل على مئات الآثار والمباني العامة والبيوت وأماكن العبادة والشوارع المبنية فوق طبقات تعود إلى العصر الروماني". التدمير الإسرائيلي كان مُتعمدا وبدون مبرر، وهو ماكشفته رسالة أخرى تم توجيهها للّجان الوطنية فى الدول الأخرى، حيث أكدت اللجنة الوطنية الفلسطينية أن:"معظم الدمار لم يكن نتاج تبادل لإطلاق النار"، وهو ما يدحض

مزاعم إسرائيلية بوجود قناصة فلسطينين فى هذه الأماكن. وها هو الهدف يتضح فالرسالة تشير إلى أن:" التدمير الذي يُمكن وصفه بأنه هدم ثقافي، كان هدفا عسكريا رئيسيا يُشبه ممارسات التطهير العرقي التي تمت فى مناطق أخرى من العالم، لم تُميّز القوات الإسرائيلية بين المباني القديمة والتاريخية وبين المنازل وأماكن العبادة فى إطار تدميرها المنهجي في نابلس وبيت لحم ورام الله وجنين". لكن التدمير الأوسع نطاقا للتراث الثقافي الفلسطيني حسبما توضح الرسالة كان:" من نصيب نابلس وبيت لحم، وفي الوقت الذي مُنعت فيه حركة السيارات والمعدات الثقيلة داخل المدن القديمة للحيلولة دون تأثير ذبذباتها على المعمار، كانت القوات العسكرية الإسرائيلية تستخدم الدبابات والجرافات لشقّ طرق في الشوراع التي يبلغ عرضها من مترين إلى ثلاثة امتار، ومن ثم إزالة المباني في طريقها. كما قامت طائرات إف 16 ومروحيات الأباتشى بتحديد هجماتها بالصواريخ على نحو دقيق من الجو، على مباني ومنشآت نابلس التي تعود إلى العهد العثماني، مثل الخانات وحمام قديم يعود للقرن الثامن عشر، ومصنع صابون تقليدي، وعدد من القصور التاريخية المتميزة. ثم نسْف باب جانبي لكنيسة المهد ببيت لحم التي تعد مسقط رأس السيد المسيح، وتسبّب قناصة إسرائيليون في تفتيت (الموزاييك) الخاص بالكنيسة". حصْر الأماكن التراثية التي استُهدفت لم يكن مُتاحا فى البداية، لكن بعد أيام من العدوان أصبح من الممكن إعداد تقرير مبدئي. اتحاد مهندسي نابلس أعد حصرا لما تم تدميره فى هذه المدينة وحدها، وكانت الأرقام مفزعة:

1- جامع الخضرة الذي يتجاوز عمره الألف عام، بلغتْ نسبة تدميره85٪، ولم ينج من الدمار محرابه المُرصع والمنحوت بشكل جمالي مميز، وقد استخدمت قوات الاحتلال الجرافات والحفارات في تدميره.

2- الجامع الكبير ويبلغ عمره 1800 عام(حيث كان في الماضي كنيسة بيزنطية)، نعرض لتدمير 20 ٪.

3- جامع الزيتون: يصل عمره إلى 1600 عام(كان- بدوره- كنيسة بيزنطية) بلغت نسبة تدميره 20 ٪.

4- الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية في حي الياسمين: يتجاوز عمرها أربعمائة عام وتعرضت لدمار 40 ٪، ورغم أن المبني باق إلا أن المذبح والثُريات والمقصورات والأناجيل والجدران تأثرت بشدة، لدرجة أن المبني أصبح غير آمن إطلاقا لأداء الصلاة، كما أن لحق دمار شديد بحجرات خارجية خاصة بالكنيسة.

5- تم تدمير ستين منزلا على الأقل تدميرا شاملا، وهى تنتمي لعصور تاريخية مختلفة(من سنة 1500 إلى 1940)، إضافة إلى تدمير 200 منزل آخر تدميرا جزئيا.

6- ثمانون بالمائة على الأقل من شوارع المدينة القديمة الصخرية التي تجدد رصفها دُمرت بالكامل.

7- حمام الشفاء التركي الذي يبلغ عمره 400 عام، تعرض للقصْف بصواريخ دمرت 50 ٪ منه، والجزء المُدمر كان الأكثر أهمية تاريخيا ضمن الحمامات التي لحقها التخريب.

8- المدخل الشرقي لخان (عمره 220 عاما) تم تدميره بالكامل.

9- عدد من القناطر والأروقة تم تدميرها بشدة.

10- تدمير مصنعي صابون بالكامل(عمرهما 300 و500 سنة)، بعد استهدافهما من قصف بواسطة قذائف طائرات إف 16.

11- تدمير ثلاثة مصانع صابون أخرى بشكل جزئي(يتراوح عمرها بين 300 و500 عام) دمرت جزئيا.

12- سبعة ينابيع مياه رومانية تعرضت للتدمير الشامل.

انتهي التقرير الذي يُوضح أن عدد الآثار المدمرة كليا أو جزئيا يقترب من الثلاثمائة أثر(2). أي أن الجريمة تتجاوز بكثير ما سبق أن حدث في أفغانستان عندما دمرتْ طالبان تماثيل بوذا، ومع ذلك لم تنطلق انتقادات عالمية مُشابهة لما حدث مع الحالة الأفغانية، وتمثّل التحرك الوحيد في موافقة هيئة مكتب مركز التراث العالمي التابع لليونسكو على وضع هذا الموضوع على جدول الأعمال، ليُناقش فى مؤتمر عام، كان مقررا أن يعقد فى بوادبست فى يونيو 2002، ورغم أن مصر نجحت في استصدار قرار مبدئي بإدانة الممارسات الإسرائيلية تجاه التراث وتشكيل لجنة لتقصي الحقائق، إلا أن الولايات المتحدة بذلتْ جهودا محمومة لتعطيل ذلك. وتقدمتْ بمذكرة تعترض فيها على مشروع القرار وتُشكّك فيه، بل وتطالب بإعادة النظر فيه لما شابه- حسب ادعائها- من أخطاء إجرائية. صاغت واشنطن اعتراضاتها في خمس نقاط، تم الرد عليها فى مذكرة تفصيلية مصرية، اعتمدنا عليها فى التعرف على بعض تفاصيل ماجرى في كواليس المنظمة الدولية.

الادعاء الأول حاول التشكيك فى مسائل شكلية، وزعم أن:" طلب إدراج البند جاء فجأة، ودون أي إعلان مُسبق لأعضاء المكتب والمراقبين، وأنه لم يتم تقديمه كتابة كما جرت العادة على ذلك ". ردّت المذكرة المصرية على ذلك وأكّدتْ أن الوفد المصري تقدم في اليوم الأول لاجتماع هيئة المكتب الذي عقد بباريس، بطلب لإدراج هذا الموضوع تحت بند ما يستجد من أعمال، ومن المعروف أن هذا البند يسمح بشكل عام بإضافة أي موضوع طارئ، ويمكن أن تتم هذه الإضافة حتى لحظة تبني جدول أعمال الاجتماع، لذلك فقد مارس وفد مصر حقه الطبيعي في إدراج موضوع جديد عند النظر في جدول أعمال المكتب المؤقت خلال الجلسة الأولى، كما أن إثارة هذا الموضوع بصفة عاجلة كان نابعا من تلاحق الانتهاكات والاعتداءات المُرتكبة ضد مواقع التراث الثقافي والتاريخي بالأراضي الفلسطينية. وهى الاعتداءات التي أشارتْ إليها كلمة مدير عام اليونسكو فى الجلسة الافتتاحية لاجتماع المكتب بصراحة ووضوح.

ركّز الادعاء الثاني على أن صياغة مشروع القرار تمت عن طريق مجموعة عمل، مُشكّلة من أربع دول من أعضاء المكتب، دون السماح بمشاركة مراقبين، واعتبرت المذكرة الأمريكية أن ذلك مخالف للقاعدتين 8/ 1 و 8/ 2 اللتين تحددان القواعد الإجرائية لهيئة مكتب مركز التراث العالمى.

وقبل أن تُفنّد المذكرة المصرية هذه المزاعم، أوردتْ نص القاعدتين ثم أكدت انهما لا تدعمان الادعاء الأمريكي بوجود مخالفة إجرائية، حيث تشير هذه القواعد إلى حق الدول المشاركة فى الاتفاقية أن تشارك فى اجتماعات

هيئة المكتب بصفة مراقب، حتى ولو كانت لا تتمتع بعضوية الهيئة وعلى هذا الاساس حضر عدد كبير من الدول غير الأعضاء فى المكتب بما فيها الولايات المتحدة وفلسطين وإسرائيل، كما أن نص اللائحة على علنية الجلسات جاء مشروطا بعدم صدور قرار من اللجنة ينص على العكس، وقد اتخذتْ هيئة المكتب قرارا بأن تكون جلسات فريق العمل الذي صاغ مشروع قرار الإدانة مغلقة، وذلك بعد الرجوع إلى المستشار القانوني لليونسكو وهو أمريكي الجنسية.

زعم الادعاء الأمريكي الثالث أنه لم يُتح الوقت الكافي لمراجعة القرار أو مناقشته، وهو ما فندته المذكرة المصرية محيلة إلى اللائحة المنظمة للقواعد الإجرائية، قبل أن تنتقل إلى الادعاء الرابع الذي كان أكثر إثارة للاستفزاز، حيث ادعت المذكرة الأمريكية أن ما حدث فى أفغانستان يختلف عما حدث فى فلسطين، المبررات الأمريكية كانت عديدة، أولّها:" أنه قبل تبني القرار الخاص بأفغانستان أجرت المستويات العليا فى إدارة اليونسكو عددا من الاتصالات والنداءات إلى حركة طالبان، كما لم يظهر ممثل أفغانستان فى اجتماعات اللجنة عند مناقشة القرار". من جديد أكدت المذكرة المصرية أن تلك المبررات تخالف الحقائق الثابتة، فقد قام مدير عام اليونسكو بمخاطبة رئيس الحكومة الإسرائيلية، وناشده التوقف عن الاعتداءات على الأراضي الفلسطينية، كما خاطب- قبل اجتماعات المكتب- وزير الخارجية الإسرائيلي، وبذلك تتماثل حالتا فلسطين و أفغانستان، وفى الحالتين لم

يستمع المُتعدّون على مواقع التراث الثقافي فى أفغانستان وفلسطين لنداءات اليونسكو المتتابعة.

أما عما قيل بشأن عدم ظهور ممثل أفغانستان فى اجتماعات اللجنة أثناء مناقشة القرار الخاص بها(3)، فهو أمر رأت المذكرة المصرية انه غير مفهوم:" إننا لا نعي ما المقصود من هذا الادعاء"، ففي حالة تدمير تماثيل بوذا كانت أفغانستان: " شأنها شأن إسرائيل هي الجاني"، كما أن حضور ممثل فلسطين كان ضروريا ليشرح الأوضاع المتردية والانتهاكات التي حدثت، وقد شارك ممثل إسرائيل أيضا كمراقب لأن الدول الأعضاء كانت ترغب فى الاستماع إلى السبب الحقيقي وراء كل هذه الأعمال التدميرية، وتساءلت المذكرة المصرية:" هل كل المقصود من رسالة الولايات المتحدة أننا يجب ألا نقيس ما تقوم به إسرائيل على ما قامت به طالبان؟ القرار الصادر بشان الانتهاكات الإسرائيلية يجب أن يكون أشد فى صياغته، إذا ما وضعنا فى الاعتبار أن حركة طالبان- على خلاف الوضع بالنسبة لإسرائيل- لم تكن عضوا فى الجماعة الدولية ولم تلتزم بإحكام القانون الدولي ولا الاتفاقيات الدولية ".

كما حاولت الولايات المتحدة إيجاد اختلاف آخر بين الحالتين الفلسطينية و الأفغانية، بادعاء أن مواقع التراث الثقافي الفلسطيني غير مدرجة على قائمة التراث العالمي، ولم يتم حتى ترشيحها، بينما تظل حالة التراث الأفغاني مختلفة، فعلي الرغم من انه لم يكن مسجلا إلا أن بعض مواقعه كانت مُرشّحة لأن تدرج على قائمة التراث. المذكرة المصرية ردت على ذلك بأنه

لا يوجد اختلاف من الناحية القانونية بين الحالتين، لأن كلتيهما غير مدرجتين على قائمة التراث العالمي، كما أن ترشيح المواقع للإدراج على قائمة التراث:" لا يكفل لها أية مزية تفضيلية، فبموجب الاتفاقية لا يتمتع أي موقع ثقافي أو طبيعي يتم ترشيحه بأي وضع خاص، ولا بالحماية القانونية المقررة حتى وإن كان مرشحا، مادام انه لم يُسجّل بالفعل".
الغريب أن الولايات المتحدة اختتمت ادعاءها الرابع بقولها إنها على ثقة من أن المكتب سوف يتفادى فى أعماله اتخاذ أي تصرفات تؤدي إلى(تسييس) الاتفاقية!! وانتهت مذكرتها الاستفزازية بعبارات تحمل ضغطا ضمنيا حيث رأت:" أن على المكتب أن يتروى قبل الموافقة على إحالة أي مشروع قرار إلى اللجنة بشأن مواقع لم تُدرج ولم يُقترح إدراجها على قائمة التراث العالمي". السبب الذي أوردته المذكرة الأمريكية تضمن الادعاء الخامس وهو:" بسبب نقص البيانات الخاصة بها أو تضاربها "، وكأن ما حدث فى بيت لحم و نابلس و أثبتته الصور و البيانات لم يُقدم أدلة كافية على أن الجرائم الإسرائيلية فى حق التراث الإنساني فاقت كل الحدود!
لم تكن المذكرة الأمريكية إجراء وحيدا، فقد تبعتها ضغوط مكثفة، أدت فى نهاية الأمر إلى تغيب بعض الدول التي كانت مؤيدة للمطلب العربي، وصمت ممثلو دول أخرى، وكانت النتيجة عدم صدور قرار إدانة!!

حفائر مشبوهة!

من سرق الأرض لن يتوانى عن سرقة ماضيها. التاريخ فى هذه الحالة هو الذي يمنح السطو على الجغرافيا مشروعية مزيفة، تتحوّل- مع الوقت وماكينات الدعاية التي تعمل بلا كلل- إلى حقائق راسخة في وجدان الآخرين!!

يحدث هذا مع الحاضر الذي يُمكن متابعته عبر وسائل الإعلام، فما هو الحال بالنسبة للماضي؟ الإجابة مُحمّلة بروائح الكآبة، وما حدث في القدس يقدم تبريرا للتشاؤم. فقد جرى الإعداد للمخطط منذ عشرات السنين، ومضي بخطي حثيثة لنفاجأ به وقد اقترب من نقطة النهاية.

فى النصف الثاني من القرن التاسع عشر، بدأت الحفائر في جميع أنحاء فلسطين وفقا لفرضيات مسبقة يتم السعي إلى إثباتها. لذلك لقيت الآثار الإسلامية والمسيحية المكتشفة إهمالا شديدا، بل وتدميرا متعمدا فى بعض الأحيان. قامتْ بعثة فرنسية برئاسة ديسولسي بأول حفائر فى القدس عام 1863، واكتشفتْ خارج البلدة القديمة مقابر الملوك التي ادعت أنها ترجع لعصر الملك داود، ومنذ ذلك التاريخ والادعاءات تتابع رغم أن الحفائر تُثبت زيفها. غير أن ذلك لم يمنع الإسرائيليين من تكرار المحاولة. ومنذ احتلال القدس عام 1967، بدأت عمليات حفائر هستيرية تسعى لاكتشاف تاريخ مزعوم، كما أنها- وهذا هو الأخطر- تؤدي إلى تصدع الآثار الإسلامية والمسيحية وتهددها بالانهيار.

بدأت الحفائر جنوب المسجد الأقصى في نهايات 1967، وامتدت لسبعين مترا أسفل الحائط الجنوبي للحرم القدسي. وصل عمقها إلى أربعة عشر مترا، حسبما أكد المهندس رائف يوسف نجم، فى ورقة عمل قدمها لندوة "القدس 5000 عام" التي عقدت في 1997، وأضاف أن هذه الحفائر تُشكّل مع الزمن:" خطرا يُهدد بتصدّع الجدار الجنوبي بمبني المسجد الأقصى الملاصق له". موّلت الجامعة العبرية هذه الحفائر التي ترأسها بنيامين مزار، ومع أن كل ما تم اكتشافه كان آثارا أموية ترجع إلى الفترة من 660 إلى 750 ميلادية، إلا أن مزار أصر فى كتابه عن الحفائر أن موقع الهيكل المزعوم هو نفسه موقع المسجد الأقصى.

وعلى مقربة من هذا المكان أجريت حفائر جنوب غرب المسجد عام 1969 على امتداد ثمانين مترا، واتجهت شمالا حتى وصلت إلى باب المغاربة، وبطبيعة الحال كان يجب أن تمر في مسارها تحت مجموعة من المباني الإسلامية التابعة للزواية الفخرية وعددها 14 مبنى، وأدى ذلك إلى تصدّعها جميعا لتقوم السلطات الإسرائيلية بإجلاء سكانها، وإزالتها بالجرافات في يونيو 1969 لتُكمل بذلك جريمة أخرى، كانت قد بدأتها فى يونيو 1967، بعد أربعة أيام فقط من الاحتلال. عندما هدمت حي المغاربة، الذي يرجع إنشاؤه إلى عهد الملك الأفضل نور الدين علي بن صلاح الدين والى دمشق فى الفترة من 589 إلى 592 هجرية. وكان الحي يضم مسجدين و 135 منزلا.

وفي عام 1973 بدأت حفائر أخرى جنوب شرق المسجد، وامتدت لمسافة ثمانين مترا جهة الشرق، لتخترق في يوليو 1974 الحائط الجنوبي للحرم القدسي، وتدخل إلى الأروقة السفلية للمسجد في أربعة مواقع، هى: اسفل محراب المسجد الأقصى بطول 20 مترا إلى الداخل، أسفل جامع عمر، تحت الأروقة الثلاثة الواقعة اسفل المسجد، وأسفل الأروقة الجنوبية الشرقية. ووصل عُمْق هذه الحفائر إلى 13 مترا، مما عرّض الجدار الجنوبي للمسجد الأقصى لخطر التصدع والانهيار. الخطر نابع من الحفائر وأمور أخرى، يلخصها المهندس نجم:" قِدم البناء، تفريغ التراب الملاصق للجدار من الخارج إلى عمق كبير، مما أدى إلى وجود فرق كبير بين مستوى الداخل و الخارج، إضافة إلى ضجيج الطائرات الحربية يوميا فوق المنطقة واختراقها لحاجز الصوت، وهذه تؤثّر على جميع المعالم الإسلامية الدينية والتاريخية، بما في ذلك المسجد الأقصى وقبة الصخرة المشرفة". وقد تكرّر الأسلوب نفسه باستمرار، فبعد سنوات من الوقائع التي أشار لها المهندس نجم، عاد الإسرائيليون لاتباع الأسلوب ذاته، حيث ضاعفتْ سلطات الآثار لديهم عمليات الحفر تحت المسجد الأقصى فى السابع من ديسمبر عام 2000، واستخدمت أحدث آلات الحفر وأسرعها، بالإضافة إلى استخدام مواد كيميائية تذيب الأتربة!

لم يكتف الإسرائيليون بالحفائر السابقة، بل أصروا على القيام بحفائر أخرى- رغم الاحتجاجات الدولية- أطلق عليها حفائر النفق الغربي، وبدأت عام 1970 وتوقفت سنة 1974، لتعود من جديد في 1975

وتستمر حتى 1988، وفي تحد سافر(معتاد) لقرارات اليونسكو، امتد النفق اسفل المحكمة الشرعية، التي تُعد من اقدم الأبنية التاريخية في القدس، ليمر تحت خمسة من أبواب الحرم القدسي هى: السلسلة، المطهرة، القطانين، الحديد، وباب علاء الدين البصيري، إضافة لمروره تحت مجموعة من الأبنية التاريخية، منها أربعة مساجد ومئذنة قايتباى وسوق القطانين(اقدم سوق اثري في القدس)، وعدد من المدارس التاريخية. ويؤكد نجم فى ورقته أن هذه الحفائر وصلت إلى عمق يصل إلى 14 مترا تحت منسوب الأرض، وامتدت بطول 450 مترا وارتفاع مترين ونصف، ونتج عن هذه الحفائر تصدع عدد من الأبنية منها الجامع العثماني، رباط كرد، المدرسة الجوهرية، المدرسة المنجكية، الزاوية الوفائية، وبيت الشهابي. كما مرّ النفق بآثار بيزنطية و أموية عديدة. التحذيرات من الآثار السلبية للحفائر انتقلتْ من خارج اسرائيل إلى داخلها، فقد حذر عالم الآثار الإسرائيلى يفئال يادين في 29/ 8/ 1981 من مخاطر الحفر تحت الحرم القدسي، وبعدها بيومين ظهر بوضوح أن هذه الحفائر أدت إلى تصدع خطير في الأبنية الإسلامية الملاصقة للسور الغربي. خطورة هذه الحفائر أنها تجعل المشكلة مزمنة، قد تظل كامنة لسنوات، ثم تعود للظهور فجأة على شكل كارثة، ففى 23/ 9/ 2003 أعلنتْ إدارة الأوقاف الإسلامية بالقدس عن انهيار جدار داخلي يقع قرب المتحف الإسلامي، على تلة القدس القديمة في المسجد الأقصى، واتهمت السلطات الإسرائيلية

بالمسئولية عن انهياره، كما أدت الحفائر إلى انهيار مائة متر من الطريق المؤدي إلى باب المغاربة فى 15/ 2/ 2004. (4)

يأتي التدمير في أحيان كثيرة مصحوبا بعمليات تزييف لا تتوقف. في عام 1987 أعلن الإسرائيليون أنهم اكتشفوا قناة جديدة(رغم أن الألماني كونراد تشيك كان قد اكتشفها في القرن التاسع عشر، وهى قناة تبدأ من أسفل المدرسة المنجكية وتصل إلى البرك الصخرية الرومانية)، وقام الإسرائيليون بتوصيل القناة بالنفق السابق، ثم بدأوا تحت حماية الجيش إجراء حفائر جديدة، عند ملتقى طريق باب الغوانمة مع طريق المجاهدين، مستخدمين آلاف الحفر الميكانيكية. الهدف كان شقّ فتحة رأسية يدخلون منها إلى القناة والنفق. لكن تصدي المواطنين الفلسطينيين لهم منعهم مؤقتا من استكمال المخطط، واضطُرت السلطات الإسرائيلية لإغلاق الفتحة، وإن كان ذلك لم يمنع زفولون هامر وزير الأديان وقتها و تيدي كوليك رئيس بلدية القدس من التأكيد على أن هذه الحفائر سوف تُستكمل في الوقت المناسب. وجاء هذا الوقت المناسب فى عهد حكومة نتنياهو، حيث فتح الإسرائيليون في 24/ 9/ 1996 بابا ثانيا للنفق من جهة مدرسة الروضة، التي تقع على طريق المجاهدين. حدث ذلك ليلا تحت حراسة الجيش الإسرائيلي الذي حاصر المنطقة وفرض حظر التجول بها. المخطط تسبّب وقتها في استنكار عربي أثار استغراب نتنياهو!! الذي رأي أن الإسرائيليين أعادوا فتح نفق تاريخي، وبهذا أكد انه لا يوجد سبب للاستنكار! الفلسطينيون ردّوا بأن القديم فى هذا النفق هو القناة التي يبلغ

طولها ثمانين مترا، أما بقايا النفق الممتد من مدخله في ساحة المغاربة إلى باب الغوانمة بطول 450 مترا، فهو حفر جديد قام به الإسرائيليون خلال سنوات طويلة، وقد قدّمت حكومة الأردن شكاوى متتابعة لليونيسكو، بوصفها المسئولة عن آثار القدس، و أصدرت المنظمة الدولية قرارات بإيقاف الحفر، لكنها لم تجد كالمعتاد من يستمع إليها. وفي تقرير تسلمه عام 1996 مدير اليونسكو فدريكو مايور، أكد الفلسطينيون أن الإسرائيليين استعملوا مواد كيماوية خاصة لتسهيل تفتيت الصخر داخل النفق:" وهذه المواد تُشكّل خطورة على أساسات الأبنية الإسلامية، إذا وصلتْها عن طريق المياه الجوفية". يبدو الإسرائيليون مغرمين بالأنفاق لسببين أساسيين: الأول هو محاولة اكتشاف أى قطع أثرية تدعم مزاعمهم، والثانى هو الأخطر، حيث تؤدى هذه الأنفاق إلى تهديد المسجد الأقصى بأضرار مزمنة. والغريب أنها تتكاثر بطريقة سرطانية تؤكد وجود مخطط معدّ سلفا وهذه بعض النماذج:

- في 28 أغسطس 1981 تم الإعلان عن اكتشاف نفق، يمتد من أسفل الحرم القدسي، ذكرت التقارير أن الذى حفره هو حاخام البراق وعمّال من الشئون الدينية.

- في 2 يوليو 1988 حفرتْ وزارة الأديان الإسرائيلية نفقا بالقرب من باب الغوانمة.

- في سبتمبر 2000 أعلنت إسرائيل عن حفر نفق طوله 2000 متر، يمتد حتى الأسوار الجنوبية للمسجد الأقصى.

- في 6 يناير 2001 كُشف النقاب عن وجود أعمال حفر نفق طويل تحت الأقصى.

- في 30 أغسطس 2001، تم الكشف عن قيام سلطات الاحتلال بحفر نفقين جديدين تحت المُصلّى المروانى.

- في أول يناير 2004، كشفت مؤسسة الأقصى عن مخطط أعدّته بلدية القدس لحفر نفق جديد، يمر تحت باب المغاربة، ليصل إلى الحائط الجنوبي للحرم القدسي، ويُعتبر هذا النفق امتدادا للنفق الذي تم شقه عام 1996 أسفل الحائط الغربي للأقصى.(5)

الأنفاق حسبما نشير في موضع آخر من الكتاب، تؤدي إلى انهيارات في أماكن محيطة بالمسجد، مما يضع سيناريوهات مُحتملة لما يُمكن أن يحدث داخل الحرم، لكن يبدو أن هذه النوعية من الأخطار لا تبدو كافية لدى الإسرائيليين، لأنها لا تؤدي إلى النتيجة المستهدفة بالسرعة المطلوبة، لهذا بدأتْ جماعات متطرفة سيناريو آخر، يعتمد على محاولات تدمير الأقصى للتعجيل بإنشاء الهيكل الثالث!

ففى 21 أغسطس 1969 اقتحم الإرهابى دنيس دوهان ساحة الحرم، ووصل إلى المحراب وأضرم النار فيه محاولا تدمير المسجد، وقد أتت النيران بالفعل على مساحة واسعة منه، وبعدها بيومين اعتقل سائح أسترالي من أعضاء كنيسة الله بتهمة تدبير حادث الحرق. وفي عام 1974 عثرت الشرطة الإسرائيلية في منزل يونيل لرنر من المدرسة الثانوية الدينية، على وثائق ومخططات تشرح لأتباعه كيفية منع الانسحاب الإسرائيلي من الضفة الغربية،من خلال نسف مسجد قبة الصخرة. وفي مارس 1983 اعتقلت الشرطة الإسرائيلية 40 يهوديا بتهمة التخطيط لدخول الحرم بالقوة، وحاصرت منزل الحاخام ايريئيل الرئيس السابق لسكان يميت المتدينين، حيث تم اعتقال آخرين فى بيته، وضبط أسلحة ورسومات لجبل الهيكل، وفي اليوم نفسه تم إلقاء القبض على مجموعة متطرفة حاولت اقتحام الحرم من طرفه الجنوبي، وكان أفرادها مدججين بالسلاح. وفى 26 يناير 1984 ضبط حراس الحرم اثنين من عصابة لفتا(أفراد من التنظيم السرى اليهودى المتطرف)، أثناء تسلقهما سور القدس وبحوزتهما كميات كبيرة من المتفجرات والقنابل

اليدوية، بهدف تدمير مسجد قبة الصخرة. وفي 27 يناير 1999 أعلن عن ضبط دميان فاكوبيتش، أحد ناشطي اليمين الإسرائيلي، وكان يُخطّط لتنفيذ عملية تفجير كبيرة، تهدف إلى نسف المسجد. وفى 26 إبريل 2000 كُشف النقاب عن مخطط قديم لتفجير قبة الصخرة، حاول البعض تنفيذه عام 1982، من بينهم جنود بالوحدات الخاصة. وفي أول يناير 2001 تم القبض على ثلاثة متطرفين يهود عند باب المغاربة، حاولوا اقتحام الأقصى وتفجيره بالقنابل.

المحاولات لم تقتصر على الممارسات الواقعية، بل انتقلت إلى الأعمال الفنية، ففي فبراير من العام نفسه تم عرض فيلم " الاتفاق"، الذي يطرح إمكانية تفجير المسجد، وأعرب مخرجه عن أمله في أن يحصل على الأوسكار!! وبعدها بشهرين كشف النقاب عن أمريكيين يستعدون علنا لهدم المسجد الأقصى، وفي 26 يوليو من العام ذاته أكد المركز الأمريكى للدراسات الاستراتيجية قيام متعصبين يهود بإدخال مواد إشعاعية وبيولوجية وكيماوية للمسجد بقصد تلويثه. وفى 23 سبتمبر 2003 أعلنت صحيفة معاريف عن ضبط عصابة متطرفة تسعى لتفجير عدد من المساجد من بينهما المسجد الأقصى. وفي 25 يوليو 2004 نشرتْ صحيفة ها آرتس تقريرا عن إمكانية إطلاق طائرة مفخخة يقودها انتحاري يهودي لتفجير المسجد! كل هذه التهديدات جعلت جهاز الشاباك الإسرائيلي(الاستخبارات الداخلية) يعلن أن التهديد بنسف الأقصى وصل إلى معدل أعلى من درجة التهديد باغتيال رئيس الحكومة!!(6)

إذا كانت هذه هى بعض المحاولات التي تم الكشف عنها، فماذا عن تلك التي لم تُكتشف أو لا تزال تُدبر فى الخفاء؟ سؤال لا يحتاج الى إجابة لأنه معبّر فى حد ذاته. غير أن هناك ملحوظة لا ينبغي إهمالها في هذا السياق، فمن الملاحظ أن غالبية هذه المحاولات تم

اكتشافها بواسطة السلطات الإسرائيلية، وهو الأمر الذى قد يُستغل فى ادعاء أن تلك المحاولات لا تُعبّرعن فكر رسمي. غير أن الوقائع تشير إلى أن الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة تملك الهدف نفسه الذي حاول المتطرفون تحقيقه. الأسلوب فقط هو المختلف عليه، لأن عملية التفجير يُمكن أن تقود إلى نتائج لا يمكن توقعها، قياسا بما حدث فى الانتفاضة الأولى التي اندلعت، نتيجة تجاوز يعتبر أقل بكثير من محاولات التفجير.

تتعدد الوسائل إذن لكن الهدف واحد، وهو استبدال تاريخ حقيقي بآخر مُزيّف، وفي سبيل ذلك يتم ابتكارالكوارث، فإضافة إلى الأنفاق ومحاولات التفجير تتحول أعمال الترميم داخل الحرم القدسي إلى ما يشبه المعارك الحربية!

في الثاني من ديسمبر 1999، أصدر إيهود أولمرت رئيس بلدية القدس قرارا يمنع هيئة الأوقاف الإسلامية من مواصلة أعمال الترميم في المصلى المرواني. هنا تتفق الاتجاهات الرسمية مع غير الرسمية، فالقرارات تواكبها عادة مظاهرات متتابعة تطالب بوقف أعمال الترميم. شهد شهر يناير 2000 مثلا مظاهرتين أساسيتين، شارك فى الأولى العاملون في سلطة الآثار الإسرائيلية، بينما اقتصرت الثانية على أعضاء الحركات الدينية اليهودية المتطرفة، وفي الوقت نفسه منعت الشرطة شاحنتين محملتين بمواد الترميم من إفراغ حمولتيهما. وفي شهر يونيو من العام ذاته تتابعت الحملات الإسرائيلية المناهضة لأعمال الترميم، وشارك فيها يهود متطرفون وأعضاء من الكنسيت وعلماء ومفكرون، وفي الرابع من يوليو من العام نفسه تحوّلت المطالبات إلى إجراء عملي، حيث أوصى جهاز الشاباك والمستشار القضائي للحكومة بمنع إدخال مواد الترميم للمسجد. حدث ذلك بالتزامن مع دعوة أطلقها مجلس الحاخامات لمنع أعمال الترميم. وفي 15 مارس 2001 انضم

الرئيس الإسرائيلي إلى مؤيدي منع أعمال الترميم، وطلب من وزير الداخلية التدخل لوقفها.

وفي سبتمبر 2001 طالبت لجنة أطلقت على نفسها اسم" منع تدمير الآثار في المسجد الأقصى" رئيس الوزراء الإسرائيلي ووزير الأمن الداخلي بوقف جميع أعمال البناء والترميم في المسجد. بعدها بيوم واحد أصدر عوزي لانداو وزير الأمن الداخلي تعليمات بمنع إدخال مواد البناء والترميم، وهدّد باقتحام المسجد الأقصى إذا حدث خرق لهذه التعليمات! الغريب أن التزييف يمتد إلى كل شيء، حيث ادعت سلطات الآثار الإسرائيلية في 19/ 5/ 2004 أن الجدار الشرقي للمسجد مهدد بانهيار وشيك بسبب أعمال الترميم التي تقوم بها دائرة الأوقاف!!(7)، وبهذه الطريقة تظل المشكلة مزمنة، يتم توزيعها على مراحل تمضي متزامنة حينا ومتتالية أحيانا. تسير كلها فى نسق واحد يهدف إلى تزييف التاريخ عبر مسارين أساسيين: تهويد كل شئ وتدمير ما يستعصى على ذلك. والغريب أن ذلك يتم في بعض الأحيان بمساعدة متواطئين يُسهّلون المهمة. في مارس 2005 فجّرت جريدة معاريف ما وصفه المراقبون بأكبر فضيحة لتدمير العقارات الفلسطينية فى القدس المحتلة. حيث باع بطريرك الكنيسة الأرثوذكسية سرا ميدان عمر بن الخطاب بمحتوياته لمستثمرين يهود! كان يُمكن أن تظل الصفقة ذات صبغة اقتصادية، ولو من قبيل المغالطة، لكن المستثمرين لم يكونوا في حاجة إلى تلوين الحقيقة وسط واقع سقطت عنه كل أوراق التوت، فقد أعلنوا حسب معاريف أن الهدف من الصفقة هو:" إنقاذ أراضي القدس وإعادتها إلى أصحابها الحقيقيين"! بمجرد إعلان معاريف تصاعدت ردود الفعل من جانب اتجاهات فلسطينية عديدة تضم مسيحيين أرثوذكس، أسفرتْ عن الإطاحة

بالبطريرك اليونانى إيرينيوس الذي حاول إلصاق التهمة بمساعده لكن محاولته فشلت.(8)

طريق الحج إلى مكة.. إسرائيلي!

في السادس من يونيو عام 2000، أرسل يوسي ساريد وزير التعليم الإسرائيلي وقتها، رسالة إلى مركز التراث العالمي بوصفه رئيس اللجنة الوطنية الإسرائيلية للإيكوموس. تضمنت الرسالة أسماء 29 موقعا مرشحا للتسجيل فى قائمة التراث العالمي بوصفها مواقع تراثية إسرائيلية. كان النموذج الأكثر استفزازا من بينها، هو طريق الحج من مكة إلى القدس! إضافة لوادي الأردن وخليج العقبة ومواقع أخرى عديدة تقع خارج نطاق ما هو متعارف عليه الآن باسم إسرائيل، بل وخارج فلسطين نفسها. من يعرفون أساليب عمل الإسرائيليين لم يستغربوا، بل سارعوا إلى استحضار أمثلة اكثر استفزازا، مثل وضع بعض آثار مصر والأردن في كتيبات سياحية على أنها آثار إسرائيلية يمكن للسائحين الأجانب زيارتها(9). وها هي إسرائيل تحاول استلاب مواقع أثرية فلسطينية، وأخرى تخص دولا محيطة بعد أن أعطتها أسماء عبرية، في القائمة التي أرسلها ساريد للمنظمة الدولية!!

ضمت القائمة: القدس، عكا، مسعدة، وميكاتشيم (النقب الجنوبي). هذه المواقع الأربعة كانت مُرشّحة للتسجيل في العام التالي كنقطة انطلاق لتسجيل المواقع الباقية، وهى: جبل الكرمل(ورد في القائمة الإسرائيلية

باسم هارها كرمل)، وادي المغارة(ناحال مئاروت)، تل وقاص(حاصور)، خربة القحوان(شعار هجولان)، تل القاضي(دان القديمة)، تل الفخار(تل عكا)، قرن حطين(كارني هيثم)، خربة المنيا(هورفات منيم). وقد خالفت إسرائيل شروط الاتفاقية الدولية لحماية التراث العالمي الثقافي والطبيعي، بتجنبها ذكر الأسماء التاريخية التي كانت معروفة ومستعملة في سجل المواقع والمباني التاريخية قبل 1948.

في القسم الثاني من القائمة الذي يضم المواقع متعددة القوميات، اقترحت إسرائيل تسجيل خمسة مواقع، هى: وادي الأردن، نهر الأردن و منابعه، وادي عربة، وخليج العقبة. وفي القسم الثالث(مواقع المجموعات)، طالبت بضم: التل التوراتي، الحصون الصليبية، القصور الأموية، الأديرة الصحراوية، الديكابولس، الفنون الصخرية، ومدن الموانى. ويُلاحظ أن المواقع المقترحة فى المجموعتين السابقتين تنتشر فى عدد من الدول، كفلسطين والأردن وسوريا ولبنان. الأمر لم يتوقف عند هذا الحد ففي القسم الرابع(الطرق الحضارية)، اقترح الوزير الإسرائيلي تسجيل: "طريق الحج من القدس إلى مكة، خط القطار العثماني، وطريق البخور الساحلي".

أعدتْ فلسطين وقتها مذكرة مُضادة بعثت بها لليونسكو، وأكدت فيها أن إسرائيل عمدت إلى مغالطات عديدة. أشار الدكتور حمدان طه مدير عام دائرة الآثار فى السلطة الوطنية الفلسطينية إلى بعضها:" تُغطّي خارطة إسرائيل المرفقة مع التقرير حدود فلسطين الانتدابية، ولا تشير إلى الحدود مع الأراضي الفلسطينية- سواء بموجب قرار التقسيم رقم 181 أو قرار

242- لأراضي الضفة الغربية وقطاع غزة المحتل عام 1967، أو الاتفاقات المُوقّعة بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية، وتنفي الخريطة الوجود الجغرافي الفلسطيني على ارض فلسطين!"، وواصل طه:" أشرنا فى مذكرتنا لليونسكو انه بالاطلاع على القائمة الإسرائيلية يتبين تركيزها على فترات بعينها، وان هذه الانتقائية لا تفي بالفهم الشمولي للتاريخ الحضاري لهذه المواقع عموما". كما أكدت المذكرة أن الاستناد إلى التوراة ككتاب مقدس والمصادر اللاهوتية أمر محل نقد وإعادة تقييم شاملة، من قبل البحث الأثري الحديث، لأن الرؤية التاريخية القديمة التي تشكّلت على قاعدة الفهم اللاهوتي الديني، اتسمت بانحياز أيديولوجي واضح لفترات معينة، وإهمال مقصود لدلائل الفترات الأخرى، وذلك نتيجة تأثر بمجمل عوامل الصراع السياسي الصهيوني الفلسطيني، وأبرز مثال على ذلك مسعدة، التي تستند في الرؤية الإسرائيلية على أسطورة معاصرة، تُشكّل جزءا من الأيديولوجية التاريخية الصهيونية، ولا تُعتبر محل ثقة من علماء الآثار.

شارك العرب في التصدي لهذه المحاولة الإسرائيلية، التي تُعتبر واحدة من حلقات السطو على التاريخ لصالح دعم سرقة الجغرافيا، وتمكنتْ مصر والمغرب فعليا من تجميد مناقشة الطلب الإسرائيلي، غير أنه كان تجميدا مؤقتا، إذ نجحتْ إسرائيل بعد ذلك في تسجيل موقعين!

إذا كانت الآثار ذات قيمة في كل مكان على وجه الأرض، فإنها تكتسب قيمة إضافية في فلسطين، لأنها تتحول فى هذه الحالة إلى أدلة تثبت حقوقا

تاريخية يتم اغتصابها وإعادة صياغتها، ليتحول ما هو فلسطيني أصيل إلى أداة تكرس لما يطلق عليه "إسرائيل عبر العصور"، لهذا لم تكتف السلطات الإسرائيلية بإجراء حفائر تثبت مزاعمها بل سلبتْ معها كل ما استطاعت حمله من آثار قبل نزوحها من المناطق المحتلة بعد عملية السلام.

صحيح أن بروتوكول الشئون المدنية لاتفاقية القاهرة حرص على بحث هذه المشكلة، ونص على ضرورة أن تقوم إسرائيل بتزويد الجانب الفلسطيني بقائمة للمواقع التي نقبت فيها ووصف القطع الأثرية التي استولت عليها وإعادتها، إلا أن هذه القضية ظلت مُعلّقة حتى مفاوضات المرحلة النهائية.

الفعل الإسرائيلي الْمُتتابع لم يجد في مواجهته إلا قرارات إدانة دولية في الماضي، وصيحات شجب وتنديد في الحاضر، وكلا الأمرين لا يملكان حماية تاريخ أصبح مهددا بأن ينضم إلى الجغرافيا المفقودة، خاصة مع استمرار الإسرائيليين فى ابتكار الكوارث.

الهوامش

(1) في هذا الفصل تحديدا تمت الإشارة إلى المراجع والمصادر داخل المتن، لأن اغلبها وثائق يفضل الإشارة إليها بجانب الاقتباسات، وهو ما يُحقق ارتباطا عضويا لمادة الفصل، تجعل عملية استيعاب ما به من معلومات اكثر يسرا.

(2) تعرضتْ نابلس لعدوان آخر في بدايات 2004، ترتّب عليه تدمير عدد آخر من الآثار، مما دفع عمرو موسى أمين عام جامعة الدول العربية وقتها، إلى إرسال خطاب لجمعية الآثاريين العرب، ورد فيه:" لاشك أنكم تتابعون أنباء العدوان الإسرائيلي المستمر على مدن وقرى الضفة الغربية وقطاع غزة، وخاصة الاعتداء الأخير على مدينة نابلس، والذي أدى إلى تدمير وخسائر هائلة في أحياء هذه المدينة التاريخية، التي تُعتبر من اقدم مدن العالم(...)، إن هذا العدوان الإسرائيلي إنما يهدف إلى تهيئة الظروف للسيطرة على مُقدّرات الشعب الفلسطيني و إنهاء قضيته، وذلك من خلال تدمير التراث الثقافي الفلسطيني، وطمس الهوية العربية الإسلامية للشعب الفلسطيني وتراثه التاريخي الإنساني، والذي يُعدّ جزءا هاما من التراث العالمي ". الهدف من خطاب أمين جامعة الدول العربية كان:" أدعوكم باعتباركم جهة الاختصاص لإثارة هذا الموضوع في مختلف المحافل الدولية، والعمل على عقد اجتماع للجنة التراث العالمي، لبحث هذا العدوان الخطير، واتخاذ الإجراءات الكفيلة بإدانة العدوان الإسرائيلي،

ودعوة منظمة اليونسكو لإرسال لجنة تقصي حقائق، يعقبها وضع برنامج لترميم وإصلاح الآثار التي تعرضت للتدمير، حتى يمكن المحافظة على الطابع التاريخي لمدينة نابلس وباقي المدن الفلسطينية الأخرى". وقد أكد حمدان طه مدير عام دائرة الآثار والتراث الثقافي فى وزارة السياحة و الآثار الفلسطينية أن الاجتياح المشار إليه، شهد تركيزا من الجرّافات على تدمير حي القريون، الذي يُعتبر أحد أهم الأحياء التاريخية بنابلس، كما تعرّض منزلان أثريان آخران للتفجير فى اجتياح تال حدث يوم 23/ 6/ 2004.

(3) هنا يتبدى الخلط الأمريكي المتعمد للأوراق، ففي الحالة الأفغانية كانت حكومة طالبان هى الجانية، تماثلها فى الحالة الثانية إسرائيل، وبالتالي فإن الاعتراض الأمريكى كان ينبغي أن ينصب على حتمية عدم حضور إسرائيل بوصفها الجاني، لكنّ المذكرة الأمريكية أعطت انطباعا بأن الجانب الفلسطينى لم يكن ينبغى عليه المشاركة، كما لو كان هو المسئول عن تدمير التراث، وهى مغالطة مفضوحة لكنها معتادة.

(4) "المسجد الأقصى المبارك... اعتداءات ومخاطر... 1967 – 2005 " – مؤسسة الأقصى لإعمار المقدسات الإسلامية – 2005 – ص:43،45.

(5) المرجع السابق ص : 5، 9، 20، 23، 29.

(6) المرجع السابق ص : 3، 7، 12، 16، 23، 25، 41، 48، 57.

(7) المرجع السابق ص : 14، 15، 17، 18، 25، 49.

(8) مركز الإعلام الفلسطينى – وكالة الأنباء الفلسطينية وفا 19 مارس 2000.

(9) المطبوعات السياحية الإسرائيلية تحث السائح الأوربي على زيارة إسرائيل ليروا الأهرامات وبناتها!! (على القماش – مخطط ضياع الهوية وتدمير الآثار الإسلامية – النشر على نفقة المؤلف–1999).

الفصل الثاني: فن تصنيع الكارثة

على البعد يبدو كوحش أسطوري يتقدم بخطى مُتثاقلة ليلتهم ما أمامه. نظرة مُتأمّلة إليه كفيلة بإيقاظ مشاعر مؤلمة، فهو يتنامى ليُشكّل تدريجياً ملامح أضخم سجن في التاريخ. التعامل معه كان سياسياً. كالعادة ثارتْ ضجة حول عدم شرعيته ومخالفته للقوانين الدولية. ضجة أصبحت هزلية لأنها تمضي في نسق لم يعد يعترف بالقواعد الدولية إلا إذا كانت تخدم مصالح بعينها. كالعادة غطت لعبة السياسة الأكثر حضوراً على أخطار أخرى لا تقل أهمية، فالجدار يتقدّم ومن بين أهدافه الرئيسية التهام تراث المنطقة على عدة مستويات، لذلك فإن:" آثاره كارثية على التراث والمشاهد الطبيعية في فلسطين"(1). مرحلته الأولى وحدها شهدتْ تدمير عشرة مواقع بصورة مباشرة، إضافة إلى دخول سبعين موقعاً آخر في حيز منطقة عازلة، تفصل بين الجدار والخط الأخضر، الذي يُشكّل حدود الضفة الغربية لعام 1967:" بما يُخرج هذه المواقع عملياً من دائرة السيطرة الفلسطينية"(2). الرقم السابق قد يبدو مرتفعاً، لكن ما يُتوقع حدوثه في حال اكتمال الجدار يحمل مواصفات الكارثة، حيث ينتظر أن يتم إخراج خمسة آلاف موقع أثري وتراثي فلسطيني من دائرة السيطرة الفلسطينية!

الرؤى الأكثر تفاؤلاً تشير إلى أن الجدار سيقتطع 33٪ (فقط) من مساحة الضفة، وهى تُغطّي المنطقة التي أقيمت عليها مستوطنة كفار عصيون بمحيط الخليل، حتى موقع أثري يدعى تل ستيلو، وينتمي إلى فترة العصر

البرونزي المتوسط وطوله 45 كيلو متراً، مما يوفر منطقة مفتوحة تضم شرق القدس التي تُعتبر الحزام الواقي لمشروع القدس الكبرى، فيما يُعتبر محاولة جديدة لترسيخ ما يطلق عليه الإسرائيليون اسم الجغرافيا المقدسة(3)، ورغم أن ما سبق وحده يُعتبر كارثياً إلا أن استعراض التفصيلات يُوضّح جوانب أخرى للمأساة.

الأمر يتطلب- بداية- استدعاء معلومات عن عدد المواقع الأثرية والتراثية بالمنطقة، وهو مايعيدنا الى تاريخ أبعد نسبيا، فبعد عام 1967 بدأت الهيئات الأثرية التابعة للاحتلال عملها في الأراضي الفلسطينية، ليبلغ عدد المواقع التي تم مسحها- بين عامي 1967 و2000- نحو 3170 موقعاً ومعْلماً أثرياً، في الأجزاء الشمالية والوسطى وبعض أجزاء جنوب الضفة بما فيها القدس الشرقية، أما المسح الفلسطيني في المنطقتين أ، ب (مناطق السلطة) فقد غطى 2831 موقعاً. من الصعب تحديد رقم نهائي للمواقع والمعالم الأثرية الفلسطينية بصفة عامة، وتلك التي ستقع خلف الجداربصفة خاصة، بسبب عدم نشر نتائج كل المسوح الإسرائيلية، إلا أن المُعطيات المستمدة من المصادر الفلسطينية والإسرائيلية وقبلها الإنجليزية(أثناء فترة الانتداب) تشير إلى عدد هائل من المواقع التراثية، يتجاوز اثنى عشر ألف موقع، وما يزيد على سبعين ألف بيت تقليدي في القرى الفلسطينية، إضافة إلى نحو اثنى عشر ألف بيت ومبنى عام في المدن التاريخية الأربع(القدس، نابلس، الخليل، وبيت لحم)، كل ذلك في مساحة لا تتجاوز 5595.5 كيلو متر مربع(4). هذا الكم الهائل يشير إلى ما تتمتّع به المنطقة من ثراء غير

عادي. وبحسبة رياضية بسيطة، تبدو ملامح المأساة أكثر وضوحاً، فإذا استعرنا المعايير التي تستخدم عادة في قياس الكثافة السكانية، لوجدنا أن كل كيلو متر مربع في المناطق المشار إليها يضم 2.14 موقعاً و 14.65 بيتاً أو مبنى عاماً. وإذا تغاضينا عن كون الموقع يضم مجموعة كبيرة من الآثار وتعاملنا معه باعتباره لا يتضمن إلا أثراً واحداً، فإن نصيب الكيلو متر المربع من الآثار يصبح 16.7 أثراً(حاصل مجموع الرقمين السابقين). يبلغ طول الجدار 617.83 كيلو متراً مما يعني أنه سيسبب تلفا مباشراً أو حتى يمثل خطراً محتملاً (لمجموعة الآثار التى سيستبيح حرمها) لنحو 10317.76 أثراً(حاصل ضرب نصيب الكيلو متر المربع من الآثار × طول الجدار)، وهو رقم قد يكون نظرياً لكنه مذهل(5). على أرض الواقع لا تبدو الصورة مختلفة كثيراً، وحسب التقارير العلمية سيؤثر الجدار سلبياً على الآثار والتراث الحضاري بالمنطقة في اكثر من مدى زمني، ففي المدى القريب سيؤدي إلى تفكيك بنية المشهد الحضاري واستخدام الأراضي التاريخية القائمة على جانبيه:" إحدى أوجه عملية تفكيك المشهد الحضاري بفعل بناء الجدار تتحدّد بعدد المواقع والمعالم الاثرية الواقعة على جانبي الجدار(...) فعلى مسافة متر واحد من على جانبي الجدار هنالك خمسة مواقع ومعالم أثرية، وعلى مسافة عشرة أمتار من على جانبي الجدار هنالك 29 موقعاً ومعلماً أثرياً، وعلى مسافة الخمسين متراً من على جانبي الجدار، هنالك 161 موقعاً ومعلماً، وعلى مسافة مائة متر من على جانبي الجدار هنالك 269 موقعاً ومعلماً أثرياً"(6)، وكلما ابتعدنا عن الجدار تزايد عدد

المواقع الأثرية التي ستتعرض لعملية تفكيك، وإذا تضاعفت المسافة إلى مائتي متر يصل عدد المعالم والمواقع الأثرية إلى نحو 596، وتستمر النسبة في التصاعد عندما نصل بالمسافة إلى كيلو متر، حينئذ يبلغ عدد المواقع والمعالم على جانبي الجدار 2921 موقعا. وما ينطبق على المواقع والمعالم يمتد إلى القرى والمدن التقليدية، التي يصل عددها على بعد نحو كيلو متر من الجدار إلى 92 قرية ومدينة مهددة بأن:" تفقد حالتها التاريخية المتمثلة في المشهد الحضاري، إضافة إلى تدمير الآلاف من الحقول الزراعية التاريخية المنتشرة في هذه القرى، مما يعني تدمير نظام تاريخي لاستخدامات الأراضي المنتشرة على جانبي الجدار"، حسبما يؤكد التقرير نفسه.

وفقاً للأرقام السابقة فإن ما لم يلتهمه مسار الجدار سيكون عرضة للاختراق والتفكيك، وهو ما يُخل بعمومية المشهد الحضاري، الذي لا يقل أهمية عن الموقع الأثرى. والإخلال بأحد طرفي العلاقة يقود تلقائياً إلى اختلال الآخر، والتلاعب فى هذه الحالة يكون مقصوداً لإسقاط حق الفلسطينين في إدارة هذه المواقع، خاصة أن تفكيكها يجعل عددا كبيراً منها خلف الجدار(لصالح الإسرائيليين).

العدد – كغيره من الأرقام – مفزع، فالجدار سيؤدى- في هذا السياق- إلى اغتصاب 4264 موقعاً ومعلماً أثرياً، منها 466 موقعاً أساسياً، من إجمالي 1084 موقعا أساسيا في الضفة الفلسطينية والقدس الشرقية، وهو الأمر الذي يصب في السياق المعتاد:" هذه النسبة العالية من المواقع الأساسية التي تقع خلف الجدار، تُشكّل قيماً علمية وتاريخية مهمة للتاريخ الحضاري

في المنطقة، ويبدو أنه عندما تم التخطيط للجدار وُضعت مساراته الأساسية والفرعية من الجهات الأربع للاحتواء، ووضْع أعلى ثقل ممكن من المواقع الأساسية خلفه، بهدف تجريد الفلسطيني من حق إدارة هذه المواقع، وإبقائها تحت السيطرة الإسرائيلية، مما يعني العمل على إبقاء النشاط الأثرى منحصراً من الجانب الإسرائيلي، والمغزى الأيديولوجي والتاريخي المُحرّك وراء هذا الإجراء، هو أن الضفة الفلسطينية حسب المدرسة الأثرية التوراتية تُعتبر الجغرافية التاريخية لتشكّل قبائل الإسرائيليت في فترة العصر الحديدي الثاني (1000ق.م.)، وقيام ما يسمى في الأدب التوراتي بدولة يهوذا والسامرة "(7). التاريخ والآثار لا ينفصلان إذن عن نظرية الأمن الإسرائيلي بل يمضيان سوياً على الدوام، وهو أمر سنجده يتكرر كثيراً، فالمؤسسة العسكرية الإسرائيلية كانت تُشرف بنفسها على أعمال التنقيب اللاهثة التي أجريت في سيناء وجنوب لبنان أثناء احتلالهما، وتلك التي لا تزال تجري في هضبة الجولان السورية. الدقّة التي تمضي بها الأمور تُشير إلى أن التاريخ حاضر دائماً في أذهان من يُخطّطون لاستلاب الجغرافيا.

الأخطار السابقة هى التي يحققها تشييد الجدار على المدى القريب، أما على المدى المتوسط فإن الخطر يتمثل في خلخلة الترابط الحضاري بين المواقع الأثرية في الضفة والمناطق الحضارية المجاورة. إذا استعدنا حقيقة أن الضفة مكدسة بالمواقع والمعالم الأثرية ستبدو ملامح الكارثة أكثر وضوحاً، إذ أن الجدار سيفصل هذه المواقع عن عمقها الحضاري الإقليمي والعالمي التاريخي، والمثال الأكثر حضوراً يتمثل في القدس التي:" سوف تعيش مع

قيام الجدار وما سمي بغلاف القدس حالة من العزل الحضاري لأول مرة في تاريخها"(8).

يعمل الجدار أيضا على خلخلة العلاقة بين المواقع والمعالم الأثرية والقرى التقليدية والمدن التاريخية القائمة في الضفة، وهى علاقة بالغة الأهمية، لأن كل هذه المفردات نتجتْ بشكل متواز في الماضي، ولا يعتمد علم الآثار الحديث على دراسة كل موقع على حدة، بل يُركّز على ما يُسمّى بالمشهد الأثري، الذي يقوم على دراسة محيط الموقع، وقد يتجاوز هذا المحيط في بعض الأحيان أكثر من عشرة كيلو مترات، مما يعني أن أكثر من 618 موقعاً أساسياً سوف تقتطع من محيطها الحضاري القائم في فلسطين التاريخية، مما يعني إسقاط الفرصة العلمية المستقبلية لفهم مصادر الحياة القديمة بهذه المواقع الأثرية.

أية عقلية يُمكنها أن تُخطط لضرب كل هذه العصافير بحجر واحد؟!

تدمير آثار، وتفكيك مواقع تراثية، وسلب مناطق أخرى بنقلها إلى المحيط الإسرائيلي، وخلخلة شمولية المشهد الحضاري، والتأثير على مسارات البحث العلمي مستقبلياً، كل هذه المخططات توارت في زخم مشاكل حاضرة جرى التخطيط لها بعناية، لكي تجذب الانتباه بعيداً عن عملية اغتصاب الذاكرة، فأمام المشكلات الآنية يصبح الإنسان مشغولاً بكيفية ممارسة حقه في الحياة، أو حتى التضحية بنفسه في سبيل اقتناص لحظة مستقبلية لآخرين، دون أن يُدرك الكثيرون منا أن" الآخر" لا يفصل بين الماضي والحاضر، لأن اختلال أحدهما يعني نهايته. الكلمات السابقة ليست

انشائية، لأنها تعبر عن حقائق تتكشف تدريجياً كلما تعمقنا في البحث. فالاحتلال لا يقصد من وراء الاهتمام بالزمنين الماضي والمضارع إلا التخطيط للمستقبل، والمستقبل قاتم في ضوء ما يتم فضحه من مخططات، إذ أن الجدار إضافة إلى كل ما سبق سيؤدي إلى نتيجة مرعبة، هى أن يقوم الفلسطيني بتدمير تراثه بنفسه! فبقاء الجدار لفترة زمنية طويلة يعني أن المساحة الممنوحة للفلسطينيين كي يعيشوا بها سوف تضيق عليهم تدريجياً. وفي مساحة 2742 كيلو متراً مربعاً مخصصة لهم، توجد آلاف المواقع والمعالم الأثرية، وعشرات من القرى التقليدية والمدن التاريخية، وإذا وضعنا معدلات الزيادة السكانية في الاعتبار، فإن :"الحاجة الملحة إلى تجديد وتوسيع البنية التحتية سوف تقترب إلى الحدود المباشرة للمواقع والمعالم الأثرية والقرى التقليدية، مما يُسهم في مضاعفة التفكيك والتدمير لمصادر التراث الحضاري في مناطق المعازل، والمشكلة الأساسية الأخرى هى التفكك الدراماتيكي للتكوين التاريخي لاستخدامات الأراضي عبر إعادة توزيع جديد لنوعية الاستخدام، قائمة على أولوية الحاجات المعاصرة، دون النظر إلى المحتوى الحضاري لاستخدامات الأراضي، وبهذا سوف نجد أنفسنا أمام اندثار مصادر التراث الحضاري وفقدان مصادر كتابة التاريخ الحضاري"(9). لا يكتفي الإسرائيليون بما دمروه، بل يخططون لأن يدمر الفلسطيني بنفسه أسانيد وجوده والأدلة على حقوقه، وليس أمامه فى هذه الحالة الا أحد اختيارين: إماعدم القدرة على الحياة في وجود تاريخه، أو الحياة (مؤقتاً) بعد تدمير هذا التاريخ، وأسباب الوضع المؤقت تتمثل في أن

الأرض ستضيق عليه بعد سنوات أخرى، ليجد نفسه أمام الاشكالية ذاتها، لكن دون أن تكون لدية بدائل مطروحة وبعد أن يكون قد فقد تراثه فعلياً!!

العقلية التي خطّطت للجدار هى نفسها التي عمدت قبل سنوات إلى إقامة مستعمرات على المواقع الأثرية الفلسطينية تحت مُسمّى" مستوطنات"، الهدف واحد وكذلك النتيجة، فأحد أهم الأخطار التي تواجه المناطق الأثرية على مستوى العالم هي مشكلة التوسع العمراني الذي يهدد بعضها بالفناء، وهو أمر يعرفه الإسرائيليون الذين اختاروا مواقع مستعمراتهم بدقة تقود إلى القضاء على التراث الفلسطيني. ولم يكتفوا بالتعدي على المناطق الأثرية الفلسطينية وإنشاء مستعمراتهم عليها، بل قاموا أيضاً بتغيير أسمائها معتمدين على أن الزمن كفيل بالباقي. وهذه بضعة نماذج للمستعمرات التي أنشئت على مواقع أثرية فلسطينية(10):

- كوخاف هشاحر، وتعني نجمة الصباح، أقيمت عام 1975 على أراضي دير جرير وكفر مالك، وبها قبر مسيحي أثري لكاهنة كانت تدعى الست زهراء.

- شاني شومرون، أقيمت عام 1978 جنوب محطة سكة حديد المسعودية، قرب سبسطية باعتبارها عاصمة مملكة إسرائيل المزعومة.

- كفار تفوح، أنشئت عام 1978 على أراضي ياسوف واسكاكا بسلفيت، وسُميت بهذا الاسم نسبة إلى مدينة بتواح التي ذكرت بسفر يشوع.

- شيلوا، أنشئت عام 1978 على أراضي قريوت وحالوا وتر مسعيا، والموقع يُعتبر مهما من الناحية الأثرية، حيث يحتوي على عدد من الآثار القديمة، كما تم اكتشاف مناطق أثرية مهمة بهذه المنطقة، لكن المستوطنين أحاطوها بسياج كبير.

- علمون، أقيمت عام 1983 بالقدس المحتلة، وبها خربة قديمة تدعى خربة علميت، تضم جدراناً مهدومة وأحواضاً منقورة بالصخر وأساسات كنيسة مع أرضية مرصوفة بالفسيفساء، وقناة ومساكن من الكهوف وينابيع مياه تاريخية، وسُميت المستعمرة بهذا الاسم نسبة إلى بلدة علمون الكنعانية.

- أوفيم، أقيمت عام 1986 على أراضي ديراستيا بسلفيت وبها عدة خرب اثرية أهمها خربة قانا.

- حبلة، أثناء قيام سلطات الاحتلال بشق طريق حولها، تمت مصادرة مقام "أولاد العوام" ودمّرت الجرافات عدداً من قبور الصالحين.

- عطارون، أقيمت على أراضي رفات برام الله وهي أرض كنعانية أثرية تدعى يزقتيل.

- عوفرة، التي تحمل اسم مدينة كنعانية تاريخية، لكن الإسرائيليين ادعوا أنها مدينة اسرائيلية أقيمت منذ عهد الهيكل الثاني، وقام الرومان بضمها إلى مملكة يهودا.

إنهم يملكون قدرة فائقة على إثارة المشكلات، كما أن تفكيرهم يتشعب إخطبوطيا لنفاجأ دائماً بأنهم لا يركزون على محور بعينه، بل يمتد عملهم في أكثر من اتجاه وفي نفس الوقت. ربما يكون الجدار العازل والمستعمرات التي تقضي على مناطق الآثار الفلسطينية مثالين مُعبّرين عن التخطيط الذي يتجاوز كل الحدود، لكن حتى هذين النموذجين لا يحققان إشباعاً للإسرائيليين، رغم أنهما ليسا وحيدين بل يمضيان ضمن نسق أشمل، تم التعرض له في الفصل السابق بشكل أكثر تفصيلاً. ويؤدي عدم الوصول الى نقطة التشبع الى تتابع الممارسات لتفاجأنا محاولة أخرى قد تكون مستفزة لكنها غير مستغربة، لمن يتابعون أداء الإسرائيليين، تكشفت تفاصيلها أثناء اجتماع خبراء الآثار العرب في القاهرة في إبريل 2004، فإسرائيل حاولت رفع القدس من على قائمة التراث العالمي!!

بدأت القصة خلال اجتماع المؤتمر العام رقم 32 لمنظمة اليونسكو الذي عُقد عام 2003، حيث تقدم مندوب أمريكا وأطراف أخرى بتوصية(مستغربة)، لتشكيل لجنة فنية لمعاينة حالة الحفاظ على التراث الثقافي لمدينة القدس وأسوارها. منبع الاستغراب أن إسرائيل كانت تتصدى دائماً وبمعاونة أمريكية، لفكرة تشكيل أية لجان فنية يُمكنها ان تفضح ممارساتها تجاه التراث الفلسطيني، لكن التوصية هذه المرة كانت أمريكية ولم تلق نفس رد الفعل الإسرائيلي. وبالفعل تم تشكيل اللجنة برئاسة مدير مركز التراث

العالمي، وضمت مندوبين من المنظمة الدولية للمباني التراثية والمنظمة العالمية لصيانة وترميم المباني التراثية، وجيوفاني بوكاردي رئيس وحدة المواقع التراثية العربية على قائمة التراث العالمي، إضافة إلى عدد من الخبراء الآخرين، وكان من المُفترض أن تضم اللجنة عالم الآثار أوليك جرابار، غير أن السلطات الإسرائيلية رفضت استقباله لأسباب أمنية(!!) رغم أن جرابار كان الوحيد الذي سيعتبر متخصصاً في القدس من بين أعضاء اللجنة. وصلت البعثة إلى المدينة في نهاية فبراير 2004، واستمر عملها لمدة عشرة أيام، وتشير مذكرة أردنية أعدها عبد السميع أبودية المسئول بدائرة الآثار الأردنية إلى أن المجموعة العربية في منظمة اليونسكو احتجت لدى مدير عام المنظمة، لأن البعثة لم تضم أي خبير بالآثار الإسلامية، مما قد يؤدي إلى تحيّز في إعداد التقرير(11)، وتضيف المذكرة أن المجموعة العربية عقدت اجتماعاً لها في باريس في نهاية يناير 2004، أشار فيه رئيس المجموعة مندوب سلطنة عمان إلى أنه يشاع في أروقة المنظمة أن إسرائيل تحاول شطب مدينة القدس من قائمة التراث العالمي، وبناء على ذلك تم تشكيل لجنة عربية مصغرة اجتمعت بمدير اليونسكو، وأطلعته على تحفظات المجموعة العربية على تشكيل البعثة لعدم وجود خبير متخصص بالآثار الإسلامية، كما أشارت إلى الموقف السلبي لرئيس البعثة، الذي لم يوافق على اقتراح بضم خبير الآثار الإسلامية عبد العزيز بشاوش إلى أعضائها.

على الجانب الآخر كانت البعثة تؤدي عملها في القدس وسط أجواء مريبة، فقد طلبتْ إجراء تعديلات على البرنامج المُعد سلفا، ليشمل موضوعين جديدين هما أسطح البيوت في القدس القديمة وبركة حزقيا، وهو الطلب الذي رفضته دائرة الأوقاف الإسلامية، حسبما ذكر الدكتور حمدان طه في تقريره عن الزيارة، وبررت الرفض بأن هذين الموضوعين يُعبّران عن أفكار إسرائيلية حول هاتين القضيتين سبق رفضها، وقد أوضح المسئولون الفلسطينيون لأعضاء الوفد ما تعانيه آثار المدينة من اخطار نتيجة الحصار المفروض عليها، والاعتداءات المتتابعة وعدم القدرة على إدخال المواد والمعدات والتأثير السلبي لذلك على إمكانية الترميم والحفاظ على المباني التاريخية، وخصوصاً في المنطقة المحيطة بالحرم. وأشاروا إلى المخاطر الناجمة عن استمرار أعمال التنقيب السرية في منطقة الحرم، وتأثيرها على أساسات المباني، وضربوا مثالاً بالانهيار الذي كان قد حدث فى توقيت مقارب بالممر الموصل إلى باب المغاربة. التقرير الذي أعده حمدان طه لم يتضمن انطباعات سلبية عن زيارة البعثة، ويرجع ذلك إلى أنه لم يصدر عن أعضائها ما يفصح عن نيتهم. غير أن الدكتورة ريتا عوض المحت في كلمتها التى القتها فى المؤتمر نفسه عن المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة إلى وجود مؤامرة :" ساد شعور عربي له ما يبرره لدى المجموعة العربية في اليونسكو، بأن إسرائيل ما وافقت على استقبال هذه البعثة بعد سنوات من رفض قبول بعثات من اليونسكو، إلا بوجود ضمانات من المنظمة الدولية بأن يكون تقرير البعثة مواتياً لمطالب إسرائيل ومحققاً لها"، وأشارت بدورها إلى عدم

وجود أي خبير عربي أو مختص بتراث المنطقة ضمن أعضائها. الشك تحول إلى يقين حسب تأكيد الدكتورة ريتا بعد لقاء السفراء العرب مع رئيس البعثة:" وتقديمه- بعد امتناع- تقرير شفهياً مختصراً عن نتائج الزيارة، ظهر فيه جليا ان البعثة لا تذكر ان القدس مدينة محتلة، ولا تُحمّل أية مسئولية للاحتلال عن تردي الأوضاع المعيشية في المدينة بوجوهها جميعاً، بما فيها مواقع التراث الثقافي"، الأخطر هو ما ورد في العبارات التالية:" ولعل أخطر ما صرح به أن القدس لا تستجيب في وضعها الراهن لشروط التسجيل على قائمة التراث العالمي مما يوحي بخطر اسقاطها عن هذه القائمة"!!! الغريب أن إسرائيل كانت قد تقدمت عام 2000 بطلب لتوسعة موقع مدينة القدس القديمة على القائمة نفسها من أجل إضافة معبد يهودي في محاولة سافرة للتدخل في ملف المدينة. غير أن المجموعة العربية تصدت لذلك وتمكنت من ايقاف الطلب اعتماداً على ضرورة الحصول على موافقة الدولة المعنية بمدينة القدس، وهي الأردن التي كانت قد نجحت في تسجيل المدينة العتيقة عام 1981 على قائمة التراث العالمي، وفي 1982 نجحت من جديد في تسجيلها على قائمة المواقع المهددة بالخطر. وهكذا تستمر محاولات إسرائيل المدعومة بتواطؤات من هيئات دولية، هذه المحاولات التى تهدد بشطب القدس من على قائمة التراث العالمي (وهى قائمة تمنح المواقع المسجلة عليها أولوية الإنقاذ فى حال حدوث أية مشكلات أو كوارث كبرى تهدد آثارها) وهو ما يفتح الباب بعد ذلك إلى بدء تسجيل جزئي لمواقع بالمدينة المقدسة على أنها إسرائيلية!!

تم إحباط الخطة الإسرائيلية بالاجتماع الثاني والعشرين لمركز التراث العالمي، في يونيو 2004 بمدينة سوشو الصينية. لكن فشلها لا يعنى أن المحاولات توقفت، لأن التجارب السابقة تشير إلى أن الفشل المرحلى لا يلغى الفكرة بل يجمدها لفترة، تعود بعدها للظهور من جديد. وسواء نجح المخطط مستقبلا أو فشل، فإنه يظل دليلاً على أن العقلية الإسرائيلية لا تتوقف عن ابتكار مخططات تهدف باستمرار إلى سرقة التاريخ ونزع الهوية الأصلية عن المنطقة لصالح تواريخ أخرى مختلقة.

الهوامش

(1) حمدان طه مدير عام دائرة الآثار والتراث الثقافي في وزارة السياحة والآثار الفلسطينية- مقابلة خاصة.

(2) المصدر السابق.

(3) د. ابراهيم الفني- مذكرة بعنوان "الجدار العازل- بناء الجغرافيا المقدسة لدولة إسرائيل".

(4) تقرير صادر عن المؤسسة الفلسطينية لدراسة المشهد الحضاري بعنوان:" جدار الفصل العنصري سوف يتسبب بكارثة حضارية على الآثار الفلسطينية.. لا تقل خطورة عن الكارثة الإنسانية والسياسية التي سوف تحل بالشعب الفلسطيني".

(5) العملية الحسابية لا تقدم حقيقة مسلم بها بقدر ما تعطي واقعاً افتراضياً يمكن أن يكون ذا دلالة، ومثلما يحدث في مثل هذه النوعية من العمليات الحسابية، يمكن أن تقل النتيجة النهائية أو تزيد وفقاً لكثافة وجود الآثار في كل كيلو متر مربع يخترقه الجدار.

(6) تقرير المؤسسة الفلسطينية لدراسة المشهد الحضاري.

(7) المرجع السابق.

(8) المرجع السابق.

(9) المرجع السابق.

(10) ذيب عمارة- المستعمرات الإسرائيلية القائمة على الآثار الفلسطينية- بحث منشور على شبكة الإنترنت.

(11) فيما يتعلق بموضوع القدس، تمت الإشارة إلى المصادر داخل المتن لأنها عبارة عن وثائق ومذكرات رسمية، نرى أنه من الأنسب أن تُذكر في سياقها، مما يؤدي لجعل الإلمام بجوانب القضية أكثر يسراً. كما أن الوقائع كلها ذُكرت فى سياق موضوع صحفى نشره المؤلف بجريدة" أخبار الأدب" بتاريخ 25 إبريل 2004.

الفصل الثالث: تعبئة الزيف

"نحن كشفنا أنفسنا الآن لأننا نعتقد أن الإنسانية على وشك الوقوع في حرب عالمية. إن الخطط للحرب رسمتها مصر، وإذا خسرت إسرائيل فسيقع العالم في حرب كونية. لقد بقيتْ جولة واحدة من المفاوضات قد تمنع الحرب، لكن أمريكا هى المشكلة، فلن تنجح المفاوضات. ليس لدى المصريين حتى الآن موعد نهائي للحرب، إن الأيام الحرجة من وجهة نظرنا قد تكون: 12 أو 15 أو 26 ديسمبر سنة 1971، ولن تقع الحرب إذا لم تبدأ في أي من هذه الأيام"!! تحتاج العبارات السابقة إلى وابل من علامات التعجب خلف كل منها، لكن الاقتصاد في هذه العلامات مطلوب لأنها ستصبح أكثر إلحاحاً في مواضع أخرى.

ربما نكون في حاجة إلى بعضها عندما نشير إلى أن الاقتباس السابق لم يكن- كما قد يوحي مضمونه- جزءاً من تقرير لإحدى وكالات المخابرات، بل جانباً من حوار بين كائنات فضائية غامضة وإسرائيلي اسمه أوري، اختاره الفضائيون ليكون- مع زميله الأمريكي- سببا في منع الحرب الكونية(1)، والغريب أن الكائنات الفضائية اختارت الجانب الإسرائيلي(ربما بوصفه الشعب المختار من جانب الرب وسكان الكواكب والغرب!) دون الجانب المصري، الذي يُخطط للحرب والعدوان، بدرجة باتت ملحوظة حتى من جانب الذين يعيشون على بعد ملايين السنوات الضوئية! ولأن هؤلاء على درجة أكبر من الدراية بما سيحدث في المستقبل، فقد كانت نصيحتهم

للإسرائيليين هي: " اهجموا أولاً، لا تنتظروا، في الخرطوم وفي مصر سيكون الكثير من الموتى. السادات سيقضي عليه ضباطه، سوريا ستهاجم، الأردن لن يتدخل، سيكون هناك جنود مصريون كثيرون في الأردن، أنت الوحيد الذي سينقذ الجنس البشري"! وهكذا تصبح إسرائيل- فجأة- غير مسئولة عن نفسها فقط،وانما عن الجنس البشري بأكمله، الذي يتوقف مصيره على أن تُبادر هى بالهجوم، وعلى القرار الذي سيتخذه السادات! ورغم معاونة الفضائيين فإن الأمريكي اندريجا بوهاريتش(مؤلف الكتاب الذي يضم هذه الخزعبلات) لا يجد أمامه إلا الصلاة: "صليتُ من أجل أن يدخل السلام قلب السادات(...) خلال هذه الساعات الاثنتى عشرة جلستُ في شرفتي متجهاً إلى مصر داعياً للسلام"! ويبدو أن صلوات المؤلف جاءت بالنتيجة المرجوة، حيث واصل:" قرأتُ في جريدة جيروزاليم بوست بتاريخ 29 ديسمبر سنة 1971 نتائج المؤتمر الصحفي الذي عقده السادات، بأنه لن تكون هناك حرب، وحتى هذا اليوم لا أعرف لماذا غيّر السادات رأيه، ولا أعرف ما الذي منع إسرائيل من شن هجوم مبادر ضد مصر. وإني متأكد أنه في يوم ما ستذاع الوثائق السرية عند كل من الطرفين، لتوضّح ما حدث في ديسمبر سنة 1971". ربما تكون الكائنات الفضائية قد تدخلت لدى السادات(!) لكن إلى حين، فبعدها بأقل من عامين حدثت حرب أكتوبر1973 دون أن يتسبب الأمر في حرب عالمية، وقد اهتم المؤلف بالإشارة إلى ذلك في هامش محدود :" كما يعرف القارئ فقد وقعت حرب في أكتوبر بين مصر وإسرائيل. كنت مسافرا مع

أوري إلى ألمانيا، واتصل أوري بالفضائيين عن طريق التنويم ليسألهم عن كيفية بدء هذه الحرب فقالوا: إنها حرب عادية. ستحارب إسرائيل وحدها دون مساعدة منا، وستكون علامة على الأرض كحرب مهمة للجنس البشري"! وهكذا فإن الفضائيين الخيرين سيتركون ربيبتهم إسرائيل تدخل الحرب ضد المصريين أعداء السلام وحدها. لماذا؟ لم يحدد الفضائيون أسباباً مقنعة لذلك حتى نهاية الكتاب، مثلما لم يوضحوا أسباباً لأمور أخرى كثيرة منها أسباب اختيارهم لإسرائيل:" قلت ولماذا تهتمون بالاسرائيليين؟ قال: أرض إسرائيل هي أول أرض هبطنا عليها ولهذا السبب نحن مهتمون بها. اصبر- بعد سنوات - ستعرف كل شيء في أوانه ". جمل بسيطة تجعل فعل الاختيار لإسرائيل من قبل الآخر غير مرتبط بالحاضر فقط، وإنما متوغل في الماضي ومستمر في المستقبل، بحيث يتم تأصيل الادعاء بأنهم أصحاب الأرض الحقيقيين. التكنيك المستخدم هذه المرة مختلف، فهو بعيد كل البعد عن الكتابات الأيديولوجية الجافة التي قد تصل إلى الخاصة دون العامة، والبعد هنا مُبرّر بالرغبة في توسيع قاعدة التلقي، عن طريق استخدام كل ما هو جذاب بالنسبة للقارئ العادي(الذي يمكن وصفه في هذه الحالة تحديداً بأنه مسطح الثقافة)، من خلال توليفة تمزج بين الباراسيكولوجي والأطباق الطائرة وسكان العوالم الأخرى بأسلوب شيق شديد السلاسة، ينساب إلى عقل القارئ دون مقاومة ما، لأن الأخير يصبح في حالة من الاستسلام الجذل نتيجة غرابة المضمون، وهي حالة تجعله مستعداً لتقبل أي معلومات جانبية تتسرب إليه باعتبارها مسلمات، وهكذا يتم خلق رأي

عام- اجنبي بالطبع- متعاطف مع الإسرائيليين، اعتماداً على مبررات متناثرة بخبث عبر صفحات الكتاب، وفي الوقت نفسه يجرى التشكيك في كل المسلمات الدينية والتاريخية المرتبطة بالآخر(نحن)، وبطريقة ناعمة لا تثير شكاً، ففي إطار نقاش بين بطل الكتاب(أوري) ومؤلفه حول كيفية تمهيد الرأي العام العالمي لاستقبال الفضائيين، يقترح الأول الاعتماد على نماذج قديمة ظهرت من خلالها إنجازات الكائنات الفضائية:" يمكننا ان نستخدم أمثلة حدثت منذ ثلاثة آلاف سنة، ومن خلال ذلك نخبر الناس ان القوى ستُظهر نفسها. لا أعرف لماذا لا تظهر القوى نفسها اليوم.. وربما لأن الناس أفقها ضيق. هل هناك مثل على كيف بُنيت الأهرامات؟ حتى اليوم لا أحد يعرف". ما الذى زج بالأهرامات في هذا السياق؟ ولماذا الادعاء بأن عمر الأهرامات ثلاثة آلاف عام فقط؟ رغم أن عمرها يزيدعلى مايزعمه الكتاب بنحو 1500 عام، لايمكن أن يكون ذلك ناتجا عن جهل، فالفترة الزمنية التى يشير اليها المؤلف تتزامن مع العصر المفترض لمملكة داود، مما يعطى انطباعا بأن اختيارهذا التاريخ تحديدا لم يكن من قبيل الصدفة، خاصة إذا ما استعدنا مزاعم اليهود بأنهم بناة الأهرامات. من جديد نتساءل ما علاقة الفضائيين بالأهرامات؟ الكتاب نفسه لا يجيب مباشرةً في هذا الموضع، ويكتفي بأن يزرع التساؤلات وعلى القارئ أن يفكر، لكن احتمال عدم وصول الفكرة المستهدفة للقارئ غير مطروح لدى المؤلف، فها هو يختتم كتابه بحوار غريب بين المؤلف ومندوب الفضائيين(!) ننقل منه هذا الجانب:" قال: أول تدخل لنا مع الجنس

البشري كان منذ عشرين ألف سنة، جئنا في بعثة مُخطّطة لنا من مجرتنا الخاصة، وأول هبوط لنا على الأرض كان في إسرائيل في المكان الذي كنتم فيه(!!!)، عند شجرة البلوط في مامر في الخليل حيث قابلنا إبراهيم، وتلك هي أصل حكاية وأسطورة سلم الآلهة، لأنهم رأونا نهبط من مركبتنا على سلم، ولقد وجدنا آثارا لزوار آخرين مروا بالأرض منذ ملايين السنين قبلنا، لكننا وجدنا الإنسان في الحالة الحيوانية التي هو عليها الآن.

سألت : متى كانت اخر مرة حاولتم بنشاط أن ترفعوا من نوعية نفس الإنسان ومن حضارته؟

قال: نحن نقدم النصائح بالفعل كل ستة آلاف سنة، آخر مرة حدث فيها ذلك كان منذ 6 آلاف سنة مع المصريين. نعطي نصائحنا برفق وليس بقوة(!!!) ونفعل ذلك لصالحنا أولاً.

سألت : هل كان ذلك في عهد امنحوتب؟

قال: بالضبط كان رجلاً يشبه أوري كثيراً(!!) وأحضر للمصريين كل حضارتهم(!!).

سألت: هل كانت هذه الفترة أيام تيحوتي أيضاً؟

قال: كان معروفاً بقدرته على شفاء الأمراض.

سألت: هل هناك أماكن أخرى حاولتم فيها مساعدة الإنسان بإنارة عملية الحضارة؟

قال: نعم فمنذ ستة آلاف سنة حين نزلنا على الفراعنة حاولنا المساعدة في أماكن أخرى"(2).

إذن، كل حضارة المصريين- حسبما أكد الفضائيون- مستوردة! إضافة إلى حضارات أخرى عديدة ادعى الأخيرون فى سياق جمل عابرة أنهم قدموا لها مساعدات. لتبقى الحضارة اليهودية (المزعومة) هي الأصيلة، وسط كمّ من الحضارات المصنوعة في كواكب أخرى. بذكاء شديد يتم اختيار فترات بعينها ورموز مؤثرة مثل أمنحتب (لم يحدد الكاتب أى أمنحتب يقصد، وربما يعتقد البعض أنه أمنحتب الرابع المعروف بإخناتون، باعتباره أحد الشخصيات الأساسية التى تتعرض لعمليات تزييف واسعة النطاق، كما سنوضح فى فصل تال من الكتاب، لكن المؤلف يقصد- كما هو واضح من السياق- امنحتب بن حابو الذى يعد واحدا من أعظم المهندسين فى التاريخ، وكان المهندس الخاص ببلاط أمنحتب الثالث والد إخناتون)، وكما هو واضح فإن كل كلمة فى العبارات السابقة مُخطط لها بعناية، حتى الجمل العابرة كتلك التى تجعل أمنحتب يشبه الإسرائيلى أورى! إنهم ببساطة لا يتركون شيئا للمصادفة حتى لو كانوا يروّجون للتفاهات.

لا أدري لماذا يذكرني هذا الكتاب بكُرة "بولينج"، لا تبتغى هدفا واحدا بل أهدافاً عديدة، والغريب أن اللاعبين هنا هما نفس اللاعبين دائماً فيما يتعلق بهذه القضية، أحدهما أمريكي والآخر إسرائيلي. لا يمكن تحديد من منهما اللاعب الأساسي ومن هو الشريك، كما أن أسلوب اللعب محدد طبقاً للمواصفات الأمريكية، التي تقوم على جودة تغليف أي منتج ردئ بغلاف مبهر جذاب كفيل بتغيير الحقائق.

النموذج السابق يُظهر بوضوح كيفية استغلال أي شيء- حتى التفاهات- في التكريس لأيديولوجيا بعينها، بل إن هذه التفاهات قد تكون أحياناً أشد تأثيراً، لأنها تستهدف- كما سبق أن ذكرنا- جمهوراً لا يستطيع(وقد لا يرغب) في التصدي، وهكذا تدخل الأعمال السينمائية والكتب الرخيصة ساحة المعركة لتحقّق ما فشل المنطق العلمي في تحقيقه.

قبل سنوات طويلة وقف مناحم بيجن أمام الأهرامات ليُطلق مقولته الشهيرة عن أجداده الذين بنوها. ولم يهتم إلا القليلون بالرد عليه. كثير من المتخصصين ابتسموا لهذه النكتة السخيفة، ورأوا أنها لا تستحق عناء الرد، فأول ظهور لبني إسرائيل كان بعد بناء الهرم بنحو ألف وخمسمائة عام، لكن الماكينات الإعلامية أعادت إبراز هذه المقولة وغيرها، مشيرة مرة إلى دور مُختلق لبني إسرائيل، ومرة أخرى إلى جاليات سامية من أجداد الإسرائيليين كانت سبباً أساسياً في بزوغ الحضارة المصرية القديمة. حقّقت الأعمال السينمائية المتتابعة مالم تستطع ان تحققه الدراسات العلمية، التي تظل إمكانات التزييف فيها أقل بكثير، ومع طوفان الأفلام مثل "ستارجيت"، "المومياء"، و"أمير من مصر"، ترسّخت قناعات جديدة في أذهان جمهور غربي ذي ثقافة مسطحة.

في عام 2000 زارت مُثقفة مصرية(3) أخاها المقيم في أمريكا، وذات أمسية وجدت ابنه بصحبة بعض أصدقائه الأمريكيين، ورأت أن الفرصة مناسبة لتعريف هؤلاء الصغار ببعض ملامح الحضارة المصرية. مضى الحديث طبيعياً وبسلاسة، حتى وصل الكلام إلى الأهرامات التي كانت

السيدة ترى أنها تجسد بؤرة حديثها، لذلك عقدت النية منذ البداية على تأجيل الحديث عنها حتى النهاية باعتبارها الأثر الأكثر إبهارا.. لكنها لم تلبث أن فوجئت بالاطفال يصيحون مؤكدين أن لديهم معلومات عنها، في هذه اللحظة شعرت السيدة بالزهْو الذي ينتاب أي إنسان في موقف كهذا، لكن مشاعرها انهارت بعد لحظات عندما فاجأها الأطفال بقولهم ان اليهود هم الذين بنوها.

قصة حقيقية تصلح كدليل يوضح مدى عُمق الكارثة، خاصة إذا أضيفت إليها حكاية أخرى رواها لي ذات مرة العالم الراحل الدكتور علي رضوان عميد كلية الآثار الأسبق، عن زوجة أستاذ جامعي أمريكي لا تزال تعتقد أن المصريين يركبون الجمل للذهاب إلى عملهم، والحكايتان معاً تصلحان كنموذج يُجسّد نتائج حملات الدعاية المضادة التي بلغت حبكتها حدا اقنع الملايين من البشر(أطفالا وكبارا، مثقفين ومحدودي الثقافة) بأن المُزيّف هو الحقيقي، فإذا أضفنا إلى هذه الحكايات أعمالاً سينمائية من عينة "أمير من مصر"، فإن ملامح الكارثة تزداد وضوحا، لأن فيلم الكارتون الشهير الذي عرض في ألفي دار عرض داخل أمريكا وحدها تضمن الكثير من المغالطات، وأظهر المصريين القدماء بوجوه غليظة قاسية، بينما كانت براءة الأطفال تنساب على وجوه الشخصيات العبرانية، لتتعمق في أذهان الأطفال الذين يشاهدون الفيلم رؤى مصطنعة تؤثر في طريقة تفكيرهم، وتحدد من جديد ملامح علاقات مستقبلية يجري التخطيط لها بدأب شديد منذ الآن.

تزداد المأساة بكتب متتابعة وآراء شاذة يتبناها هواة أجانب، ويروّج لها بعض المصريين، تدّعى أن إخناتون هو موسى، أو أنه إبراهيم حسبما ورد في كتاب فرنسي صدر قبل سنوات، لتكريس فكرة قديمة تؤكد أن العبرانيين هم أصحاب الفضل في الحضارة الحديثة، وقد سادت هذه الفكرة لسنوات طويلة قبل أن ينفيها علم الآثار، ويتصدى لها علماء موضوعيون كثيرون، ومنهم هنرى بريستيد الذي أكد في كتابه" فجر الضمير" أثناء تطرقه لثورة اخناتون أنه:" ليس لدينا ما ينبئنا عنه إلا القليل فوق ما عُثر عليه من بقايا مدينته، التي كانت بمثابة مركز منعزل للمثل العالية، التي لم يدركها غيره أو يعرفها، إلا بعد مضي قرون عدة، حينما تألف أولئك البدو الذين كانوا إذ ذاك ينزحون إلى أقاليم إخناتون الفلسطينية، وكانوا أمة، كان لها المطامع الاجتماعية والخلقية والدينية ما كان من نتائجه ظهور أولئك الرسل العبرانيين أصحاب المزامير، ليواصلوا السير بالروح والرؤيا اللتين سبقهم فيهما أصحاب الأحلام الاجتماعيون من المصريين الأقدمين"(4)، وكانت النتيجة هى ظهور الأفكار نفسها فى المزامير العبرية بعدها بقرون. الأمر لا يتوقف على الاقتباس من إخناتون، حيث يشير بريستيد إلى النقل من حكم أمينموبي:".. وذلك في تعاليم مفكر مصري في القرن العاشر قبل الميلاد، وقبل أن يُكتب أي شئ من التوراة، إننا نعرف الآن أن حكم أمينموبي هذه قد ترجمت إلى العبرية وقرأها العبرانيون، وأن قسماً هاماً منها قد وجد سبيله في كتاب العهد القديم". ليس هذا فقط، بل إن بعض الصور التي وردت في الحكم:" انحدرت إلينا

عن طريق محرر كتاب الأمثال العبري، وانتشرت في حياة العالم الغربي، بعد ظهورها بين سكان مصر بثلاثة آلاف سنة"، حسبما يؤكد بريستد قبل أن يتساءل:" وقد وصلنا الآن إلى مركز يمكننا من الإجابة عن كنه تلك الوراثة للأفكار الخلقية والدينية، أهي من صنع وإنتاج المدنية العبرانية فقط؟ أم ان التاريخ يكشف لنا أن إرثنا الخلقي قد تكوّن إلى درجة عظيمة في عصر أقدم بكثير من العهد العبراني، وأنه انحدر إلينا على شكل انتاج تألف من طائفة المدنيات العظيمة".

تأكيدات وأسئلة بريستيد العلمية، لم تجد من يتذكرها في مواجهة أفلام وكتب تتتابع لتكرس الأفكار نفسها بصورة مباشرة أو غير مباشرة. قبل سنوات ظهرتْ رواية كريستيان جاك عن"رمسيس الثاني" في خمسة مجلدات، حققتْ الرواية مبيعات خيالية فاقت الثلاثة ملايين نسخة خلال بضعة أشهر من صدورها. المبيعات الهائلة كان يُمكن أن تصبح مصدر سعادة لأحفاد رمسيس الثاني غير أنها تحولت إلى مُولّدات للقلق. فكل نسخة إضافية يتم توزيعها كانت تعني أن مزيداً من المعلومات المضللة ستجد طريقها إلى العقول. في الصفحة الثالثة من الطبعة الإنجليزية ورد النص التالي:" وبالطبع يستطيع أن يعتمد رمسيس على مؤيديه، وهم أمه تويا وزوجته الجميلة الهادئة نفرتاري، وأربعة من أصدقاء طفولته"، الأول من بين الأربعة كان:"موسى العبراني وهو الآن المدير لمشاريع الانشاءات الملكية"!!!(5). ما العلاقة بين الاثنين؟ لا أحد يعلم، كما أن أحداً لن يراجع أو يركّز على الأخطاء العلمية، وهكذا تُنسب أهم انجازات رمسيس

الثاني المعمارية التي تثير دهشة العالم حتى الآن إلى موسى العبراني. جملة واحدة يقرؤها الملايين في سياق عمل إبداعي شيّق، كفيلة بتكريس واحدة من عمليات السطو على التاريخ. فما بالنا إذا لم تكن هذه الجملة مجرد إشارة عابرة، بل يتم الترسيخ لها في صفحات تالية تبلغ ذروتها عند الحديث عن مدينة بررمسيس، التي يزعم اليهود أن أجدادهم هم من قاموا بتشييدها. يصف كريستيان جاك كيف ذهلت نفرتارى بروعة بناء هذه المدينة، فأطلقت عليها اسم المدينة التركوازية اعتماداً على اللون الغالب على مبانيها، وفي أوج الاحتفال بافتتاح المدينة يدخل موسى، الذي لم يعد هناك شك في أن رمسيس سوف يكافؤه على إنجازه الضخم بأن يمنحه منصب الوزير الأكبر المسئول عن كل شيء!!!

وفق هذا النسق تتتابع المحاولات، ويتم ربط ملوك مصر القديمة بأنبياء بني إسرائيل(وهو أمر نتعرض له بالتفصيل في موضع آخر من الكتاب)، أو يجري التشكيك في صحة نسب الحضارة المصرية إلى اصحابها الحقيقيين، وإذا كانت المحاولات في معظمها غير علمية إلا أنها تنتقل في بعض الأحيان إلى المحافل المُتخصصة، ففي إبريل عام 2000 عقد علماء المصريات مؤتمرهم الدولي الثامن بالقاهرة، ووسط زخم المداخلات المُهمة ألقى الألماني هيلموت بيتش محاضرة عن الخلفيات الدينية لثورة اخناتون، ادّعى فيها أن معظم مفردات ورموز الحضارة المصرية وافدة من الخارج، فآمون وحورس إلهان مستوردان، كما أن أم أمنحتب الثالث وأم إخناتون وزوجته نفرتيتي غير مصريات، الغريب أن المُتحدث لم يترك أي منطقة

محيطة بمصر شرقاً وجنوباً وشمالاً حتى جزيرة كريت دون أن يزعم أن مصر اقتبست منها شيئاً. تصدّى له وقتها الدكتور علي رضوان مؤكداً أنه لم يسمع طوال حياته مثل هذا الهراء، وأضاف:" لو أن هذا القول تردّد منذ أكثر من ستين عاماً، لاعتقد الناس أن معلومات قائله مُشوّشة لا يعرف صاحبها حضارة مصر، أما أن تُقال في يومنا هذا فإن الأمر يدعو للشك والريبة". أجواء الريبة كانت مبررة، خاصة أن المؤتمر شهد محاولات عديدة من باحثين إسرائيليين لاختراقه، وعندما تصدى الدكتور زاهى حواس أمين عام المؤتمر لهذه المحاولات، فوجئ بضغوط من باحثين امريكيين هدّدوا بالانسحاب إلا انه أصّر على موقفه. حدث هذا في مؤتمر عُقد بالقاهرة، فما بالنا بالمؤتمرات التي تقام خارج مصر(يعقد هذا المؤتمر الدولي كل أربعة أعوام في دولة مختلفة ولم تستضفه مصر إلا دورتين فقط).
الحديث عن الادعاءات يُمكن أن يمتد إلى ما لا نهاية، لأن الواقع يؤكد أن أصحاب الفكر الصهيوني لديهم قدرة خلّاقة على الابتكار، تجعلهم يعملون في أكثر من اتجاه. يحاولون ربط تاريخ مصر وحضارتها بالفكر التوراتي، وفي نفس الوقت يشوّهون ما تبقى ويزيّفونه ليعطوا تبريرات مُختلقة، بأن حضارة هذه المنطقة ناتجة عن تواجدهم هم، أو مخلوقات فضائية، أو حتى كائنات تنتمي لعوالم غامضة لا دليل على وجودها كقارة اطلانطس المفقودة. تنطلق فيه هذه(الحواديت)، ويساهم بعضنا فى ترويجها، وفي الوقت نفسه يجري السطو على الآثار المادية وتزييف آثار أخرى. والغريب

أن جهودهم لم تقف عند حدود الآثار القديمة، لكن تأثيراتهم امتدت إلى الآثار الإسلامية نفسها وهو أمر سنتطرق إليه في حينه.

نهب سيناء

إنهم لا يضيّعون وقتاً. هذا هو ما تثبتُه الأحداث دائماً. لم تكد تمضي عدة أسابيع على احتلال سيناء عام 1967، حتى بدأت البعثات الأثرية الإسرائيلية تتوافد عليها، ضاربة عرض الحائط باتفاقية لاهاي التي تحمي الممتلكات الثقافية فى مناطق النزاع المسلح، وغيرها من الاتفاقيات الدولية. بدأتْ أول بعثة عملها في قلعة تل الطينة بشمال سيناء في أغسطس من العام نفسه، ثم تتابعت بعدها البعثات، فعملت بعثة جامعة بن جوريون في المنطقة الواقعة من القنطرة شرق وحتى رفح المصرية، وهي المنطقة المعروفة بطريق حورس الحربي. قامتْ البعثة وقتها باجراء أكبر عملية مسح أثري في مسافة تمتد بطول 160 كيلو مترا وعرض ثلاثين كيلو متراً(6)! في هذا السياق أجريت حفائر عديدة ومجسات في عدد من المواقع الأثرية بسيناء أهمها: تل الحير، الكدوة، قصر ويت، الخروبة (العريش)، الفلوسيات (بحيرة البردويل)، ليتجاوز عدد مواقع الحفائر في سيناء أثناء الاحتلال 35 موقعاً(7). وكانت البعثات تقوم بالإعلان عن الاكتشافات التي يُعثر عليها وتنشرها علمياً، لكن في المقابل كانت هناك حفائر تتم خلسة من جانب بعض الجنود لحسابهم الشخصي، إضافة إلى حفائر أجريت لصالح موشي ديان، ليقوم باختيار ما يعجبه من آثار ويضمها إلى مجموعته. لم تكن

حفائر ديان الخاصة تقتصر على سيناء فقط بل امتدت إلى الجولان والأراضي الفلسطينية، ساعد في ذلك أن سلطات الآثار كانت تتبع وزارة الدفاع الإسرائيلية!! (أهذا دلالة ما؟!).

يُعدّ معبد سرابيط الخادم من أبرز المناطق التي استولى منها ديان على آثار. يرجع المعبد إلى عهد الدولة الوسطى، حيث بناه سنوسرت الأول للإلهة حتحور. الذين قاموا بزيارة الموقع عقب استرداده، لاحظوا وجود قطع أثرية عديدة متناثرة، وأرجعوا ذلك إلى الفترة التي كان يتم فيها نقل الآثار الضخمة بطائرات الهليكوبتر:" في البداية كان الإسرائيليون يسرقون القطع الصغيرة، ومع الوقت بدأوا يزيدون نشاطهم لدرجة أنهم أصبحوا يربطون الكتل الضخمة في الطائرات ويرفعونها، ونتج عن ذلك تدمير بعض القطع، سواء اثناء عملية السطو أو عندما كانوا يضطرون إلى إعادتها بعد أن تعترضهم القوات الدولية "(8). لا أحد يعلم بالتحديد عدد القطع الأثرية التي سُرقت من سيناء، لأن الاهتمام بتسجيل آثارها لم يبدأ إلا بعد استعادتها من إسرائيل، بل أن أول مقر لهيئة الآثار هناك تم تأسيسه في 1987، وبالتالي فإن حصر ما تم فقده من آثار لا يمكن أن يتم بدقة. كما أن هناك أعمال حفائر عديدة وواسعة النطاق تمت أثناء الاحتلال لا نعرف عنها شيئا، لذلك تم استرداد الآثار اعتماداً على السجلات الإسرائيلية، وهو الأمر الذي يطرح تساؤلات حول مدى دقتها وضمانات عدم التلاعب فيها، خاصة أن التفاوض استغرق وقتا طويلاً.

إضافة إلى أن هناك حفائر تمت خلسة، بعيداً عن نشاط البعثات الأثرية كما سبق أن ذكرنا، وبالتأكيد لم يكن القائمون بهذه الحفائر الخاصة يوثّقون ما نهبوه في سجلات. في ظروف كهذه كان لا بد من اللجوء إلى وسائل غير تقليدية للتعرف على ما تم نهبه، أو على الاقل قدر كبير منه. في عام 1984 سافر مفتش الآثار المصري محمد عبد المقصود إلى باريس على نفقة هيئة الآثار المصرية لجمع معلومات مهمة(سيصبح بعد ذلك أحد الأعضاء الأساسيين فى فريق استعادة آثار سيناء). ساعدته في ذلك عالمة الآثار الفرنسية كريستيان نوبلكور مدير متحف اللوفر وقتها. وبالفعل قام بجمع غالبية ما نشر عن حفائر سيناء في الدوريات العالمية والإسرائيلية، وحصل على نسخ مُصوّرة من هذه التقارير ملأت أربعة عشر مجلدا(9). وفي هذه الفترة تم تشكيل لجنة استعادة آثار سيناء من إسرائيل، وقامت بترجمة التقارير الإسرائيلية لتحديد المواقع التي شهدت إجراء حفائر ومسوحات أثرية، لدعم المفاوض المصري ومطالبة إسرائيل بإعادة هذه الآثار، كما قامت اللجنة بجمع معلومات من بدو سيناء الذين شاركوا كعمال في هذه الحفائر. الرحلة طويلة شهدت أكثر من مرحلة مفاوضات، يُمكن اختزالها لنصل إلى الاتفاق النهائي الذي نص على جدولة عودة آثار سيناء من إسرائيل على أربع دفعات، خلال عامي 1993 و1994، ومن أهم بنوده:" عدم احتفاظ إسرائيل بأي قطعة من آثار سيناء في أي جهة، وعدم السماح بعرض أي قطعة أثرية من سيناء بالمتاحف الإسرائيلية، ويمكن لمصر المطالبة بها فوراً لو ظهر ذلك". قدّم الإسرائيليون للجنة الاستلام أكثر من

ثلاثة آلاف مستند، توضّح ما تتضمنه الصناديق من آثار وأسماء المواقع وأرقام التسجيل الإسرائيلية. وبعد التوقيع على اتفاقية عودة الآثار في يناير 1993، طلب الجانب المصرى من الإسرائيليين أن يُثبتوا حسن نواياهم بتسليم إحدى قطع آثار سيناء المهمة، وهو ما رفضه الوفد الإسرائيلي ثم رضخ بعد ضغوط من وزيرة الثقافة الإسرائيلية، ليتم تسليم مصر المخطوطات الأثرية التي عُثر عليها في حفائر جزيرة فرعون بطابا. يبلغ عددها 144 مخطوطاً، وترجع إلى عصر صلاح الدين الأيوبي، تم حفظها في متحف طابا.

خلال الفترة التالية تم استلام الآثار على دفعات، تضمّنت الدفعة الأولى 38 صندوقاً، بالاضافة إلى عشر لوحات من مجموعة موشي ديان، وضمت الثانية 103 صناديق، والثالثة 415 صندوقاً، أما الدفعة الاخيرة فاشتملت على 838 صندوقاً. انتهى تسلم الآثار في ديسمبر 1994، لتودع المجموعة كلها في بدروم المتحف المصري حتى عام 2000، بعد ذلك تم نقلها إلى مخزن تم انشاؤه في مدينة القنطرة شرق. خلال هذه الفترة ثارت مناقشات عديدة حول محتويات الصناديق، وقيل إن بعضها يضم مقتنيات غير أثرية، وهو مانفاه بعض أعضاء الوفد الذي شارك في استعادتها. بعيدا عن هذا الجدل تظل هناك مشكلة حقيقية تتمثل في نقطتين أساسيتين، تدور الأولى حول مدى احتمالية احتفاظ الإسرائيليين بقطع أثرية غير معلومة لنا، وبالتالى لم نتمكن من استعادتها. أما النقطة الثانية والأهم في إطار هذا الكتاب فتتعلق بالمعلومات. عندما سرقت إسرائيل الآثار لم تفعل ذلك

لأنها تهوى جمع التحف أو حتى الاتجار فيها، كان الهدف الأساسي هو توظيف هذه الآثار لخدمة رؤى سابقة التجهيز، والدليل على ذلك أن البعثات الإسرائيلية بدأت أعمالها بكثافة بعد أقل من شهرين على احتلال 1967(كانت هناك عمليات سطو أخرى عام 1956). وجهات النظر التوراتية التى اعتمدت على الآثار المكتشفة تم تصديرها عبر الأبحاث العلمية والوسائط الإعلامية، حتى أن بعضها رسخ في أذهان عدد لا يستهان به من المتلقين، ورغم أن عودة الآثار تعني أننا استعدنا بعض تراثنا، إلا أن ترويج القراءات التي بنيت عليها استمر في الخارج، وساعد في ذلك أن الآثار المستردة ظلت مخزونة لفترة طويلة في بدروم المتحف المصري، لحين إنشاء مخزن مستقل لها يتيح ترتيبها وتسجيلها وإتاحتها للباحثين. الشق الخاص بالمعلومات بالغ الخطورة لا نجد دليلاً عليه أفضل من الواقعة التالية.

تهويد أثر إسلامي

في عام 1968 قام الباحث اليهودي الكسندر فلندر بأعمال مسح أثري حول جزيرة فرعون، بمساعدة عدد من الغواصين الإسرائيليين والبريطانيين، وفي 1977 نشربحثاً في إحدى المجلات العلمية، حشده بمجموعة من الادعاءات(10)، وادعى أن جزيرة فرعون كانت ميناء ومرسى قديماً أيام النبي سليمان. اعتمد على قطع فخار جمعها بنفسه، وأكد أنها ترجع لعصر الحديد الأول، وأضاف أنه فى تلك الفترة التي تتوافق مع

عصر الملوك في إسرائيل، شهد شمال خليج العقبة نشاطاً بحرياً هائلاً، فأنشأ الملك سليمان ميناء لأسطول من السفن في جزيرة عصيون جابر، التى يدعى فلندر أنها جزيرة فرعون. لم يكتف الباحث الصهيوني بذلك، بل انتقل إلى المنشآت الإسلامية، وزعم أن السور الدفاعي المحيط بالجزيرة مكون من كتل حجرية كبيرة، تُعتبر من سمات التحصينات اليهودية، وأن الأجزاء السفلية من البرج الأمامي الأكثر اكتمالاً أقدم من الجزء العلوي، محاولاً إرجاعه إلى عصور أقدم، ويشير إلى أنه عثر بالجزيرة على قطع معادن ناتجة عن عمليات صهر الحديد تتوافق مع عصر الملوك في إسرائيل.

في ورقة بحثية رد عبد الرحيم ريحان مدير آثار دهب وقتها على هذه الادعاءات، وأشار إلى أن عالماً يهودياً آخر هو آفنير رابان كان قد قام بأعمال حفائر في معظم مناطق سيناء أثناء احتلالها، وقال إن التوراة وصفت الميناء بأنه إيلوث الذى حمل اسم أيلة في العصر الروماني، ويقع عند الطرف الشمالي لخليج العقبة، وأضاف ريحان أن عالم آثار آخر هو جلوك أعلن عام 1939 أن ميناء عصيون جابر موجود بتل الخليفة الذي يقع غرب العقبة، غير انه عاد ليتراجع عن رأيه في عام 1969، ثم استشهد مدير آثار دهب بنعوم بك شقير الذى تحدث في كتابه تاريخ سيناء عن قلعة صلاح الدين فقال :" ظنّ بعض السياح أنها عصيون جابر المذكورة في التوراة بقرب أيلة، ولكن خرائب قلعتها تدل على أنها أحدث جداً من ذلك العهد، والأرجح أنها من بناء صلاح الدين الأيوبي وأنه بناها لمقاومة الصليبيين، وهى تُشبه في بنائها قلعة صلاح الدين في رأس سدر".

الملاحظ في رد ريحان السابق أنه نفى أن تكون جزيرة فرعون هي عصيون جابر، وأورد وجهات نظر بديلة تؤكد أن الميناء التوراتي يقع في مكان آخر على الخارطة. وهو ما يشير إلى اعتراف ضمني بما ورد في التوراة حول هذا الميناء كحقيقة تاريخية مسلم بها، وهو أمر يحتاج إلى وقفة جادة. إذ أن الأمر كان يحتاج فى البداية إلى طرح آخر، ينطلق من التساؤل حول مدى صلاحية الرواية التوراتية كمصدر تاريخى. السؤال النظرى السابق يمكن أن يكتسب طابعا تطبيقيا بإعادة طرحه بشكل أقل عمومية، ويمكن أن يصبح: هل أثبتت الاكتشافات الأثرية أن ميناء عصيون جابر موقع حقيقى؟ أم أن التوراة هى المصدر الوحيد الذي تحدث عنه حتى الآن؟ هناك تضارب بين الباحثين أشار إليه ريحان فى الفقرات السابقة، وهو ما يوضّح أن البحث لايزال جاريا بهدف إثبات أن الموقع التوراتى كان حقيقيا. وبالتالي فإن تعامل باحثينا مع فرضية لم تثبت على أنها مسلمة يوقعنا فى فخ يراد لنا أن نعلق به. الأخطر أن باحثي كل دولة من دول المنطقة يحاولون إقصاء المواقع التوراتية عن نطاق بلدانهم، ونقلها إلى أى موقع بديل خارج حدود بلادهم! فخلال مؤتمر عقد بالقاهرة فى منتصف عام 2005 عن القدس، خرج أحد الباحثين الفلسطينيين ليُعلن أنه سيعتمد على التوراة ليُثبت أن اليهود عندما خرجوا من مصر لم يتجهوا إلى فلسطين، بل إلى جزيرة العرب!

إن الأمر يتحول في هذه الحالة إلى ما يشبه لعبة(الشايب) الشهيرة، التي تعتمد على محاولة كل لاعب أن ينقل الورقة الكريهة إلى أحد زملائه،

لتستقر في النهاية مع المهزوم. لكن الواقع يختلف عن اللعبة في أمرين أساسيين: أننا كلاعبين واقعيين نفترض وجود ورقة(شايب) وهمية ونبدأ ممارسة اللعبة على أساسها. أما الأمر الثاني فيتمثل فى أن استقرار هذه الورقة في يد أي لاعب سيجعل الهزيمة مشاعاً بين الجميع، هذا إذا ما كنا مقتنعين بأن تاريخ المنطقة متشابك عضوياً، دون أن تنطلق نظرتنا من اعتبارات إقليمية ضيقة. هذا الكلام لا ينطبق على رد ريحان بقدر ما ينطبق على سياق أكثر عمومية يفترض صحة التاريخ الوارد في التوراة وخطأ الجغرافيا. على رأس هذا الاتجاه يأتي كمال صليبي، الذي جعل أحداث التوراة التاريخية حقيقية غير أنه نقل المناطق التي حدثت فيها من أماكن النزاع الحالي إلى منطقة أخرى هي... الجزيرة العربية!

ينتقل ريحان إلى ما ذكره فلندر عن السور، وأكد أن الباحث اليهودي يناقض نفسه عندما يذكر أن السور الدفاعي بالجزيرة من سمات التحصينات اليهودية. لأنه عاد ليقول في موضع آخر أن التحصين لم يكن مقصوراً على الملوك اليهود فقط. كما أنه لم يعرف بوجود أسلوب مميز للتحصينات اليهودية في عهد سليمان، لأنه لا توجد أى تحصينات باقية من هذا العصر أساساً. ويتساءل ريحان: هل كان نبي الله سليمان في حاجة لتحصين الجزيرة؟ ومن من.. وعلاقات نبي الله سليمان كانت سلمية مع كل جيرانه؟ ويشير الباحث إلى أنه لا يوجد دليل أثري واحد يدعم مقولات فلندر، لكن على العكس يوجد الدليل على أن منشئ السور هو صلاح الدين الأيوبي، فقد عثرت بعثة منطقة آثار جنوب سيناء في حفائر

عام 1989 على النص التأسيسي الخاص بالسور وهي لوحة من الحجر الجيري مكتوبة بالخط النسخي المنقط في خمسة اسطر هذا نصها:

1- بسم الله الرحمن الرحيم أعمر هذا

2- السور المبارك العبد الخاضع لله

3- علي بن شحتكان الناصري العادلي في أيام

4- الملك الناصر صلاح الدين بتاريخ شهر محرم سنة أربعة وثمانون

5- وخمسمئة وصلى الله على سيدنا محمد.

ويرد ريحان على إرجاع فلندر الجزء السفلي المربع من البرج المكتمل إلى عصر سليمان، فيؤكد أن الجزء السفلي المشار إليه مكوّن من كتل حجرية كبيرة، وُضعت كأساس لحماية البرج من مياه الخليج شديدة الملوحة، وتأخذ الشكل الدائري أيضاً، لكنها غير منتظمة قليلاً لكبر حجمها، مما جعل الباحث الإسرائيلى يعتقد أن الجزء السفلي مربع، ويضيف ريحان:"حتى لو افترضنا جدلاً أنه برج مربع فقد اشترك صلاح الدين وأخوه العادل الذي كان ينوب عنه في حكم البلاد في بناء المنشآت وكانت هناك الابراج الدائرية والمربعة"، ثم يتطرق إلى ما ذكره فلندر عن العثور على قطع معادن ناتجة عن عمليات صهر الحديد ترجع إلى عصر الحديد الأول المبكر، الذي يتوافق مع عصر الملوك في إسرائيل. يرد ريحان بأن حفائر 1988، 1989 أسفرت عن العثور على عدد من هذه القطع في منطقة واحدة بالسهل الأوسط بالجزيرة، وكانت بالفعل ناتجة عن عملية تصنيع داخل فرن عثرت عليه البعثة المصرية، لكن الفرن لم يكن ينتمى

لعصر ملوك بني إسرائيل، وهو مايثبته النص التأسيسى الذى اكتُشف فى الموقع نفسه. يتكون النص من لوحة من الحجر الجيري أبعادها 48 × 30 سم مكتوبة بالخط النسخي المنقط من ستة أسطر:

1- بسم الله الرحمن الرحيم أعمر هذا الفرن المبارك

2- العبد الخاضع لله علي بن شحتكان الناصري

3- العادلي في أيام الملك الناصر يوسف بن أيوب

4- صلاح الدنيا والدين محيي دولت أمير المؤمنين

5- سلطان جيوش المسلمين وذلك بتاريخ تسعة

6- شوال سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة

العثور على هذا الفرن أكد أن فلندر لم يكن يعتمد على أسانيد أثرية، بقدر ما كان ينطلق من وجهات نظر مسبقة يسعى لإثباتها بأية طريقة، واعتمادا على افتراضات تخيلية. الغريب أن فلندر نفسه يعترف فى نهاية بحثه- حسب ريحان- بأنه فى غياب الحفائر المنظمة فإن كل هذه الآراء تظل تخمينية. على أي أساس إذن بني نظريته تلك؟ الشق الأخطر فى هذه الجزئية هو استمرارية هذه المعلومات فى التداول رغم أن الأثر الثابت و الآثار المنقولة التي عثر عليها بالموقع أصبحت فى حوزتنا، وقد أشرنا فى موضع سابق من هذا الفصل إلى 144 مخطوطة عثر عليها فى حفائر جزيرة فرعون أثناء احتلالها، وتسهم كلها فى دحض هذه الادعاءات، ومع ذلك فإن مزاعم فلندر لا تزال تجد من يروج لها، لأن بحثه لا يزال: " المصدر الأساسي فى الغرب عن جزيرة فرعون وهو مصدر معلومات المرشدين اليهود لزوار

قلعة صلاح الدين من جنسيات مختلفة، وكذلك بعض المرشدين المصريين و الأجانب "(11). ألا يعني ذلك أن استعادة الآثار المغتصبة لم يعد كافيا وحده فى هذا السياق؟ وأنه لابد من استخدام هذه الآثار نفسها فى استرداد تاريخ مغتصب، بدلا من تركها مخزونة دون بحث أو دراسة.

الترشيح للنهب

في 1996 نشرت صحيفة هاآرتس الإسرائيلية تحقيقا بالغ الخطورة، استعرضتْ فيه ما يجري لممتلكات اليهود في مصر(12). بطبيعة الحال تعاملت الجريدة مع هذه الممتلكات كما لو كانت تخص إسرائيل، متناسية أنها تخص يهودا مصريين لا سيادة لأية دول أخرى على ممتلكاتهم. في ثنايا التحقيق تكشّفت بعض الوقائع الخطيرة، فقد أكد محسن ربيع مدير إدارة الآثار اليهودية بالمجلس الأعلى للآثار في ذلك الوقت، أن السلطات المصرية تضبط كل فترة بعض الأشخاص فى مطار القاهرة أو منفذ رفح، وهم يحاولون تهريب آثار يهودية إلي خارج البلاد:" ونقوم بمصادرتها وقد سُجن بعضهم فعلا". العبارات السابقة تتحدث عن سياق عام، تبدأ تفصيلاته فى التبلور كلما أدلى أحد المشاركين فى التحقيق بما لديه من معلومات. ميخائيل ابن رئيس الطائفة اليهودية الأسبق يوسف دانا أكد:" لقد اكتشفنا يهودا قاموا ببيع ثروات يهودية، وجاء تجار عاديات من الخارج إلى مصر تحت ستار أنهم من السائحين، وحاول هؤلاء رشوة الحراس المصريين لكي يسمحوا لهم بالدخول إلى المعابد دون عراقيل. كما جاء كثير

من الإسرائيليين ومنهم علمانيون إلى والدي، ليشتروا منه بعض الكتب الدينية المكتوبة بلغات أجنبية(يودكا) التي تقدر بالأموال الطائلة. كما أراد هؤلاء أيضا شراء الكتب والروايات والمخطوطات، والعضادات التى توضع على الأبواب، لكن أبي طردهم ولم يوافق على البيع بأي حال من الأحوال، بل وقام بإبلاغ السلطات بذلك".

يتسحاق نوئيل الذي عمل ملحقا صحفيا فى السفارة الإسرائيلية، تحدث عن حاخام كندي اختفي على حد قوله بصورة غامضة من مصر فى 1984، بعد أن قام بتهريب بعض كتب اليودكا إلي خارج البلاد، وباستفاضة نسبية تحدثت ينتساين اليسار زوجة أول سفير إسرائيلي فى مصر عن وقائع أخري قائلة:" ترددت شائعات فى مصر وبصورة مستمرة عن هذا الشخص أو ذاك، الذي جاء من الخارج لكي يُهرب مخطوطات قديمة كتبت بخط اليد، وهناك من تحدث عن أحد الحاخامات تجول فى المقابر اليهودية، أملا فى العثور على أوراق الجنيزا الخاصة بعائلة موصيرى، كما اتهموا الحاخام باروخ هيلمان الذي جاء لمساعدة الطائفة بسرقة نسخ من التوراة". تحقيق هاآرتس أشار أيضا إلى القبض على يهودى غامض ينتمي لطائفة الحريديم(وهى تمثل تيار دينيا متطرفا يرفض الفكر الصهيوني العلماني، مثّلها فى الكنسيت حزبا شاس ويهودية التوراة). اعترف هذا الشخص فى السفارة الإسرائيلية بالقاهرة أنه جاء إلي مصر بتعليمات مباشرة من الحاخام ملونتس- أحد كبار زعماء هذا الطائفة- ليقوم بتهريب بعض نسخ التوراة، وأنه اعتبر ذلك فرضا دينيا مهما. كان الرجل قد تسلل إلي أحد معابد حارة

اليهود ليُفتش فيه عن نسخ التوارة، لكن الجيران ارتابوا فى الأمر عند ما شاهدوا ضوءا ينبعث من المعبد المهجور، وعندما دخلوا ليتحققوا وجدوا الإسرائيلي فضربوه وسلموه للشرطة. الغريب أن الصحيفة تضيف أن هذا الرجل نجح وبصورة غير معروفة حتى الآن لوزارة الخارجية الإسرائيلية، فى الهروب من مصر عبر الطريق البري على ما يبدو!!!

فى موضع آخر من التحقيق الذي أجراه رونين برجمان، ذكر ميخائيل دانا أن والده حاول إنقاذ ممتلكات الطائفة من أيدي المصريين(!!)، لذلك قام بتخزين جزء من الأدوات المقدّسة الفريدة، ونسخ من التوراة فى غرفة سرية دون أن تعلم السلطات المصرية عنها شيئا، وهو ما يؤكده موشيه ساسون ثاني سفير إسرائيلي لمصر:" لقد قاموا بإخلاء العديد من المعابد من محتوياتها، وهنا تفجّرت مشكلة بشأن ما يمكن القيام به مع هذه الكتب الدينية المكتوبة بلغات مختلفة، والتي استخرجت من تلك المعابد، وتطوّع دانا بتدبير الأمر، حيث قام بتخزينها داخل مقر الطائفة، ولم يسمح لي برؤية هذه الحجرة. واكتفى بأن يقول لي بوجود أشياء رائعة فيها، ونسخ من التوراة وروايات وقطع من الشرائح المصورة وخلافه". قبل استكمال ما ورد بالتحقيق من وقائع، لابد من وقفة ننتقل من خلالها عبر الزمن لفترة خمسة سنوات تالية. فعندما قرأتُ ترجمة هذا المقال مخطوطة مع الدكتور محمد أبو غدير، فكرتُ فى إجراء متابعة من القاهرة لهذا الموضوع. ورغم أن الترجمة لم تتم إلا بعد سنوات من نشرها بالجريدة الإسرائيلية، فإني رأيتُ أن الوقائع التي وردت بالتحقيق لا تسقط بالتقادم. خاصة فيما يتعلق بهذه

الغرفة السرية التي أجمع عديدون على وجودها، بل أن بعضهم رأي ما بها فعلا. كنتُ مقتنعا بأنه وفقا لأسلوب عمل الإسرائيليين، فإن جهات ما لن تستريح إلا إذا تم نقل محتويات هذه الحجرة إلى تل أبيب، وهو ما يمثل خطرا على تراث مصرى فى المقام الأول. اتجهت إلي الراحل عبد الله العطار رئيس قطاع الآثار الإسلامية والقبطية واليهودية بالمجلس الأعلى للآثار وقتها، وبدلا من أن يواجه الموقف بجدية ويخاطب الجهات المعنية فضّل الهروب بتشنج مُصطنع، وأكد أنه يرفض التعليق على أي شيء يرد في جريدة إسرائيلية:" أنا لا أعترف بأية جريدة إسرائيلية، لذلك لا تُحدثني عن أي حاجة قالتها هاآرتس.... هاآرتس ماتشغلنيش"! وقتها اعتبرت ذلك كلام حق يراد به باطل، لأن موقفنا(أنا وجريدة أخبار الأدب التي كنتُ أعمل بها في ذلك الوقت) مناهض للتطبيع بشكل ثابت وحاسم، لكن ذلك لا يعني أن نتجاهل معلومات تفضح تسريب آثار مصرية خارج البلاد، فمعنى هذا أننا نرفض الاعتراف بدليل إدانة مؤكد، قد يساعد فى استعادة بعض الآثار التي تسربت. موقف رئيس القطاع لم يكن نهائيا، فقد عاد بعد ثوان ليطلب(في الحديث الذي سجلته وقتها) نسخة من الجريدة ليترجم الموضوع. لم أعرف وقتها هل يرفض التعامل مع الجريدة الإسرائيلية أم معي شخصيا. قبل أن أصل لقناعة مُحددة عاد من جديد ليصيح:" أرجوك....ماتجبليش جرنال إسرائيلي وتقول لي علق عليه... أنا ارفض هذا التعليق"!! القصة السابقة مُهمة لتوضيح كيفية تعامل بعض

المسئولين مع هذه القضية. وتشير الى أهمية اقتناع الجميع بأن هذه الآثار مصرية مائة بالمائة، وأن الحفاظ عليها واجب وطني.

بالعودة إلي موضوع هاآرتس، نجد أن هناك روايات كثيرة عن محاولات متكررة لبيع أو شراء مقتنيات يهودية. فيُشير موشيه ساسون إلى أن مقتنيات كثيرة تُعرض فى عدد من متاجر بيع الكتب فى القاهرة على مشترين من نوع خاص للغاية. من بينها أحد متاجر الكتب فى شارع الشيخ ريحان بالقاهرة، يعرض كتاب الصلاة للأعياد اليهودية الذي تُتلى فقرات منه فى العصور العصيبة، ويرجع تاريخ نشره إلى عام 1759، كما يعرض المتجر نفسه نسخة من سفر التثنية صدرت عام 1889 في فيينا، وكذلك فصولا فى الصلاة والأعياد مزودة بتفسيرات مختلفة، وبطباعة فاخرة قام بها إفراهام يوسف عام 1775، ويُشير ساسون إلى أنه ليس واضحا كيف وصلت هذه الكتب إلى المتجر، رغم أن القانون المصري يعتبرها آثارا تعد من ممتلكات الدولة، ويضيف أن العاملين فى مكتبتي معبدي شعارهشمايم بالقاهرة والياهو النبي بالإسكندرية، حكوا له أن عددا من اليهود الحريديين من أوروبا وأمريكا زاروهم عدة مرات، وحاولوا إقناعهم بالتغاضي عن سرقة هذه الكتب، لكنهم رفضوا العروض بشدة وطردوا أصحابها.

هل بقيت هذه المقتنيات فى مصر أم تم تهريب معظمها؟ لا أحد يعلم بالتأكيد، فمحاولات الحصول عليها من أشخاص داخل وخارج إسرائيل عديدة و متكررة، وقد تم نشر هذا التحقيق في إسرائيل عام 1996، ولا شك أنه أسهم فى فتح بعض الأعين على مقتنيات كانت مجهولة. والدليل

على ذلك، أن الراحلة كرمن واينشتين(رئيسة الطائفة اليهودية اعتبارا من عام 1997 حتى 2013) أشارت فى حوار لها مع مجلة آخر ساعة نشر فى سبتمبر 2000، أنها أحبطت محاولة لنقل الآثار اليهودية الموجودة بالمعابد إلى الخارج. وكانت إحدى الجماعات الدينية بنيويورك تسعى لإخراج هذه الآثار بدعوى ملكية الأجداد لها. الممارسات عديدة وقديمة انتبه لها مسئولو الآثار المصريون من زمن بعيد، لذلك قرّروا إجراء جرد مفاجئ قبل سنوات. شيخ الأثريين عبد الرحمن عبد التواب رئيس قطاع الآثار الإسلامية الأسبق لا يذكر العام تحديدا، لكنه يروي:" قرّرنا عمل جرد لجميع المعابد ومحتوياتها من أسوان إلي الإسكندرية فى يوم واحد، وفي اليوم المحدد انطلقت اللجان، التي شارك فيها عشرات من الأثريين وأساتذة الجامعة والمترجمين، وتم جرد المعابد وحصر مقتنياتها من الكتب القديمة والمنقولات الفضية، وأعددنا قوائم وتم تقديم نسخة منها للمسئول عن المعبد ونسخة حُفظت فى هيئة الآثار، وعليها تعهد من مسئول كل معبد بعدم التفريط فى مقتنياته، كما تم إبلاغ الشهر العقاري بأسماء المعابد التي جُردت ومحتوياتها، وعندما صرتُ مسئولا كنت أجدّد خطاب الشهر العقاري كل فترة "(13)، لكن نزيف آثار مصر اليهودية، استمر لسنوات عديدة بعد هذا الجرد الذي تم عام 1968، فقد أشار الدكتور فهمي عبد العليم رئيس قطاع الآثار الإسلامية والقبطية الأسبق إلى إحباط محاولة لسرقة مخطوط خاص بموسى بن ميمون من معبد موسى الدرعي:" كما تم إحباط محاولات أخرى بواسطة الشرطة"(14).

ما سبق مجرد نماذج قليلة من بين وقائع كثيرة ويصعب حصرها، لكنها كافية لتفجير العديد من الأسئلة: هل يُمكن أن تكون الممارسات السابقة فردية؟ أم أن هناك منظمات وهيئات رسمية فى إسرائيل تدعمها وتجعلها تبدو كما لو كانت محاولات يقوم بها أشخاص؟ أسئلة تحمل قدرا لا بأس به من الشك المُبرر فمحاولة إحراق المسجد الأقصى عام 1969 وُصفت بأنها سلوك شخصي لُمختل عقليا! رغم أن الملابسات كانت تشير إلي جهد تنظيمي أوسع. وإذا عدنا إلي ما حدث(ويحدث) في مصر فإن الشك يتزايد، إذ كيف يُمكن ليهودى متطرف أن يهرب من مصر بعد القبض عليه، بصورة غير معروفة لوزارة الخارجية الإسرائيلية حسبما تدعي هاآرتس؟ ألا تشير هذه الواقعة إلى أن هناك أجهزة استخباراتية على علاقة بالحادث؟ إن محاولات السرقة، إضافة إلى السرقات التي تحققتْ فعليا، لم تمنع إسرائيل من مطالبة مصر رسميا عدة مرات بالموافقة على نقل ثروات الطائفة اليهودية إلي متاحفها!! من بين الطلبات ما تقدم به نائب وزير العمل الإسرائيلي مناحم بيروش عام 1992، لنقل نسخ التوراة القديمة إلى إسرائيل، وبطبيعةالحال رفضت مصر ذلك.

فى عام 1999 ثارت ضجة فى مصر بسبب الإعلان عن إنشاء متحف للحضارةاليهودية. اعترض علماء آثار عديدون وقتها، مؤكدين أن اليهود لم تكن لهم حضارة بمصر، غير أن نزيف الآثار الخاصة باليهود المصريين يؤكد أن الموضوع فى حاجة إلى دراسة متأنيه. يُمكن أن تُحذف كلمة الحضارة من اسم المتحف، لكن ينبغي التفكير فى إنشاء متحف يهودي

يحفظ الآثار بدلا من تركها عرضة للاغتصاب. كما أن إنشاءه سيساهم فى تأصيل فرادتنا كحضارة تحتوي أية هويات أخرى، وتُغلفها بسماتها لتصبح الشخصية المصرية هى الأساس، وهو ما يصب مباشرة فى نسق مجابهتنا لحملات التشكيك، فالمتحف سيضم كغيره من المتاحف آثارا مصرية، خلّفها يهود مصريون، عاشوا حضارة مصر، وبالتالي فإن تراثهم مصري(وتكرار كلمة مصر فى العبارة السابقة ليس ركاكة أسلوبية بل هو أمر مقصود). كما أنه سيحمي الآثار الباقية من مصير آثار أخرى لا نزال نبكي تهريبها إلى الخارج، ومنها وثائق الجنيزة التي تم الاستيلاء على مئات الآلاف منها قبل اكثر من قرن، رغم أنها تؤرّخ ليهود مصريين، كما تُوثّق للحياة الاجتماعية والاقتصادية بمصر بصفة عامة، إلى درجة تجعل تجاهلها غير ممكن حتى فى حالة الدراسات التاريخية التى لا تركز على اليهود.

ما نود قوله هو أن المتحف يُعتبر أحد أساليب حماية جانب من آثارنا من السرقة، لأن جمعها وصيانتها خير من تركها مستباحة، وأفضل من ممارسة البكاء على أطلالها بعد تهريبها إلى الخارج واستخدامها في النيل منا!!

فى مصر يُصبح للتاريخ طعم آخر. فالذكريات التي يتم استدعاؤها عُنوة تمتزج مع قصص أفرزتها أزمنة سحيقة، وتكون النتيجة محاولات جديدة لاستثمار التاريخ عبر الخلط بين الحقيقي والأسطوري. ومن رحم هذه الخلطة تخرج الادعاءات:" إن الشعب المصرى عريق بحضارته التى يرجع تاريخها إلى سبعة آلاف عام خلت. هذا الإشعاع الحضاري المتواصل يستمد منه الشعب المصري العزم لمواصلة مسيرته على درب التقدم والتنمية

والتطور، والشعب الإسرائيلى يستمد من تاريخه وحضارته- على مدار أربعة آلاف عام مضت- العزم مُتطلّعا إلى مستقبل مشرق، وهناك على سطح المعمورة أبناء شعبين فقط أحياء يُرزقون، بإمكانهم مخاطبة بعضهم البعض قائلين: إن علاقاتنا الحضارية والثقافية والتجارية وغيرها يرجع تاريخها إلى أربعة آلاف عام. هذان الشعبان هما الشعب المصري والشعب الإسرائيلي"(15). العبارات السابقة وردت فى إحدى مطبوعات السفارة الإسرائيلية بالقاهرة! وهى تبدو كمحاولة لمغازلة شعب مايزال مُصرّا على مواجهة الكيان الصهيوني، مما يجعل البعض غير مهتم بالتعامل مع تلك العبارات على نحو جاد، غير أنها تفضح- رغم سطحيتها- محاولات الربط بين تاريخين، أحدهما مُوثّق والآخر لايجد أسانيد تدعمه على أرض الواقع. وتكشف عن المساعى المستمرة لخلط ما هو حقيقي(الوجود المصري المُتجذّر) بما هو مشكوك فيه(الوجود الإسرائيلى الضارب في القدم). وإذا كانت هذه المحاولات تجد هنا من يقرأ ما تُخفيه سطورها، فإن تداولها يجري فى الخارج باعتبارها مسلمات.

في فصل لاحق، سنناقش مايتعلق بالوجود الإسرائيلي القديم في بعض المناطق، ومدى ارتباطه بالحضارة وروافدها من جهة، ثم حقيقة ارتباط الحاضر بالماضي من جهة أخرى. غير أن السياق هنا يتطلب إشارة سريعة لمحاولات الاختراق التي تحاول أن تقوم بها بعثات إسرائيلية أو أخرى تتضمن عناصر موالية لإسرائيل، بهدف العبث في مناطق أثرية مصرية لأسباب أيديولوجية. أثناء تولي الراحل الدكتور أحمد قدري رئاسة هيئة

الآثار حاول رفائيل جيفيون(16) أن يقوم بإحدى تلك المحاولات. الدكتور رمضان عبده على رئيس قسم الآثار بآداب المنيا كان موجودا مع الدكتور قدري في إحدى هذه المحاولات. سأله الدكتور قدري عما يعرفه عن جيفيون، فأكد له أنه أحد الذين يخلطون الأوراق للوصول إلى نتائج تخدم اتجاهات بعينها، ورجّح أنه قادم ليطلب العمل في مصر، وهو الأمر الذي استفز الدكتور قدري فرفض مقابلة الباحث الإسرائيلى(17)، لم تكن هذه هى المحاولة الإسرائيلية الوحيدة، فقد أشار الدكتور قدري إلى أنه رفض طلبات عديدة من بعثات إسرائيلية أرادت أن تعمل فى مصر(18).

عمل البعثات الأجنبية في شرق الدلتا موضوع مهم، لايُمكن اختزاله فى سطور قليلة، خاصة أن لدينا اتجاهين متناقضين: أحدهما يرى أن هناك شكوكا حول عمل عدد من هذه البعثات في منطقة يتم ربطها عادة بوجود بني إسرائيل وخروجهم. في المقابل يرى آخرون أن المبالغة في بث المخاوف يُعبّر عن عدم ثقة بالنفس، وأنه لايمكن لهذه البعثات أن تُخترق من جانب الإسرائيليين، لأن هناك جهات أمنية عديدة ينبغى أن توافق قبل التصريح بعملها فى مصر. لكن رغم ذلك تظل هذه الجزئية محاطة ببعض الغموض، خاصة أن المحاولات لاتتوقف، ففي نهاية التسعينيات تقدمت بعثة إسرائيلية بطلب للتنقيب عن الآثار في البحر الأحمر. تم رفض الطلب رسميا ليصبح واضحا أن المشكلة تبدأ عندما نبتعد عن الأطر الرسمية.

سيناريوهات عديدة يتم رسمها وإطلاقها معا. إذا توقّف أحدها ربما أمكن تمرير الآخر، المشكلة أن اللعبة ظلت لفترة طويلة محكومة بشروطهم، بحكم أنهم العنصر الفاعل فيها، بينما ظللنا في موضع الدفاع، ومع غزارة المحاولات تصبح احتمالات الاغتصاب الناجحة أكثر حضورا.

الهوامش

(1) أندريجا بوهارتيش- أوري الاسرائيلي الغامض- ترجمة أحمد عمر شاهين- الناشر: سندباد للنشر والتوزيع.

(2) المرجع السابق.

(3) جينوفييف بقطر مثقفة مصرية كانت إحدى المشاركات فى حركة الطلبة عام 1946، ومهتمة بعلم الآثار.

(4) هنري برستد- فجر الضمير- ترجمة : د. سليم حسن - الهيئة المصرية العامة للكتاب- طبعة مكتبة الأسرة 2001، ص : 333.

(5) الاقتباسات من الرواية أوردها فرانسوا باسيلي- وهو مثقف مصري يعيش بأمريكا- في رسالته إلي جمال الغيطاني رئيس تحرير أخبار الأدب، نشرها فى افتتاحية العدد الصادر بتاريخ 28 يونيو 1998.

(6) د. محمد عبد المقصود- تقرير أعده عن استلام آثار سيناء العائدة من إسرائيل.

(7) " آثار سيناء العائدة من إسرائيل". كُتيب صادر عن المجلس الأعلى للآثار-1995.

(8) د. على الخولى- "أخبار الادب" عدد: 2 مارس 1997.

(9) د. محمد عبد المقصود. المرجع السابق.

(10) عبد الرحيم ريحان - قلعة صلاح الدين بطابا ومزاعم اليهود(ورقة عمل مقدمة للمؤتمر السنوى لاتحاد الآثارين العرب)- 2002.

(11) عبد الرحيم ريحان- المصدر السابق.

(12) قام بترجمة الموضوع كاملا الدكتور محمد أبو غدير أستاذ الدراسات الإسرائيلية بجامعة الأزهر، ونشرته جريدة أخبار الأدب فى عدد 16 سبتمبر 2001.

(13) أخبار الادب 16 سبتمبر 2001.

(14) المرجع السابق.

(15) عرفة عبده علي- جيتو إسرائيلي في القاهرة- مكتبة مدبولى 1990 ص:31، 32.

(16) أستاذ الآثار المصرية بجامعة تل أبيب، درس المصريات على يد ج. بولونسكى، وبعد الاحتلال الإسرائيلى لسيناء تولّى مهمة الإشراف على آثارها، وركّز جهوده على اكتشاف مناجم الفيروز القديمة فى سرابيط الخادم بجنوب سيناء. قام بالتنقيب فى منطقة شرق الدلتا بمصاحبة موردخاى جيلولا ورافائيل فينتورا من جامعة تل أبيب. وارتبط بعلاقات صداقة مع بعض الأثريين المصريين، وقد وردت هذه المعلومات بكتاب عرفة عبده علي ص: 38 و 39، لكن المؤلف لم يقدم معلومات عن السنوات التى أجرى فيها الباحث الإسرائيلى تنقيباته في شرق الدلتا.

(17) أخبار الأدب- 7 يوليو 2002.

(18) علي القماش- مرجع سابق. ص: 221.

الفصل الرابع: اقتباسات حضارية!

مُزارع لا يحمل مقومات استثنائية. استيقظ مبكرا كعادته، استعدادا ليوم آخر من العمل. لم يكن هناك ما يشير إلى أوضاع استثنائية، غير أن الصباح الربيعي ربما أضفى على الرجل إحساسا بنشاط إضافي، يُمكن أن يعينه على أداء طقوسه المعتادة. لكن اليوم مضي بعد ذلك فى نسق غير معتاد. بطريقة ما عثر الفلاح السوري على كتلة صخرية تشكل قبو مقبرة، اتضح أنها تضم عددا من اللوحات الفخارية التي منحت المكان أهمية غير عادية. كان ذلك عام 1928 . بعدها بعام اتجه عالم الآثار كود شيفر إلى الموقع وبدأ التنقيب فيه. اتضحت الحقائق تدريجيا ليظهر أن الكشف الذي قادت الصدفة إليه، يُعتبر من بين أعظم الاكتشافات في تاريخ سوريا. على بعد مسافة قصيرة من رأس شمرا بمحافظة اللاذقية، تم اكتشاف مدينة أوغاريت القديمة، التي ورد اسمها فى رسائل تل العمارنة بمصر(اكتُشفت بالصدفة أيضا عن طريق فلاحة مصرية بمحافظة المنيا في القرن التاسع عشر!). على مدار السنوات التالية عُثر في أوغاريت على 17 ألف من الرُقم(اللوحات الفخارية)(1). تعود اللوحات إلى القرنيين الرابع عشر و الثالث عشر قبل الميلاد، وكانت مكتوبة باللغة الأكادية البابلية. كما تم العثور على نصوص باللغات الحورية والمصرية والقبرصية والحيثية. استعملت رموز الأوغاريتية ثلاثين حرفا، ومع حل شفرتها ثبت وجود تشابه كبير بين

الكنعانية الأوغاريتية والعربية، كما لوحظ أن هناك تشابهات على مستوى صياغة الجمل وبعض التعبيرات.

سجّلت نصوص رأس شمرا أساطير سادت خلال الألف الثاني قبل الميلاد، وتشكّلت من خلالها ملاحم دينية مثل تلك التي انتشرت في بلاد الرافدين. الاكتشاف أثبت أن الساحل السوري كان يحتوي على حاضرة كنعانية مُهمّة، بعد أن ظل هناك اعتقاد سائد بأنه لا يضم إلا آثارا إغريقية ورومانية، وقد وصلت المدينة إلى ذروة ازدهارها فى منتصف القرن الثاني عشر قبل الميلاد(2)، وإذا كانت المدينة قد وردت في رسائل تل العمارنة فإن علاقاتها بمصر بدأتْ قبل ذلك بفترة طويلة، حيث عُثر بها على عقد من اللؤلؤ يحتوي على قلادة نُقش عليها اسم سنوسرت الأول(1965-1920 ق.م.)، وتمثال للأميرة شنوميت زوجة الملك سنوسرت الثاني(1880- 1874 ق. م.). في رأس شمرا حطّ خيال إيمانويل فليكوفكسي (وهو يهودي من أصل روسي سنتطرق لكتاباته بتفصيل أكثر فى فصل لاحق). الأدلة الأثرية كلها تؤكد أن تاريخ ازدهار المدينة يتراوح بين القرنين الخامس عشر والثاني عشر قبل الميلاد. وتتراوح تقديرات تاريخ انهيارها بين القرنين الثالث عشر والثاني عشر قبل الميلاد. هناك اختلاف فى الآراء لكنه دائما لا يتجاوز حدودا معينة. ما يتعلق بتاريخ المدينة أكدته الحجج العلمية والدراسات المقارنة لتاريخها وتواريخ أخرى معاصرة فى مصر وكريت واليونان. لكن رسوخ هذه المعلومات يُقوّض آراء فليكوفسكي بكاملها، حيث ستفشل لعبته التي احترف فيها تحريك تواريخ

مصر القديمة، بعد ادعائه أنه تم ترتيب التاريخ المصري القديم بطريقة خاطئة، وقام بترحيله لستة قرون لكي يصبح مسايرا للفترة التي يُفترض أنها شهدت حكم داود وسليمان، وهي تجربة سنستعرضها فيما فى فصل تال. لكن ما يعنينا هنا أن المغامر الصهيونى واصل مغامراته التاريخية وخلط المراحل الزمنية وتلاعب بها. البداية المنطقية تعود به إلى مصر، وزعم أن ما تم اكتشافه في أوجاريت ومسينى باليونان وأيضا في كريت لم يُشر إلى فترة زمنية محددة، بل تم استنتاج تواريخ هذه الاكتشافات، اعتمادا على ثوابت تقليدية مرتبطة بالحضارة المصرية وتاريخها الخاطئ من وجهة نظره.

ولهذا يعود إلى تل العمارنة(آخت آتون) زاعما أن ما اكتُشف من خزف ملون تم استيراده من مسيني اليونانية، وأن القول بأنه يعود إلى سنة 1380 ق.م. أو ما حولها هو تأريخ خاطئ، ويواصل:" إن كان إخناتون قد حكم عام 840 ق. م. لا فى 1385 ق. م. فإن خزف مسيني الذي وُجد فى قصر إخناتون يعد أقل عمرا فى حقيقة الأمر بخمسمائة أو ستمائة عام من العمر المفترض حاليا له، كما يتحرك العصر الحديث للحضارة المسينية إلى زمن اقرب إلى عصرنا بخمسمائة عام "(3). تحريك حضارة مسيني يخدم تبديل فترة العمارنة، يعترف فليكوفسكي:" إن قضيتي الجدلية التي أناضل من اجلها، هى إثبات أن العصر العظيم للأسرة الثامنة عشرة في مصر ومملكتي داود وسليمان والعصر المنواني الحديث(بكريت) والعصر المسيني الحديث(في اليونان) كلها عصور بدأت متزامنة في عام 1000 قبل الميلاد" (4). و

تحريك كل هذه التواريخ يتطلب ترحيلا موازيا لعصر ازدهار تل شمرا السورية، بحيث تواكب بدورها تاريخ المملكة الموحدة فى المعتقدات اليهودية:" إن التساؤل الذي يفرض نفسه في هذا الموضع هو: ألم يكن هناك أية مكتشفات أخرى- عدا الخزف في الطبقة العليا- في راس شمرا تؤيد أو تنفي وجهة النظر التي افترضت أن محتويات الطبقة العليا تنتمي إلى الفترة الممتدة من القرن الخامس عشر حتى القرن الرابع عشر قبل الميلاد؟"(5).

محاولة واضحة من الباحث الصهيوني لربط الاكتشاف وتفاصيله ببني إسرائيل، تظهر بشكل مباشر عندما يؤكد أن أغلب نصوص رأس شمرا عبارة عن قصائد شعرية تتغنى بمآثر البطولة والشجاعة ومعارك الآلهة. ورغم أن ما ورد فى هذه النصوص، يتحدث عن الإله الكنعاني الأكبر" إيل"، إلا أن فليكوفسكي يرى أنه يطابق ما ورد عن إله بني إسرائيل في التوراة!! التفاصيل بدورها لم تسلم من محاولة الربط، حيث يبدأ إطلاق العنان للخيال، من منصة القصائد الدينية برأس شمرا، ويقول:" هناك في إحدى القصائد تعبير مذكور على لسان إيل، ويبدو كأنه إشارة إلى عمل بطولي مثل شق بحر يام – سوف"! (6)، و أيضا:" فعل يمزق إربا استُخدم فى نصوص رأس شمرا كما استُخدم فى المزامير" (7). التفسيرات التقليدية لعلماء الآثار أكدت أن هذه النقوش تُثبت أن الكنعانيين عرفوا الأساطير الدينية قبل خروج بني إسرائيل من مصر بفترة طويلة، والمنطقي أن يُحسب التشابه في مثل هذه الأحوال لصالح الحضارة الأقدم، لكن فليكوفسكي يخالف المنطق لمصلحة مزاعمه، وكما سنوضح في فصل تال يُركّز الرأي

المرجح لعلماء الآثار على أن أسطورة الطوفان البابلي وغيرها من الأدبيات شقّت طريقها غربا من حضارة بين النهرين إلى فلسطين وسوريا:" إلى أن فتحت فى النهاية طريقا إلى الأدب العبراني ومن ثم وصلت إلينا عن طريق العهد القديم"(8)، حتى أن فليكو فسكي نفسه أكد أن:" اللغة المستخدمة فى قصائد رأس شمرا من جهة وأصولها وتركيبها في جمل مماثلة(تُشبه) بطريقة مذهلة اللغة وأصل كلمات وتركيبات جمل التوراة"(9). العبارة السابقة مُقتطعة من سياق لن يتم إلا بعد عدة سطور، عندما يؤكد المؤلف أن هناك تماثلا يفوق الحصر بين ما جاء بألواح رأس شمرا وبين العهد القديم من كلمات وشكل شعري. هذه الملاحظات تجعل التفكير يتجه بصورة منطقية إلى أن العناصر الاجتماعية والدينية والحضارية والأدبية في التوراة تأثّرت بمثيلاتها في الحضارات القديمة، ومن بينها الكنعانية بحكم الترتيب التاريخي، لكن فليكو فسكي يخرج بنتيجة مغايرة تماما، لم تكن لتتحقق له لولا تلك القرون الستة السحرية التي يتلاعب بها كيفما شاء. وبدلا من التعاطي مع الحقائق التاريخية كما هى فإنه يجد أن الأكثر سهولة وفائدة بالنسبة له هو مراجعة التعاقب الزمني:" إن مراجعة التعاقب الزمني تتطلب إعادة تقدير الزمن الذي ترجع إليه محتويات رأس شمرا(المستوى الأول من سطح الأرض)، ومقارنته بعصر ملوك يهوذا حتى يهو شافات "(10)، هذه المراجعة اقتضت منه نفي وجود أمم، وإعادة ربط لغات ببعضها. بعد أن عمد لتغيير المتعارف عليه باستخدام قرونه الستة فى

عدة أماكن معا، هى مصر وسوريا وكريت واليونان، ليدعم فرضيته القائمة على قص التاريخ و إعادة لصقه حسبما يشاء.

قد يرى البعض أن ما يردده فليكوفسكي مجرد تخاريف، لا تستحق عناء الرد عليها، غير أن الأمر يختلف عندما يصبح عالم متخصص هو القائم بعملية السطو. الظروف كلها ستتغير في هذه الحالة، فالكلمات ستُصبح حجة علمية يحتاج محو تأثيرها إلى عناء. في منتصف السبعينات قام البروفيسور بتيناتو رئيس جماعة التنقيب فى البعثة الإيطالية بمدينة إيبلا السورية، بنشر ترجماته الخاصة لرقيمات رأى أنها تُثبت صحة الروايات التوراتية، وتُقدّم دليلا قاطعا على أصول اليهود في بلاد الشام. وقتها شعرت الحكومة السورية بالخطر، واتخذت قرارا بطرد البعثة الإيطالية وحرمانها من مواصلة التنقيب، كما وضعت يدها على الموقع. القرارات الرادعة جعلت البروفيسور باولو ميتثاى رئيس البعثة يعتذر عما حدث، عبر مقالة مطولة في صحيفة سورية(وليس فى الخارج كما كان ينبغي أن يحدث)، وأكد أنه لا توجد أي علاقة بين إيبلا وأساطير العهد القديم وخرافاته. بعد ذلك عادت البعثة للعمل، لكن بعد أن حُرمت من الاحتكار الذي كانت تتمتع به، خاصة فيما يتعلق بقراءة الرقيمات التي وضعت تحت إشراف لجنة دولية(11). الحدث السابق ظل مثالا يتم تقديمه كنموذج لعمليات الاختراق، التي تقوم بها البعثات الأجنبية في بلداننا وتؤدي إلى افتعال مشكلات على مستويات دولية مثل:" الضجة العلمية الكبرى. الضجة المُفتعلة التي أثارتها الصهيونية منذ بضع سنوات

حول المكتشفات الآثارية الهامة في مدينة ايبلا(تل مرديخ) قرب حلب شمالي سوريا"(12). هذه الواقعة تُعد نموذجا للدراسات التوراتية التي تتم أحيانا في غفلة منا. لم تكن إيبلا ورأس شمرا هما فقط اللتان تم استهدافهما:" وهو ما نلمسه أيضا في بعض الدراسات العلمية اللاحقة، كما يلاحظ في الدارسات الخاصة بآثار ونصوص مدينة ماري: تل الحريري على الفرات شمال سوريا "(13). المواقف الجادة قد تقود إلى تصحيح الاتجاهات مثلما حدث مع إيبلا، حيث قامت المديرية العامة للآثار السورية بتشكيل لجنة عالمية من المتخصصين في اللغات السامية القديمة والكتابات المسمارية، مما أسهم في التوصل إلى:" معطيات جديدة وهامة، باعتراف الوسط العلمي الغربي وحتى جريدة اللوموند في 9/ 9/ 80 بما يناقض توقعات الصهيونية ويدحض ادعاءاتها "(14).

لا يمكن الفصل بين محاولات فليكوفسكي غير العلمية ومحاولة بتيانو العلمية، ففي سياق اغتصاب الذاكرة تتحد الجهود كلها. ربما تختلف الأهداف بين من يقوم بذلك لخدمة كيان حديث باختلاق تواريخ أكثر قدما مما ينبغي، وبين من يفعل هذا من وجهة نظر عقائدية(وليست أيديولوجية) لإ ثبات ما جاء في العهد القديم، لكن حتى مع تفاوت التوجهات بين حسن النية وسوئها تصبح النتيجة واحدة. بين عامي 2003 و 2004 حلّت الذكري الخامسة والسبعين لاكتشاف أوغاريت. وكل استعد لها بطريقته. يُمكن تخيّل شكل الاحتفالات السورية ومضمونها، لكن كان من الصعب التنبؤ بشكل الاحتفالات على الجانب الآخر. أخيرا

تكشّفت الأمور. فقد حاولتْ مؤسسة أوروبية مدعومة بمؤسسات صهيونية إقناع السلطات السورية بإعداد فيلم عن أوغاريت و ايبلا (15). الجمع بين المكانين المُستهدفين كان يمكن أن يمر بهدوء، على اعتبار أن رؤية منفذي الفيلم تقوم على الربط بين موقعين يشتركان في بعض التفاصيل الأثرية، لكن الأمر الذي فضح الموضوع هو أن الجزء الأكبر من الفيلم كان سيتم تصويره في إسرائيل!! السيناريو كشف كل شيء:" فهمنا من السيناريو الذي حاولوا تمريره أن هناك تحويرا للحقائق. كانوا يريدون القول بأن هناك وجودا يهوديا في أوغاريت، كما كانوا في إيبلا"(16). رفضت السلطات السورية الموافقة على تصوير الفيلم، وقامت بإبلاغ المؤسسات العلمية والسفارات السورية في أوروبا، لإجهاض محاولات هذه المؤسسة التي قد تسعى لاستكمال مشروعها عن طريق الحصول على مقتنيات أوغاريت من المعارض أو المتاحف العالمية.

مثلما يحدث في أماكن أخرى تحاول إسرائيل دائما أن تتسلل إلينا، عن طريق المؤتمرات والندوات الدولية والأبحاث، بل وعبر عملاء لبعثات التنقيب:" ليس في سوريا فقط ولكن في كل الدول العربية"(17)، لذلك يدعو البعض بألا يقتصر التركيز عند منح التراخيص للبعثات الأجنبية على تميز البعثة وأعضائها علميا، فقط بل أن يمتد الأمر لبحث مواقفها من دعم حق البلد العربي في آثاره وإرثه الحضاري.

تعرضت آثار إيبلا وأوغاريت لعملية سطو معلوماتية خلطت الأثرى بالأسطوري، للوصول إلى نتائج معدة سلفا، لكن ما يجرى لآثار هضبة الجولان المحتلة أكثر خطورة، لأنها تتعرض لسطو مادي يُكرّس لسرقات ترتدي ثوب العلم، والهدف كما هو معتاد إثبات وجود حضاري عبراني قديم.

شهدت الجولان تسلسلا حضاريا بدأ منذ عصور ما قبل التاريخ، وامتد مع الآمورين والكنعانيين والآراميين والأنباط و الغساسنة والعرب المسلمين، وهكذا كان متوقعا أن تضم الهضبة عشرات المواقع الأثرية، التي تنتمي إلى هذه العصور. لكن مثلما حدث مع آثار سيناء، لم يكن هناك اهتمام سوري بآثار الجولان قبل عام 1967، رغم أن هذه المنطقة كانت قد استرعت اهتمام المستكشفين الأوروبيين فى القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين، من أبرزهم ستيزن (1806)، بوركهارت الذي عُرف بالشيخ إبراهيم(1810)، بوكنجهام(1816)، ولألماني شومخر(1883)، الذي اعتمد الإسرائيليون في البداية على مسوحاته. عقب احتلال الجولان في 1967 بدأت حملة استكشافات محمومة، من قبل الإسرائيليين(هنا نضع العبارة المألوفة التي لم تعد تحمل أية دلالة: بمخالفة واضحة للاتفاقيات الدولية)، ومضت الأمور في نسقها المعتاد:" أجروا مسوحات، وقاموا بالكثير من أعمال التخريب والتنقيب في المنطقة المحتلة، ملحقين بالآثار أضرارا جسيمة"(18). الأهداف أصبحت لا تُمثّل مفاجأة:" خدمة

نظريات سياسية توسعية و أفكار توراتية تعطي اليهود حصرا حقوقا مزعومة، وتربط تاريخ الجولان بالتوراة وأحداثها، وتلغي عن سابق إصرار وجود أي دليل يتناقض وتلك النظريات والأفكار"(19). هنا يمكن استيعاب مبررات اهتمام الإسرائيليين بآثار وتدمير غيرها، فمثلما حدث (ويحدث) في فلسطين، إذا لم تخدم الآثار إيديولوجيتهم فإن مصيرها غير مهم، قد تُهمل أو تتعرض للتدمير، لا فارق. الهدف السابق يحتاج إلى إطار عملي يتمثل في:" التركيز على وجود الإسرائيليين في الجولان، وبخاصة في فترة الألف الأول قبل الميلاد، عصر ممالك اليهود المزعومة، والمبالغة في تضخيم ذاك الوجود عبر العصور، لإعطاء اليهود دورا مُميّزا في المنطقة، بغية إيجاد مسوغات للعدوان والتوسع، والقيام بتفسيرات وتأويلات مغلوطة ومتناقضة مع حقائق المكتشفات الأثرية، وبالتالي الدخول في محاولة لإعادة كتابة تاريخ هذه المنطقة من وجهة نظر عنصرية "(20). في هذا السياق، يتم إهمال المواقع والطبقات والمكتشفات الأثرية المميزة لآثار الجولان، لعدم ارتباطها باليهود، بل و العمل على طمسها. ما سبق ليس مجرد أوهام تُنتجها عقلية أنهكتها نظرية المؤامرة، لأن الوقائع تؤكد ذلك. قبل أن يمضي على احتلال الجولان ثلاث سنوات، كان الإسرائيليون قد شرعوا في سرقة آثار مدنه وقراه فى بانياس، الحمة، فيق، العال، رجم فيق، خسطين وغيرها. استعملوا في ذلك كل الوسائل، حتى الجرافات التي أقدمت على إتلاف عدد من المواقع الأثرية. وفي عام 1974، قبل انسحاب القوات الإسرائيلية من مدينة القنيطرة، دمر الإسرائيليون

عددا من دور العبادة الأثرية، وسرقوا أحجار المدينة البازيلتية وأعمدتها الرخامية وتيجانها، وأجزاء التماثيل المزخرفة، كما استولوا على محتويات القبور والأبنية الأثرية والتاريخية في دير قروح(21)، السرقات كانت مصحوبة بمحاولات تتمسّح بالعلم لإثبات وجود مشكوك فيه. فقد قام بعض العلماء الإسرائيليين بتحوير أسماء المدن و القرى فى الهضبة، لتتطابق مع ما هو وارد في التوراة، دون استناد لقواعد علمية، وهكذا تم تحريف" خسفين" إلى خسفو(التوراتي)، وكرسي إلى خمرسيا(التلمودي)(22)، و"تل القاضي" إلى دان القديمة، والأخيرة تحديدا كانت عُرضة لعملية تزييف سنشير إليها فيما بعد.

جهات إسرائيلية وأجنبية عديدة شاركت في ذلك، ومن بين الهيئات التي تدعم حفائر الجولان: الجيش الإسرائيلي(مثلما حدث فى سيناء)، وزارة العلوم والآداب، مؤسسة المسح الأثري، معهد أبحاث الجولان، المجلس المحلي فى قصرين بالجولان المحتل، الجامعة العبرية، مديرية البحث الإسرائيلي في حركة الكيبوتس، المجلس الأعلى للأبحاث والتطوير، جامعة بارإيلان، مؤسسة التذكير بالحضارة اليهودية(نيويورك)، مدرسة نيلسون غلوك للآثار التوراتية بكلية الاتحاد العبري، صندوق استكشاف فلسطين بلندن، صندوق ليونارد وكاثارين وولي بكلية سمرويل (اكسفورد)، شركة توماس وهدسون، جامعة أثينا، المركز الوطني الفرنسي للأبحاث العلمية(23)، ودعمت هذه الهيئات عمل بعثات عديدة في كل أرجاء الجولان، من بينها: بعثة كلير ابشتاين وشمير ياهوغوتمان، التي قامت

بمسوح شملت 209 مواقع أثرية، خلال الفترة من 1967 حتى 1968(يلاحظ العدد الهائل للمواقع والفترة الزمنية البسيطة، وهو ما يكشف أن المقصود ليس البحث العلمي، بقدر ما هو محاولة لاهثة للعثور على آثار تخدم توجهات بعينها). وقد عملت هذه البعثة في مواقع عديدة منها: أبو فولة، ديرسراس، تل بزوق، قبة القرعة، رسم خربوش، رسم الكبش، عين الحريري، عين الفارس، شلالات الداليات، مسيل جعدان، والأربعين. كما عملت بعثة موشيه هرتل في مواقع شمالي الجولان، الممتدة من بلدات كفر نفاخ والعليقة وجلبينة في الجنوب إلى جبل الشيخ في الشمال. أما بعثة زيفي أوري ماعوز فنقبت في المنطقة الممتدة بين وادي جلبينة إلى وادى السمك بالجنوب ونهر الأردن غربا. وفي عام 1980 أجرت بعثة سي دوفين مسحا أثريا للمواقع الأثرية في الجولان، ثم قام سي دوفين وج شونجلر بإجراء تنقيبات ودراسات للمواقع الأثرية، التي تعود إلى العصور الرومانية والبيزنطية. مسح آخر قامت به بعثة سي روتشا(التاريخ غير محدد في المراجع). وأجرت بعثة داني اورمان مسوحات ونقبت بمواقع تل الكرسي، الدير، صرمان، وخربة زامل. فى حين أجرت بعثة س. غوتمان تنقيباتها في تل الجوخدار، وجملة وتل أبو زيتون. وقامت بعثة المسح الأثرى الإسرائيلية بالتنقيب في خسفين، بينما نقّبت بعثة زيفي أوري ماعوز وآن كليبرو في قصرين(24)، ونقّبت بعثة نيفه انن في جباتا الزيت. وقامت بعثة ما جورين انبار بدراسة آثار ما قبل التاريخ في حوضة القنيطرة ومحيط بركة رام فى

مسعدة. ونقّبت بعثة أفي جوفر بوادي السمك، وبعثة شيمون دار في جبل الشيخ وبعثة تسافيرس في بانياس(25).

ما سبق مجرد نماذج تكفي لرسم بعض ملامح المشهد، وقد قدّم أحد التقارير السورية 42 موقعا كأمثلة فقط، للاماكن التي طالتها يد العدوان إما بالتخريب أو التنقيب، وهو ما يشير إلى هجمة شرسة قام بها جيش من البعثات الأثرية في محاولة أخرى لتزييف تاريخ المنطقة. غير أن المتهم فى هذه الحالة ليس العدو وحده، بل يجب أن يوضع تقصيرنا بدوره فى قفص الاتهام. ومثلما حدث في سيناء، لم يكن هناك أي اهتمام سوري بالعمل الأثري في الجولان قبل عام 1967. وهو ما يتوقع أن يثير مشكلة فى حالة استرداد الجولان، والسعي تجاه أية مطالبات مستقبلية لاسترداد آثارها، إذ أن المقارنة بين ما كان موجودا قبل الاحتلال وما هو موجود الآن من آثار ستكون غير ممكنة، إضافة إلى أن هناك أعمال حفائر لا تعلم سوريا تفاصيل كثيرة عن نتائجها، وهو ما يعني أن ما سيتم استعادته يظل في كل الأحوال أقل بكثير مما تم نهبه، وكما سبق أن أشرنا أثناء حديثنا عن آثار سيناء، يصبح الأمر الأخطر هو المعلومات المغلوطة التي تترتب على هذا النهب، وتحتاج إلى جهود غير عادية لكشف زيفها بطريقة علمية وليست دعائية. هل يمكن ذلك؟ أمر لا يعلمه إلا الله. المهم أن يجرى التخطيط له بدقة وسرعة، لكي لا يمضي السياق ببطئه المعتاد، فإدارة الآثار السورية لم تشرع فى تسجيل آثار الجولان إلا في عام 1983، أي بعد مرور ستة عشر عاما على الاحتلال (!)، عندما أصدرت وزارة الثقافة السورية القرار رقم 146

بتاريخ 3/ 9/ 1983، الذي ينص على تسجيل 203 مواقع أثرية في الجولان، وقبلها كانت قد أصدرت في العام نفسه القرار رقم 29، بتسجيل مدينة بانياس في عداد المدن الأثرية، والقرار رقم 40 بتسجيل قلعة الصبيبة التابعة لمدينة بانياس أثريا. هل يمكن عقد مقارنة منطقية بين أسلوب أدائنا كأصحاب قضية عادلة وبين أدائهم كمغتصبين؟ أعتقد أن الإجابة ستكون محبطة، لكن البكاء على اللبن المسكوب لن يعيد حقنا، فهل نحافظ على ما لم يُسكب بعد؟!!

ولبنان أيضا!

" تعال وشاهد بيروت تحترق، تماما مثل الإمبراطور نيرون"(26). كانت هذه هى العبارة التي حملتها بطاقة دعوة غير تقليدية، وزّعها ضابط إسرائيلى على مرافقيه لحضور حفلة في أرض محتلة. الدمار الذي انتقل من واقع متأزم إلى بطاقات الدعوة كان يطال كل شيء، إلا مناطق محددة شهدت أحداثا أخرى. قوات تابعة للجيش تحيط بأماكن لا يمكن اعتبارها عسكرية، ومهام سرية تُشبه ما يجري في أفلام المغامرات. والغريب أن ما يتم لا يدخل فى إطار عمليات الحرب بمفاهيمها التقليدية، لكن وفقا للمنهجية الإسرائيلية كان طبيعيا أن يجري استدعاء عشرات من المتخصصين الصهاينة في الآثار، ليتجهوا إلى أماكن بعينها اعتمادا على رؤى مسبقة، في حماية قوات الجيش التي دمرت مواقع أثرية أخرى إسلامية ومسيحية عديدة فى إطار قصف لا يمكن وصفه بالعشوائي. المهمة لم تكن

اقل أهمية من العمليات العسكرية، والهدف كالمعتاد هو الحصول على موطئ قدم:" كان يُنقب بين طيات القبور ومفاصل أحجارها عن رموز ميثولوجية توراتية، تتطابق والمعتقدات اليهودية، وتُحرّره من عقد التاريخ والجغرافيا معا"(27). حالة الهيستريا التي تُسيطر على الإسرائيليين كلما تمكنوا من احتلال ارض عربية ذات حضارة قد يكون لها ما يبررها، فالفجوة بين الفكر التوراتي والمُعطيات الأثرية شاسعة لذلك يستمر البحث المحموم. في جنوب لبنان تُصبح هناك فرصة لمحاولة إثبات الوجود التاريخي لداود وسليمان.

الموقع المُستهدف هذه المرة كان قبر حيرام الفينيقي، حيث تؤكد يوميات الحرب والوثائق اللبنانية والدولية أن جنود الاحتلال و منقبي الآثار الإسرائيليين نهبوا هذا المكان خلال اجتياح لهم عام 1978(28). لماذا؟ لأن المؤرخ اليهودي يوسفينوس أشار إلى ارتباط هذا الملك بعلاقات صداقة مع داود وسليمان، امتدت إلى مجال التجارة بعد ذلك. لذلك لم يكن غريبا أن يعود جيش الاحتلال للتمركز في محيط هذا القبر عام 1983، بل وتحويله إلى مقر عسكري(!)، تم إعداده لاستقبال بعثات أثرية صهيونية، من بين تلك التي أرسلت للتنقيب عن مواقع أثرية في جنوب لبنان. في العام نفسه كانت وحدات أخرى من الجيش تستقر شرق الملعب الروماني بمدينة صور، لتُنفذ أعمال جرف واسعة للمدافن والأسواق القديمة، وتستولي على قطع أثرية بيزنطية. مديرية الآثار اللبنانية أكدت ذلك عقب المعاينة التي قامت بها بعد الانسحاب الإسرائيلي، فقد اكتشفت تفريغ مبان

أثرية بالكامل من كنوزها. في موقع راس العين جنوب صور لم تكن الأحوال افضل بكثير، فقد عثرت قوات الاحتلال على توابيت تعود للعصرين الروماني والبيزنطي ونقلتها عام 1985 خارج لبنان. قبلها بعام كانت قد أغلقت مقام النبي صيدون و أجرت حفائر بها(29)، وأثناء إنشاء إحدى القواعد العسكرية بالنبطية في منتصف الثمانينات، عثر الجنود الإسرائيليون على كنيسة تضم وحدات موزاييك لم يُعرف مصيرها بعد ذلك(30)، وقد وصف أحد خبراء الآثار هذه الوحدات بأنها:" كانت في وضع ممتاز تحوي رسوما لأشكال هندسية تُجسّد رجالا قدماء وحيوانات منوعة مشغولة بمهارة وخفة ومزاج لوني مُزدحم"(31). الكثافة العددية للآثار المسروقة كانت عالية، لدرجة أن النقل كان يتم بواسطة عدد هائل من الشاحنات، حيث أكدت تقارير وردت من محور وادى المغر في الطرف الغربي لمزارع شبعا أن:" قوات الاحتلال الإسرائيلي قامت خلال الأيام القليلة الماضية بسرقة كميات كبيرة من الآثار من تلك المنطقة، ونقلتها بواسطة عشرات الشاحنات إلى المناطق الشمالية فى فلسطين المحتلة"(32). التقارير نفسها أشارت إلى أن قوات الاحتلال اكتشفت العديد من المواقع الأثرية في مزارع شبعا أثناء احتلالها. حدث ذلك خلال قيامها بشق الطرق العسكرية واستحداث مواقع لها، من بين المواقع المُكتشفة قلاع رومانية وصليبية ومغاور وهياكل. وأوضح التقرير أن الإسرائيليين سبق أن سرقوا كميات كبيرة من آثار جبل الشيخ وجبل الوسطاني ومحور كامد اللوز والطرف الشرقي لبلدة راشيا الوادي(33). وبينما كانت هناك سرقات

مُعلنة تتم على مرأى السكان المحليين تم إجراء حفائر أخرى بسرية تامة. ففي موقع يقع ببلدة بارون جنوب صور، كثّفت إدارة الآثار الإسرائيلية أعمال التنقيب وعثرت على مدينة فينيقية ترجع للقرن الثاني قبل الميلاد. موقع آخر تم اكتشافه فى بلدة حولا وأحيطت حفائره بدرجة عالية من الكتمان:" هذا التكتم وما أعقبه من شواهد ملموسة على أعمال النهب التي أثارت شكوكا لدي الأثرين اللبنانيين، عزّزها بعض الأثريين الغربيين الذين رجحوا انتقال قطع أثرية تعود إلى الحقب الفينيقية والبيزنطية والرومانية من جنوب لبنان إلى متاحف فلسطين المحتلة، بطرق غير شرعية فيها تزوير للتاريخ والمستقبل معا"(34). الحديث عن أن اهتمام إسرائيل بالتنقيب لا ينبع من مُنطلقات مادية بل فكرية أصبح مفروغا منه، كما أن الإشارة إلى الدراسات التوراتية صارت معلومة، لكن يبدو أنه حتى في سياق كهذا لا يُضيّع البعض فرصة تحقيق مكاسب شخصية، لذلك قام جنود إسرائيليون باقتلاع أعمدة الرخام ونهب قطع أثرية وفخاريات من المزار الروماني في مدينة صور!! في نسق كالذي نتعامل من خلاله، يُمكن تفسير ذلك بأن السلطات الأعلى لا تجد غضاضة في هذه السرقات، التي تعمل على إفراغ المنطقة من أية مقتنيات داعمة للهوية، ولا مانع فى إطار ذلك من تدمير ما يصعب سرقته(مثلما يحدث في فلسطين، فقد أكدت تقارير متتابعة أن:" دبابات الاحتلال عاثت خرابا فى موزاييك الشارع البيزنطي فى صور أمام أعين القوات الدولية"(35). فى هذه الحالة تتداخل المصالح الشخصية للجنود مع الهدف العام الذي يقوم على محورين

أساسيين: البحث عن براهين تسعى لإثبات وجود تاريخي مُختلق، وتفريغ المنطقة من أية أدلة ترسخ للوجود الأصلي الحقيقي. وإضافة لهذين المحورين لا مانع من تزييف المكتشفات، وإلا فما الداعي لهذه السرية العجيبة التي كانت تُحاط بها أعمال المُنقّبين الإسرائيليين؟ فى مؤتمر مسئولى الآثار العرب الذى عقد بالقاهرة عام 2001، أشار سفير لبنان لدى جامعة الدول العربية أن إسرائيل تزرع قطعا أثرية منحازة لتاريخ ما، فى الأرض التي تحتلها، لتمنح فى حال اكتشافها مستقبلا براهين على وجود مزعوم. خبراء أثريون آخرون أشاروا إلى ذلك، ففي صور(أيضا) يوجد موقع بلاط:"على تلة مقابلة تماما ومشرفة على إحدى المستعمرات الإسرائيلية، تنتصب ثلاثة أعمدة يرتفع كورنيش على اثنين منها. أحد خبراء الآثار تفقد الموقع، شكّك فى أن يكون هذا الكورنيش أثرا حقيقيا أو أصليا، أما الأعمدة فتحتاج مزيدا من الدراسة، علما بأن هذا الموقع هو واحد من المواقع التي لم تكن معروفة كثيرا في السابق. لكن الأهالي يروون أن خبراء آثار إسرائيليين أجروا في هذا المكان أعمال تنقيب، من دون أن يعرفوا طبعا ما إذا كانوا عثروا على اكتشافات أم لا "(36).

الحالة اللبنانية إذن تفتح مجالا آخر للتفكير، مع غيرها من المناطق العربية التي كانت محتلة. والأمر لا يحتاج فقط إلى بذل محاولات مُكثّفة لاسترداد ما تم نهبه، و إنما يتطلب أيضا منهجية للتعامل مع المعلومات التي ترتبت على الاكتشافات الإسرائيلية، والتعاطي بحذر شديد مع ماهية هذه الاكتشافات، بل و أيضا مع أية لقى أثرية يتم العثور عليها مستقبلا في هذه

المناطق، لكي لا نفاجأ بأننا ابتلعنا الطُعم الذي قُدّم لنا بتلقائية وبساطة. ولكل مسار من المسارات السابقة صعوباته. فاستعادة الآثار المنهوبة لن يكون سهلا، إذا ما وضعنا فى الاعتبار أن هناك مواقع كثيرة استجدت نتيجة الحفائر الإسرائيلية، لم يكن اللبنانيون يعلمون شيئا عنها. كما أن تفنيد أية ادعاءات اكتست بمسحة علمية سيكون مضنيا، في ظل عدم بقاء هذه الآثار بمواقعها الأصلية بعد نقلها إلى إسرائيل، أما فيما يخص كشف الحقيقي من المزيف فإنه يحتاج إلى تضافر جهود المؤسسات العلمية المختصة فى العالم العربي.

سنوات قليلة يقضيها الإسرائيليون في أي مكان كفيلة بخلق سلسة من الورطات، كل منها تحتاج إلى سنوات للقضاء عليها، ومحاولة التخلص من تبعاتها! فهل نستطيع حتى أن نضع أقدامنا على بداية الطريق؟ إنها الخطوة التي تأخرت كثيرا.

واليمن كذلك

تزامنا مع تباطؤ غير مبرر، يواصل الآخرون جهودهم حتى في أماكن قد تكون غير متوقعة لنا. في 14 ابريل 2001 صدر عدد مجلة" دير شبيجل" الألمانية، وعلى غلافه لوحة للفنان الالماني ادوارد بوينتر، تُصوّر ملكة سبأ عارية، وهي تتقدم باتجاه النبي سليمان. تصدّر اللوحة عنوان لا يخلو من دلالة:" على خطي ملكة سبأ: علماء آثار ألمان يبحثون عن جذور المملكة

التوراتية ف اليمن"(37)! وهو ما يوضح أن هناك جهودا لا تنتهي، تحاول الربط بين الحضارات القديمة وأحداث التوراة. المحاولة السابقة ليست الأولى، فهناك محاولة أخرى اكثر شهرة قام بها مُستكشف كان شابا قبل عقود. وصل وندل فيليبس إلى اليمن عام 1950 على رأس بعثة موّلتها المؤسسة الأمريكية لدراسة الإنسان، وهي مؤسسة ترعي الدراسات التوراتية. لذلك كان منطقيا أن يكون هدفه هو استكشاف الممالك العربية القديمة، الواقعة على طريق التوابل التوراتي، وفى ثنايا كتابه(38)، رصد تفاصيل رحلته البحثية، ليتضح وجود خلط واضح بين الأفكار التوراتية والبحث الأثري الذي يُكرس لتأييدها:" قد تشطح الروايات والأساطير، ولكن ليس هناك سبب يجعلنا نتشكك في وجود شخصية اسمها بلقيس ملكة سبا، وهذا ما ستؤكده الكشوفات الأثرية في المستقبل. إننا نأمل أن تُعيننا الأبحاث المستقبلية على كشف النقاب عن قصة بلقيس كاملة، مثلما فعلت مع العديد من الشخصيات والروايات الواردة في الكتب السماوية عن عهد الملكة بلقيس "(39)، الكتابات السماوية من وجهة نظره هي التوراة غالبا والإنجيل أحيانا، أما الشخصيات التي يشير إليها فيأتي النبي سليمان على رأسها، ويؤكد أن الكشوفات أكدت وجوده:" لقد أظهرت لنا الكشوفات الحديثة مثلا مدينة سليمان المليئة بالعربات التي تجرها الخيول،

وكان ذلك في أثناء حفريات منطقة مجدو، كما تم اكتشاف أفران صهر النحاس الخاصة بالملك سليمان في تل الخليفة "(40). لا يعنينا فى هذا السياق الحديث عن مدى دقة المعلومات السابقة التى رد عليها علماء متخصصون، بقدر ما نقصد توضيح الكيفية التي يتم بها تحويل أحداث التوراة إلى نقطة محورية تدور حولها كل الاكتشافات، حتى أن فيلبس يُعلن أنه عثر فى اليمن على مُخربش(نقش مكتوب بطريقة الحفر) يرجع تاريخه إلى القرن التاسع أو العاشر قبل الميلاد، ويضم ثلاثة أسماء موجودة فى الإنجيل: "بناط" الاسم العبري لوالد جيروبوم أول ملك لإسرائيل، "على"الاسم العبري للقس الأكبر المذكور في الفصل الأول من صموئيل الأول، "ياقور" اسم موضع في يهوذا. وهو ما يقوده إلى الاستنتاج:" إن العلاقات الوطيدة بين الجنوب العربي ومناطق بني إسرائيل المذكورة في الإنجيل أصبحت أوضح من ذي قبل "(41). الغريب أن المُترجم لم يقم بالتعقيب على هذه المعلومات، بينما اكتفي المراجع بالتأكيد في هامش على أنه:" لا صحة لما ذكره المؤلف، من وجود علاقة بين الأسماء التي وردت فى المُخربش ومواضع لبني إسرائيل ورد ذكرها في العهد القديم "(42). كما أن الجهود العلمية العربية للرد على هذه المعلومات غير موجودة، أو على الأقل غير متاحة، وهو ما يعيدنا من جديد للتساؤل عما نفعله لحماية تاريخنا

من النهب. في هذا السياق، أود أن أشير إلى أن الجهود العلمية لا ينبغي أن تنطلق من نقطة النفي التام لأي وجود عبرانى أو إسرائيلي(قديم) أو حتى يهودى فى المناطق العربية، لأن التشنج فى التعامل مع هذه القضية لن يكون مفيدا. والمطلوب هو التعامل مع هذا الموضوع من منطلقات علمية، تعطى كل ذى حق حقه، انطلاقا من قناعة بأن وجود هؤلاء ليس دليلا على إسهام حضاري قاموا به، وهو ما سنتعرض له بالتفصيل في فصل تال. لأن التعامل الجاد مع هذه الإشكالية هو الذي سيُمثّل مُنطلقا لمدرسة عربية، تتعامل مع التاريخ من منطلقاتنا، لكي لا يظل مُحتكرا من جانب أصحاب الرؤى التوراتية.

الهوامش

(1) موقع وزارة السياحة السورية على الإنترنت
www.syriatourism.org

(2) يري آخرون أن ازدهار المدينة كان فى القرن الرابع عشر، لكننا نعتمد فى هذه الفقرة على المعلومات الواردة بموقع وزارة السياحة السورية، وفي كل الأحوال تُجمع الكتابات المختلفة على أن ازدهار المدينة يقترب من منتصف الألف الثانية قبل الميلاد وليس بعد ذلك.

(3) ايمانويل فليكوفسكي- عصور فى فوضي- ترجمة : أحمد عمر شاهين، رفعت السيد علي، فاروق فريد، ومحمد جلال عباس — العروبة للدراسات والأبحاث. المجلد الأول- الجزء الثاني، ص:257،256.

(4) إيمانويل فليكو فسكي- المرجع السابق- ص:257

(5) إيمانويل فليكو فسكي- المرجع السابق- ص:257

(6) إيمانويل فليكو فسكي- المرجع السابق- ص:265

(7) الإيانويل فليكو فسكي- المرجع السابق- ص:265

(8) هنري برستيد- مرجع سابق- ص:361

(9) إيمانويل فليكوفسكي- المرجع السابق- ص:265

(10) إيمانويل فليكوفسكي- المرجع السابق- ص:271

(11) زياد منى- جريدة الحياة الدولية(12 مايو 2001).

(12) د. محمود أمهز، رئيس قسم الآثار بكلية الآداب بالجامعة اللبنانية. والمقال منشور على شبكة الإنترنت بعنوان:" الآثار التاريخية في الجنوب والعدوان الإسرائيلي".

(13) المصدر السابق.

(14) المصدر السابق.

(15) تمام فاكوش، المدير العام الأسبق للآثار والمتاحف بسوريا، في مقابلة خاصة معه، أثناء مشاركته فى اجتماع مسئولي الآثار والتراث العرب فى إبريل 2001.

(16) تمام فاكوش– المقابلة السابق الإشارة إليها.

(17) تمام فاكوش– المقابلة السابق الإشارة إليها.

(18) محمد قدور– مذكرة مقدمه لاجتماع مسئولي الآثار العرب الذى عقد بمقر الجامعة العربية عام 2001.

(19) محمد قدور– المصدر السابق.

(20) محمد قدور– المصدر السابق.

(21) تمام فاكوش– ورقة عمل مقدمه لاجتماع خبراء الآثار و التراث العرب الذي عقد فى القاهرة في أبريل 2004.

(22) د. بشار خليف– جريدة تشرين السورية(18 أبريل 2004).

(23) محمد قدور– المصدر السابق، وموقع الجولان على شبكة الإنترنت.

(24) أنشأ الإسرائيليون متحفا في قرية قصرين، يرى السوريون انه أقيم لتضليل العالم، حيث أن معروضاته لا تشمل إلا عددا ضئيلا من القطع

المُكتشفة في المنطقة، أما باقي القطع النفيسة فلا يوجد لها أي أثر(موقع الجولان على شبكة الإنترنت).

(25) يُلاحظ أن المعلومات السابقة ناقصة، فهناك بعثات تم تحديد وقت ومكان عملها بدقة، وأخرى كانت تحتاج إلى مزيد من الإضافات والإيضاحات، غير أن هذه هى المعلومات التي توافرت للمؤلف، من خلال مصدرين أساسيين هما مقالة الدكتور بشار خليف التي سبقت الإشارة إليها، وموقع الجولان على شبكة الإنترنت.

(26) جاكو بوتيمران- أطول الحروب في التاريخ.. الغزو الإسرائيلى للبنان، ترجمة وتقديم : مجدى نصيف- دار الثقافة الجديدة. ص: 187

(27) ثناء عطوي- جريدة السفير اللبنانية(3/ 12/ 1999).

(28) ياسين قطيش- جريدة المستقبل اللبنانية(4/ 6/ 2000).

(29) ثناء عطوي- المصدر السابق.

(30) ياسين قطيش- المصدر السابق.

(31) ثناء عطوي- المصدر السابق.

(32) جريدة السفير اللبنانية(28/ 4/ 2001).

(33) المصدر السابق.

(34) ثناء عطوي- المصدر السابق.

(35) ياسين قطيش- المصدر السابق.

(36) مي عبود ابي عقل- جريدة النهار اللبنانية.

(37) زياد مني- الحياة(21/ 5/ 2001).

(38) وندل فيليبس- مملكتا قتبان وسبأ.. استكشاف المالك القديمة التي تناهت إليها رحلة الشتاء- ترجمة الفاضل عباس، مراجعة وتقديم : د. أحمد السقاف- المجمع الثقافي أبو ظبي. ويجدر بالذكر أن العنوان الأصلى للكتاب كان: مملكتا قتبان وسبأ.. استكشاف المالك القديمة الواقعة على طريق التوابل المذكورة فى العهد القديم.

(39) وندل فيليبس- المرجع السابق. ص:166

(40) وندل فيليبس- المرجع السابق. ص: 166

(41) وندل فيليبس- المرجع السابق. ص: 161

(42) د. أحمد السقاف فى تعقيبه على وندل فيليبس- المرجع السابق. ص: 161

الفصل الخامس: فتش عن بابل

عيون كثيرة لم تعرف بغداد إلا من خلال أجهزة التليفزيون، كانت تراقب ما يحدث. سياقات تتناقض مع بعضها، ورغم ذلك يجمعها خيط رفيع قد يكون لا مرئيا. إنه الفوضى المدبرة. عبارة تجمع بين كلمتين لا تلتقيان في الظروف العادية. لكن في ظرف استثنائي يُصبح كل شئ قابلا للتحقق. العيون الكثيرة التي لم تعرف بغداد إلا من خلال التليفزيون، تجمّعت مع عيون أقل تحمل قدرا لابأس به من ذكريات في المدينة الساحرة، وتابعت جميعها- عبر التليفزيون أيضا- عيونا أخرى لجنود أمريكيين يعتلون أسطح دباباتهم. كانت الأخيرة تراقب ما يحدث دون أدنى تأثر، يبدو الجنود مطمئنين، رغم أنهم كانوا يُطلقون النار على سيدات وأطفال عُزّل، لمجرد ارتيابهم فى أنهم قد يكونون مشروعات قنابل بشرية. فجأة، لم يعد الجنود الأمريكيون يعبأون بعشرات البشر الذين يملأون المكان صخبا. الصخب يُستخدم بديلا عن موسيقى تصويرية تصاحب عمليات نهب متحف بغداد. مشهد يخرج على النسق المألوف لجنود كانوا يخافون حتى من ظلهم فيتبادلون إطلاق النيران (الصديقة)! هناك لم تنطلق أية نيران. وظل جنود التحالف المرابطون أمام المتحف القومي العراقي يتابعون تفاصيل النهب.. توجه إليهم أستاذ من جامعة بغداد، متخصص فى علم الآثار طالبا المساعدة فى وقف عمليات السطو. ردوا عليه بأنهم لم يتلقوا أوامر بالتدخل! الشواهد كلها تُشير إلى خطة مُدبّرة مسبقا للسطو على المتحف،

تم رسمها بدقة من خلال القوات الغازية، بحيث يبدو وكأن العراقيين يسرقون تاريخهم! التنفيذ اعتمد على الاستعانة بآلاف السجناء المدانين في قضايا جنائية، أطلقتهم القوات الأنجلوأمريكية، ليصبحوا مادة خصبة لكاميرات تلتهمهم وتعيد إفرازهم عبر الشاشات. عندها يُمكن بث تصريحات تصب في السياق نفسه. الجنرال فنسنت بروكس المسئول في القيادة المركزية الامريكية بقطر، أعلن ببراءة يُحسد عليها:" لا أعتقد أن أحدا توقع أن ينهب الشعب العراقي ثروات العراق"! كلمات مردود عليها من قبل الأمريكيين أنفسهم، فقبل أشهر من الحرب اجتمع ماجواير جيبسون الأستاذ فى جامعة شيكاغو مع مسئولين من وزارة الدفاع الامريكية، وقدّم لهم قائمة بمواقع أثرية يتعين حمايتها، وخصوصا المتحف الوطني العراقي. أكد جيبسون:" حذّرناهم من أعمال السلب والنهب منذ البداية، وأكدوا لنا انها ستُصان"(1). التضارب لم يقف عند هذا الحد، ففي حين أكدت وزارة الخارجية الأمريكية أن لدي الجيش الأمريكي فى العراق أوامر بحماية الآثار، أعلن وزير الدفاع الأمريكي أنه لم يُطلب- على حد علمه- من القوات الأمريكية توفير حماية خاصة للمتحف! السيد رامسفيلد شبّه ما حدث بالمتحف بما يحدث من أعمال شغب بعد مباريات كرة القدم! وأعرب عن أسفه فيما يشبه حوارات المسرحيات السمجة:" لا أحد يُحب ذلك، لا أحد يسمح به لكنه يحصل وهذا مؤسف، وبقدر ما يُمكن وقفه يجب وقفه، وبحصوله في ساحة حرب من الصعب وقفه"!! (2). المُحصّلة النهائية أن أمريكا ارتكبت جريمة القرن. البروفيسور

جيبسون أكد أن الدمار الذي لحق بالمتحف يشابه حرق مكتبة الإسكندرية القديمة قبل أكثر من ألفي سنة. عالمة آثار أمريكية أخري أضافت:" نُدرك أن أكثر القطع الأثرية المهمة ذهبتْ إلي غير رجعة". فى حين أعلن أليكس هنت أمين الآثار بمجلس الآثار البريطاني في يورك أن حماية وزارة النفط وإهمال حماية متحف الآثار يعكسان موقف التحالف من التراث الثقافي، وأعرب عن اعتقاده بان العالم لم يشهد منذ الحرب العالمية الثانية أعمال نهب بهذا الحجم(3). الجريمة التي ارتكبت عام 2003، جعلت مارتن سوليفان رئيس اللجنة الاستشارية الرئاسية للشئون الثقافية فى الولايات المتحدة يستقيل من منصبه استنكارا لنهب المتحف، كما استقال عضو اللجنة جاري فيكان. الاستقالات تُعبّر عن إحباطات العلماء من عدم وضع تحذيراتهم في الاعتبار. ففي يوم الخميس 10 إبريل(بعد يوم واحد من سقوط بغداد)، تقدّم 230 عالما من 25 دولة، بتوصيات إلى الإدارة العسكرية الأمريكية وحلفائها، يطلبون فيها:" اتخاذ كل الاحتياطات والإجراءات لمنع استهداف المواقع الأثرية مباشرة أو بصورة غير مباشرة، واتخاذ كل الاحتياطات والإجراءات لمنع استهداف المتاحف والجامعات ودور الكتب الأكاديمية، أو أي مبنى آخر يحتوي على مقتنيات من التراث الحضاري القديم أو الحديث (......)وفي حالة إصابة أى موقع أو متحف يجب أن تُتخذ كل الإجراءات لاحتواء الضرر ومكافحة النيران، مع تفعيل كل الإجراءات الأمنية اللازمة، لحماية الموقع المصاب من النهب والسلب". حصلتُ على نسخة من المذكرة قبل سنوات، من عالم الآثار الكبير الدكتور

زاهي حواس أمين عام المجلس الأعلى للآثار وقت العدوان، وهى تدحض كل ما حاول البعض ترويجه عن أن أعمال السلب كانت مفاجئة. الجريمة تضرب واحدة من أهم حضارات العالم في الصميم، لذلك فإن عامل الصدفة غير وارد. إنه مخطّط مدروس بعناية تم تنفيذه فعليا.

ماذا حدث؟ ولماذا؟ التكهّنات كثيرة، تتفاوت بين احتمالين لا يختلفان إلا حول الهدف. فى الحالتين كان التخطيط للسرقة قائما، إما لتحقيق ارباح مادية مضمونة او للسطو على التاريخ. الرؤى الاكثر تشاؤما تمزج الاثنين معا، على اعتبار أنهما تحققا بالتوازي، من قبل مجموعات ذات مصالح متعددة وقد تكون مشتركة. إضافة لذلك كانت هناك سرقات عشوائية وليدة اللحظة، تم استخدامها لتقديم غطاء ملائم يُستخدم في التبريرات اللاحقة. روبرت سبرينغبورغ مدير قسم الشرق الأوسط في مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية بجامعة لندن، أكد أن ما حدث لم يكن ناتجا عن عدم المعرفة، وفي محاولة تبريره أشار إلى أنه إما أن تكون الاتصالات بين المسئولين في واشنطون والجنود فى الميدان غير فاعلة، أو أن هناك شيئا غير مفهوم قد حدث(4). هل يتمثّل هذا الأمر غير المفهوم فيما أوردته الهيرالد تريبيون بتاريخ 2/ 5/ 2003 على لسان شهود عيان، عندما أشارت إلى أن أحد موظفي المتحف أكد رؤيته رجلين أوربيي الشكل يدخلان إلي قاعاته مع مقتحميه، ليشيرا إلى قطع بعينها ثم يغادران المكان؟ ما حدث فى أعقاب الإشارة لم يُصرّح به، لكن الاستدلال عليه ممكن ببساطة من خلال ما حدث من أعمال نهب تالية(5). الاتجاه الغالب في

الغرب لم يركز على استهداف التاريخ، حتى أصحاب نظرية التدبير المُسبق رجّحوا أن ما حدث كان مدعوما على الأغلب من تجار التحف القديمة. فى المنطقة العربية كانت التفسيرات تأخذ بعدا حضاريا يميل إلى الاحتمال الثاني. غير أن أصحاب هذا الاتجاه لم يصلوا إلى اجماع فيما بينهم، على المستفيد الاساسي من عملية السطو على التاريخ. رأى البعض أن واشنطن تسعي لضرب مراكز الحضارات القديمة، لإفراغ المنطقة من هُويّتها مما يسهل استعمارها، خاصة أن الآثار العراقية تعرضتْ لـ" تدمير وحشي"، حسب تعبير سوليفان في خطاب استقالته من رئاسة اللجنة الاستشارية الرئاسية للممتلكات الثقافية. ورأى آخرون أن هذا التحليل منطقي، لكنهم أضافوا أن هذا يحدث لصالح إسرائيل، التي كانت أحد الأسباب الرئيسية في شن الحرب(6)، ومن أجلها تم تدمير إحدى القوى العسكرية الأساسية التي كان يُفترض أنها تهددها. لكن الاستفادة الإسرائيلية أصبحت أكثر حضورا، عندما بدأ الحديث عن لوحة ركوع العبرانيين. الدكتور محمد عبد المقصود كان وقتها مدير عام آثار الوجه البحري بمصر. زار متحف بغداد قبل الحرب بفترة. أثناء تجوله استوقفته لوحة بابلية تأمّلها بدقة قبل أن تبدو على وجهه علامات الانزعاج. اتجه إلى مديرة المتحف، وطلب منها إخفاء اللوحة فى مكان آمن لأنها يمكن أن تكون سببا في تدمير المتحف كله. كانت اللوحة تتضمن مشهدا يُمثل ركوع العبرانيين أمام نبوخذ نصر، أثناء السبى البابلي عام 589 ق.م. اللوحة إذن توثق لمرحلة عصيبة مرتبطة بالتاريخ اليهودي، والتعامل معها يُمكن أن يكون بتدميرها

أو سرقتها. هدفان متناقضان لكنهما يُعبران عن أسلوبين مطروحين في التعامل الأيديولوجى مع التاريخ. سارعتْ مديرة المتحف بالاتصال بوزير الثقافة، وأخبرته بوجهة نظر الدكتور عبد المقصود الذي يؤكد أنه لم يتم اتخاذ أي إجراء وقتها. لا أحد يعلم تحديدا هل اختفت هذه اللوحة أم تم حفظها مع آثار أخرى، نقلها خمسة من موظفي المتحف قبل العدوان الأمريكي بأيام إلى أماكن اكثر أمنا، بعد أن أدّوا قسما بأن يحافظوا عليها. مؤيّد سعيد دمرجى مستشار وزارة الثقافة العراقية، أكد لصحيفة" الجارديان" البريطانية أن النقل تم دون أن يعلم وزير الثقافة نفسه بالأمر(7). لوحة العبرانيين والآثار المسروقة والمُدمرة لم تكن مصدر القلق الوحيد، فالمشكلة لدي آخرين لا تتمثل فقط فيما تمت سرقته، بل فيما سيتم استعادته من آثار. في أكثر من محفل علمي عقب الغزو، حذّر عالم الآثار السوري الدكتور محمد بهجت قبيسي من إمكانية عودة قطع مزيفة، تُستخدم بعد ذلك فى محاولة تزييف مراحل تاريخية بعينها، قد يبدو الأمر مبالغا فيه، وربما يتم تفسيره على أساس أنه إعادة صياغة لأفكار تُكرّس للفكر التآمري إزاء كل ما تقوم(أو يمكن أن تقوم) به إسرائيل. لكن الأحداث تُثبت دائما أن هذا الكيان قادر على التنقل بين الخيال والواقع بسرعة غير عادية، خاصة أن هناك علامات استفهام عديدة ثارت حول إتلاف سجلات المتحف، بل إن جهاز كمبيوتر كان يضم نسخة من السجلات تعرّض للتخريب، وقد عبّر عن ذلك هوارد كيسل في" الديلى نيوز"، مؤكدا أن متحفا بدون تسجيل كجسم بدون أيدي أو أرجل(8).

فإذا كان هدف اللص هو السطو على حافظة المجني عليه فلماذا يستأصل أعضاءه رغم أنه لم يقاوم؟! وقائع سابقة تمضي فى السياق نفسه تُرجح أن هناك دورا محتملا لإسرائيل، ففي عام 2001 عقدت جامعة الدول العربية مؤتمرا لخبراء ومسئولي الآثار العرب بهدف وضع خطة عربية للتصدي لمحاولة إسرائيلية سبقت الإشارة لها في الفصل الأول، استهدفت تسجيل مواقع أثرية عربية بقائمة التراث العالمي على أنها إسرائيلية. فى هذا الملتقى أكد سامي قرنفل سفير لبنان لدي الجامعة أن إسرائيل تلعب دورا بالغ الخطورة فى الأماكن التي تحتلها، حيث تدفن آثارا لا تنتمي إلي المناطق المحتلة لكنها تحمل أيديولوجيات توراتية، حتى تعيد البعثات التي ستعمل في هذه المناطق مستقبلا اكتشافها(9)، ولنا أن نتوقع السيناريو الذي يلى ذلك.

رغم كل ذلك، ربما يبدو ما سبق خيالا مُغلّفا بأجواء أفلام الجاسوسية أكثر من اتصالها بالواقع، لكن بعض الوقائع تأتي أحيانا لتُثبت أن أصحاب هذه المخاوف ليسوا خياليين تماما. في عددها الصادر بتاريخ 26/ 3/ 2004، فجّرت صحيفة" هاآرتس" الإسرائيلية قنبلة من العيار الثقيل، عندما أعلنت عن اكتشاف شبكة إسرائيلية ظلت تعمل في تزييف المكتشفات الأثرية طوال 15 عاما، ويشارك فيها متخصصون في علم الآثار(10)، وتحدث المسئولون بإدارة الآثار الإسرائيلية عن رمانة العاج، وهى اكتشاف أثري ادّعتْ إسرائيل أن تاريخه يعود إلى عهد الهيكل الأول، وأكد هؤلاء المسئولون أنه مجرد أكذوبة! تحمل رمانة العاج كتابة قديمة تبدو وكأنها

مقتبسة من التوراة، وكانت قد اكتشفت لدى تاجر آثار بالقدس، في بداية ثمانينيات القرن الماضي، لتعرض بعد ذلك فى متحف إسرائيل اعتبارا من عام 1988. وقت الكشف أكد علماء آثار إسرائيليون وعالم آثار فرنسي يدعي أندريه ليمر أن الأثر أصلي، وكان يقدم دليلا يدعم أفكارا توراتية، حيث ادعي ليمر أن كهنة الهيكل الأول كانوا يستخدمونه. غير أن الإعلان عن هذه القضية جعل مسئولى الآثار الإسرائيليين يعربون عن تخوفهم من عواقب اكتشاف عمليات التزييف، وأوضحوا لـ" هاآرتس" أن ذلك سُيسبّب مشكلة ضخمة تُشكّك فى مصداقية علم الآثار الإسرائيلي، خاصة أن هناك عددا كبيرا من الأبحاث والنظريات استندت إلى هذه الاكتشافات المزيفة! وقد أعاد فريق من علماء الآثار فحص رمانة العاج وعدد من الآثار الأخرى، وأقرّوا بعدها بأنها مزيفة. هل كان هدف الشبكة- التي يرأسها جامع آثار إسرائيلي اسمه عوديد جولان- هو الربح فقط؟ في الظروف العادية قد يكون هذا الاحتمال مطروحا، لكن إذا وضعت هذه القضية في سياقها فإن هدف الربح يتراجع أمام أهداف أخرى ترتبط بالأيديولوجيا.

الواقعة السابقة ليست وحيدة، ففي يناير 2004 ذكرت صحيفة" هاآرتس" أنه تم اكتشاف لوح من الحجر الأسود يحمل كتابات فينيقية، نُسبت إلى ملك يهودي حكم القدس فى نهاية القرن التاسع قبل الميلاد(11). الكتابة- التي وردت في اللوحة بصيغة المتكلم- تتحدث عن إصلاحات فى الهيكل أمر الملك بإجرائها، وتُشبه إلى حد كبير مقطعا ورد في سفر الملوك بالعهد القديم. لم تذكر الصحيفة شيئا عن مكان الكشف،

لكنها ادّعت ما هو اخطر، حيث أشارت إلى أن العثور على هذه القطعة تم(على ما يبدو) خلال حفائر كبيرة، قام بها المسلمون في السنوات الأخيرة بالمسجد الأقصى وقبة الصخرة!! أي أن الإسرائيليين لا شأن لهم بالكشف الذي عثر عليه المسلمون! تباينت مواقف علماء الآثار الإسرائيليين، فقد رفض متحف إسرائيل شراء اللوح، بعد أن أعرب خبراؤه عن خشيتهم من ألا يكون أصليا، في حين أكد أحدهم- طلب عدم ذكر اسمه- أن طريقة كتابة الأحرف ومضمون الكتابة لا يقودان إلى الاستنتاج بأن اللوح مختلق، غير أن السر الذي يحيط بالاكتشاف يبعث مخاوف من أن يكون فى الأمر خدعة. عالمة الآثار الإسرائيلية اياليت مازار المسئولة عن عمليات التنقيب حول المسجد الأقصى كانت اكثر وضوحا، حينما ذكرتْ أن هناك شكوكا جدّية حول أصالة هذه القطعة الأثرية. ماذا كان يمكن أن يحدث لو تم تمرير الكشف المزيف؟ غابريال بركاي الذي وصفته الصحيفة بأنه أحد أهم علماء الآثار الإسرائيليين، أكد انه فى حالة ما إذا كان هذا اللوح اصليا فإنه يُمكن أن يكون أهم اكتشاف أثري في القدس وإسرائيل! المحاولات إذن متكررة يتم اكتشافها في إسرائيل نفسها، وبالتالي يمكن أن يتكرر السيناريو ذاته فى مناطق أخرى من بينها العراق، خاصة أن المناخ الحالي يسمح بذلك، فالآثار اختفت والسجلات تعرضّت للدمار، مما يجعل التلاعب اكثر سهولة بكل تأكيد.

البحث عن التلمود

عقب غزو العراق قام فريق "ميت آلفا " بالبحث عن أسلحة الدمار الشامل، رافقه أعضاء من المؤتمر الوطني العراقي. سارت المهمة في مساراتها المُخطط لها، لكن عند تفتيش مبنى المخابرات، طلب ممثلو المؤتمر العراقي- حسبما أكدت" نيويورك تايمز"- من أعضاء الفريق أن يبحثوا عن أقدم نسخة من التلمود في العالم، كان يُفترض وجودها في هذا المبنى. ويشير محرر" نيويورك تايمز" إلى أن الأخيرين ترددوا في قبول هذا الطلب، لأن مهمتهم تنحصر فى إثبات وجود أسلحة غير تقليدية، لكن التردّد لم يدم طويلا، وبدأ البحث ولم تعثر الفرقة على النسخة المطلوبة، غير أنها وجدت كتبا دينية يهودية، من بينها نسخة من التلمود مطبوعة في ليتوانيا، وترجع للقرن التاسع عشر(12). ولا أحد يعرف مصير ما عُثر عليه ولا أين انتهي به الحال.

هل اعتمد البحث عن التلمود البابلي على طلب من أعضاء المؤتمر الوطني فعلا؟ الإجابة لن تخرج عن أحد احتمالين، الأول: هو أن يكون البحث قد تم بدون طلب من أعضاء المؤتمر، وتم الزج باسمهم لكي يبدو الأمر كما لو كان شأنا عراقيا تردد الفريق فى قبوله، ثم استجاب بعد ذلك لاعتبارات قد تكون إنسانية!! وهنا يكون السؤال: لصالح من تم البحث عن النسخة الأثرية إذا لم يكن لأطراف عراقية دخل بذلك؟

أما الاحتمال الثاني فهو أن يكون أعضاء المؤتمر بالفعل وراء الطلب. وقبل أن ندخل في الشق الموضوعي نجد أن هناك سؤالا شكليا يطرح نفسه، هو: إلى أي حد يُمكن أن يُملى أعضاء المؤتمر رغباتهم علي فريق مكلف بمهمة مُحددة؟ خاصة أن هذه المهمة بالغة الخطورة بالنسبة للأمريكيين، لأنها تسعى لإيجاد الدليل على أن احتلالهم للعراق كان حتميا ومشروعا، وإذا كان أعضاء الفريق قد تردّدوا بالفعل في البداية، فما الذي دفعهم للاستجابة بعد ذلك؟ الأسئلة الموضوعية الأهم تركز على أسباب طلب أعضاء المؤتمر، ولماذا نسخة التلمود تحديدا وليس أي تراث عراقي يمكن أن يكون مخبأ فى مقر المخابرات؟ الدكتور خالد الناشف المتخصص في حضارة وادي الرافدين لم يجد تبريرا سوى العلاقات السابقة بين بعض أعضاء المؤتمر الوطني والجماعات اليهودية فى أمريكا، ويشير الناشف إلى حدث مهم، ففي أكتوبر 2002 رعت منظمتان يهوديتان، هما لجنة العلاقات العامة الأمريكية الإسرائيلية(إيباك) ومؤسسة الأمن القومي اليهودي(جينسا) نقاشات مع أعضاء المؤتمر، وتمت دعوة أحمد الجلبي رئيس المؤتمر إلى حفل عشاء لـ(جينسا) في لونج ايلاند يوم التاسع من أكتوبر. قبلها بيومين كان انتفاض قنبر مدير مكتب المؤتمر فى واشنطن يُلقي كلمة أمام ايباك، أشار فيها إلى أن المؤتمر يقوم بالاتصال بالمجموعات اليهودية الأمريكية، لأنها أفضل مدخل للحكومة الإسرائيلية التي ينبغي عليها الاتصال بالمؤتمر الوطني العراقي، والانخراط بشكل أكبر في خلق تغيير سياسي بالعراق!! الكلمات السابقة تفتح الباب على مصراعيه لافتراض سيناريوهات مُحتملة،

تفترض وجود اتفاقات سرية قد يكشف المستقبل تفاصيلها، وتوضّح ما إذا كانت هذه الاتفاقات قد تضمنت بنودا تُركّز على آثار العراق المرتبطة بالتفسيرات التوراتية لتاريخ المنطقة.

مرة أخرى يختلط السياسي بالثقافي ليخلق واقعا ضبابيا، يُخلّف أجواء من الشك حول ممارسات اسرائيل تجاه العراق وآثاره. صحيح أن التغلغل الاسرائيلي في العراق اتخذ أشكالا متعددة بعد الاحتلال، لكن الشق الحضاري كان واضحا والأدلة عديدة، ففي يوليو 2003 قام جيف كابي(مسئول بالوكالة اليهودية) بزيارة العراق، للاطمئنان على يهودها الذين بلغ عددهم حسب تقديره هو شخصيا 34 فردا! وأخذ معه كتبا ورموزا دينية، وأكد أن هناك مزيدا من البعثات التي ستذهب لمساعدتهم(13)، فإذا غضضنا النظر عن الشق السياسي وتفهّمنا حركة التنقلات الدائبة التي فتحت الطريق أمام الإسرائيليين للدخول إلى العراق، وإذا افترضنا أن البعثات العديدة لن تذهب إلا لترعى 34 يهوديا فقط، فإن كل ذلك يصبح مثيرا للشكوك إذا وُضع في سياق آخر، وهو التصريحات التي نُسبت إلى حاخامات إسرائيل قبل الحرب، وأكدوا فيها أن العراق جزء من أرض إسرائيل الكبرى، بل إن أحدهم وهو الحاخام نحميا مهورى ودّع الجنود اليهود المشاركين في القوات الأمريكية والبريطانية، وطلب منهم تلاوة صلاة كلما اقتربوا من نهر الفرات، تقول:" كل قطعة أرض عند نهر الفرات هى جزء من أراضي إسرائيل "(14). ولأن من يمتلك الأرض يملك ما عليها، حاول الاسرائيليون خلال سنوات طويلة شراء العقارت عبر

وسطاء محليين، ففي عام 1995 ألقت سلطات الامن القبض على سيدة عراقية اشترت مبني المدرسة الدينية في الكاظمية. كانت المدرسة معروضة للبيع من قبل وزارة الاوقاف، واشترتها السيدة بمبلغ 1.3 مليون دولار، وعند التحقيق اعترفت بأن يهودا موّلوها بالمبلغ لشراء المبنى!! بعدها بأعوام أحبطت السلطات العراقية محاولة ثانية لسرقة رأس الملك سنوترك الثاني(المحاولة الأولي كانت عام 1969)، وحسب عبد الصاحب السهر المستشار القانوني لهيئة الآثار العراقية، اتضح أن العصابة مُكونة من لبناني وسوري وعراقي، تمكّنوا من نقل الرأس عن طريق وادى الثرثرا إلى محافظة أدبي السورية ومنها إلى حمص، واعترف اللصوص أنهم مكلفون بسرقتها من قبل تاجر لبناني لصالح إسرائيل(15). وجهة النظر السابقة أيدها الدكتور مؤيد سعيد مستشار وزير الثقافة العراقي:" تجار الآثار والعاديات فى أوربا أصلا والخبراء الذين يقيّمون هذه الآثار معظمهم من الإسرائيلين، ومن اليهود المرتبطين بإسرائيل، أو لديهم جنسية ثانية هى الجنسية الإسرائيلية"(16). السيناريو مستمر لكن تدهور الأوضاع في العراق جعل الأمور تخرج عن السيطرة، وعقب الغزو الأمريكي أصبح الباب مفتوحا لخروج أية مقتنيات من أي مكان وفي أي وقت، دون أن تبقى من السرقة إلا روايات متواترة تفقد مع الزمن عناصرها واحدا تلو الآخر.

في تقرير من بغداد بثّته وكالة" قدس برس" منتصف عام 2004، أكد شهود عيان عراقيون أن مخطوطات نادرة وتحفا فُقدت، بعد أن سرقها أشخاص يُعتقد أنهم يهود من مقام الكفل الذي يقع في مدينة بابل. وأكد

الشهود أن المخطوطات المكتوبة بالعبرية، وأنها اختفت مع التُحف في ظروف غامضة، بعد أن أدى عدد من اليهود طقوسا دينية يهودية بالمقام. المُخطّط يمضي إذن في مساراته التي أصبحت متكررة، والآثار تمضى فى اتجاه واحد معروف، لكن التعامل معها في محطة الوصول يتم باعتبارها مادة أولية، تُستخدم في ضخ أكاذيب متتابعة، تحتل مكانها بعد حين باعتبارها حقائق مسلم بها!!

الهوامش

(1) د. بشار خليف – سرقة آثار العراق- مقال منشور بشبكة سوريانا suriana.net

(2) أخبار الأدب – 27 إبريل 2003

(3) المصدر السابق.

(4) د. خالد الناشف – تدمير التراث الحضاري العراقي.. فصول الكارثة- دار الحمراء بيروت. ص:90

(5) في يومياته، ذكر القاضى العراقى نبيل حيّاوى أنه خلال تجوله ببغداد في اليوم التالي للغزو، شاهد شابا مُتعلّما يخرج من المتحف، وهو يحمل كرسيا، كشف الحوار معه عن ملابسات غريبة. فقد أكد الشاب أن مدير المتحف ومعه خبراء أجانب قالوا له ولغيره إن عليهم أخذ ما يستطيعون حمله، لأن البناء سوف يُنسف بعد ساعات. سأله القاضى عما إذا كان يعرف مدير المتحف فأجاب بالنفي، وأضاف أن المدير(المزعوم) هو الذي كسر أحد أبواب المتحف بنفسه، وأن معه خبراء دوليين أحدهم كان يتحدث العربية بلهجة فلسطينية، مما جعل القاضي يعتقد أنه ربما يكون إسرائيليا. وأكد الشاب أن المدير ومن معه أخذوا مايريدون من الآثار التي تهمهم، ثم طلبوا من المواطنين أن يدخلوا ليأخذوا مايشاؤون- د.بشار خليف- المصدر السابق.

(6) فى بداية العدوان على العراق قدّمت المذيعة الإسرائيلية ميكى حايموفيتش برنامجا على التليفزيون الإسرائيلي بدت فيه سعيدة، وأعلنت بوضوح: لكم انتظرنا هذا اليوم، كم نحن سعداء. بعد لحظات انضم إليها أحد المتخصصين الإسرائيليين في تصميم المدن، وأخذ يفاخر بأنه تبرّع بتقديم خرائط مُفصّلة عن الأماكن الأثرية العراقية للقوات الامريكية دون مقابل. بمجرد انتهاء المقابلة علّقت المذيعة قائلة: ينبغى أنْ يُبادر طيارو التحالف إلى قصف هذه الأماكن الأثرية من البر والبحر والجو، لأنها أخطر من اسلحة الدمار الشامل!- د. بشار خليف- المصدر السابق.

(7) د. خالد الناشف- المرجع السابق. ص :240

(8) د.خالد الناشف- المرجع السابق. ص:26

(9) أخبار الادب- 6/ 5/ 2001.

(10) موقع إسلام أون لاين.

(11) وكالة الانباء الفرنسية 13/ 1/ 2004.

(12) د. خالد الناشف- المرجع السابق. ص:165

(13) الجزيرة نقلا عن رويترز.

(14) جريدة البيان الإماراتية- 16 يوليو 2003

(15) الجزيرة في7/ 2/ 2002- حلقة خاصة عن سرقات الآثارفى الوطن العربى.

(16) المصدر السابق.

الفصل السادس: مغامرات تاريخية

ربما كانت الشمس تمضي وقتها نحو رمال الصحراء الممتدة في نهاية يوم شاق من العمل! وقد تكون فى طور استعداد للاستيقاظ لبدء يوم جديد. تفاصيل صغيرة، لكل إنسان حرية استخدام خياله في تشكيلها.(لم لا؟.. وهناك من يتجاوزون حدود هذه التفاصيل ويُوظّفون خيالهم في ابتكار تواريخ كاملة).

على مسافة أميال من هؤلاء المتجهين إلى الخارج، كان آخرون يتقدّمون نحو الداخل. سيناء كانت نقطة التقاء تاريخية بين جموع بني إسرائيل الراحلين، و جحافل الهكسوس التي ستغزو مصر بعد أيام أو أسابيع على الأكثر. لقاء وهمي لكنه لم يكن الأخير الذي يدعى أحدهم حدوثه. بعد سنوات طويلة يتكرر اللقاء، لكن وفق سيناريو مختلف. حيث يقوم شاؤول الملك الإسرائيلي بتحرير مصر- التي طردت أجداده- من احتلال الهكسوس! ورغم ذلك يغتصب المصريون حقه ويلغون دوره، ثم يمنحون البطولة لأحمس، ويُزيّفون التاريخ ليخلدوا اسم الأخير، باعتباره المحرر الأعظم!! بعدها بسنوات أخرى يتزوج النبي يوسف من مصرية، ويُنجب منها ولدا يخرج من نسله النبي موسى بعد أجيال، وبنتا هى الملكة تي أم إخناتون، الذي يرث عن جده عقيدة التوحيد!! ولأن التاريخ قديم، فقد أصابته الشيخوخة ببعض أعراض فقدان الذاكرة، هنا يهب المتطوعون ليحاولوا أن يعيدوا إليه ما فقده، لكن حتى هؤلاء لا يلبثون أن يختلفوا وتتعدد التأويلات، ليفترض البعض أن إخناتون هو النبي موسى، في حين يصبح- وفقا لوجهات نظر أخرى- هونفسه النبي إبراهيم! تتعدد الاجتهادات ويظل إخناتون الأكثر قدرة على جذب الاهتمام، وتبقي فترة آخت آتون الأكثر عرضة لمحاولات السطو. غير أن البعض لا يكتفون بالمساحات

التقليدية، وينطلقون بخيالاتهم في فضاءات أرحب. ولأن للخيال جموح لا يمكن كبحه، تتحوّل حتشبسوت- فجأة- إلي بلقيس ملكة سبأ!! ويُصبح تحتمس الثالث هو نفسه النبي داود وفق إحدى الروايات، لكنه في رواية أخرى يتحول إلى مغتصب لثروات بني إسرائيل:" إن الثروة التي جمعتها أمة، تراكمت على مدى مئات السنين من العمل الشاق والحياة الآمنة على أرض فلسطين، ثم الغنائم التي جمعها شاؤول وداود في الحروب التي خاضوها، وغزواتهما العسكرية وغنائم حواريس(أواريس) عاصمة العماليق(يري صاحب هذه المغامرة أنهم الهكسوس)، وأرباح التجارة بين آسيا وأفريقيا، والذهب المجلوب من بلاد وهدايا ملكة سبأ حتشبسوت(!!)، كلها تحولت إلى غنائم لتحتمس الثالث"(1)، ومن أجل تكريس الخيالات السابقة، قام من اختلقها باختزال عدة قرون تفصل بين تحتمس الثالث والمرحلة التي يشار إليها. إنها المغامرات التاريخية التي تحاول باستمرار الربط بين سياقين منعزلين ولو بالإكراه.

تهويد الكون

فيما يشبه لعبة القص واللصق، تعامل إيمانويل فليكوفسكي مع التاريخ القديم. وعبر مؤلفاته العديدة، حاول أن يحل الإشكالية التقليدية التي تنتج عن تجاهل المُدوّنات المصرية القديمة، لواقعة قيام مملكة إسرائيلية كبرى، وتجاهل التوراة- في المقابل- لوجود تحركات مصرية واسعة النطاق شهدها العصر الذي افترضه" سفر القضاة" في التوراة، رغم أن هذه التحركات أدت إلي أن تسيطر مصر على فلسطين. فليكوفسكي أشار إلى ذلك بقوله:" من العجيب أنه من خلال الوثائق القديمة، لا يوجد أي ارتباط حقيقي ومباشر بين تاريخي مصر وفلسطين، لفترة امتدت إلى بضعة مئات من السنين"(2). حقيقة يُعاد

طرحها على هيئة سؤال في موضع آخر، بشكل أكثر استفاضة:" والسؤال الذي فرض نفسه من قبل، والذي يواجهنا الآن مرة ثانية، هو: كيف خلا سفرا يوشع والقضاة واللذان يُغطيان أحداث فترة تزيد على أربعمائة عام من أي ذكر لسيادة مصر على أرض كنعان، أو أية إشارة خطية لحملات عسكرية قادها الفراعنة؟ في الوقت الذي نجد فيه طبقا للتاريخ التقليدي أن فلسطين كانت طوال تلك الفترة تحت هيمنة مص"(3). إنها الإشكالية التي جعلت البعض يشككون في صحة ماورد بالتوراة من معلومات تاريخية، لكنها تجتذب فليكوفسكي ليعتمد عليها في اتجاه مغاير. فقد بدأ يُفكّك التاريخ المصري، ويُعيد كتابته حسبما يحلو له، مستخدما كل ما يساعده على ذلك من قراءات تخالف المألوف، وتفسيرات مُضلّلة وأحيانا معلومات مزيفة، ليصل في نهاية الأمر إلى واحدة من أكثر المغامرات التاريخية غرابة وجرأة.. و صفاقة. أعاد من خلالها ترتيب التاريخ المصري القديم، بعد أن حرّك سنواته لمسافة زمنية تتفاوت بين حدث وآخر، وتصل في بعض الأحيان إلى ستة قرون. فعند حديثه عن الأسرة الثامنة عشرة، نقل فترة حكمها لتبدأ فى القرن التاسع قبل الميلاد، رغم أنها ظهرت في الفترة من 1550-1295 ق.م.(4)، وهو ما ترتب عليه أن تنتقل الأسرة التاسعة عشرة التي يُرجّح البعض أن الخروج حدث خلالها من(1295-1186 ق.م.) إلى الفترة التي تخص الأسرة السادسة والعشرين (672 – 525 ق.م.)!! عمد فليكوفسكي إلى التبديل والإحلال السابقين، رغم أنف الحقائق التاريخية التي رسختها الاكتشافات الاثرية، ووصل إلى تواز مُختلق بين حُكام الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة وملوك إسرائيل القديمة. بعد ذلك بدأ إعادة قراءة بعض المُدوّنات من وجهة نظره، لنُفاجأ بتاريخ وهمي بالغ الغرابة، فالذي حّرر مصر من الهكسوس لم يكن أحمس مثلما أجمع المؤرخون ورجال الآثار، بل شاؤول الذي كلّفه النبي صموئيل بذلك!!

وفقا للسياق التاريخي المتعارف عليه، تم تحرير مصر من الهكسوس بقيادة أحمس عام 1550 قبل الميلاد، بينما عاش الملك شاؤول عام 1000 قبل الميلاد(5)، وقد تخلّص فليكوفسكي من الفاصل الزمني الذي يقترب من ستة قرون، ليتمكن من الزعم بأن لبني إسرائيل فضلا على مصر القديمة، بل والشرق الأدنى كله:" هناك ديْن تاريخي يدين به الشرق الأدنى لنيله حريته، وتخليصه من نير عبودية الهكسوس على يد شاؤول، ولكن أعماله العظيمة لم تقدر بل حتى لم يُعترف بها. لقد كان سقوط حواريس(أواريس) وتدمير جيوش العماليق، تغييرا حاسما لمسار التاريخ، ومن جديد نهضت مصر لتبنى قوّتها مرة أخرى، وتستعيد إشراقها بعدما تحررت من عبودية دامت لمئات السنين، وكان محررها هو أحد أحفاد اليهود الذين كانوا عبيدا في مصر، ولم تتعلم الأجيال أو تستوعب الأعمال التي أنجزها شاؤول، وحتى لم يدن له معاصروه بالجميل"!!(6). لم يكتف فليكوفسكي إذن بمحاولة حل إشكالية تجاهل مُدوّنات مصر القديمة لأحداث التوراة، بل وجدها فرصة لا بأس بها للسطو على واحد من أهم الانجازات في التاريخ المصري القديم، ونسبته إلى ملك اسرائيلي، وزعْم التعتيم على دوره كمحرر لصالح مصري اقتصر دوره على المساعدة وهو أحمس!! المغامرة السابقة لا تستطيع أن تصمد إذا قُدّمت منفردة، لأنّها تقود المؤلف إلى مأزق حقيقي ينسف مزاعمه. فبقاء التاريخ التقليدي لطرد الهكسوس عند عام 1550 كما هو متعارف عليه عند علماء الآثار، سيؤدي إلى مفارقة درامية. حيث سيجعل شاؤول حفيد بني إسرائيل المطرودين من مصر، يهزم الهكسوس قبل قرنين ونصف من خروج أجداده(بني اسرائيل) منها!!! لذلك كان على الكاتب الصهيوني تحريك التاريخ من جديد. وافترض أن خروج بني اسرائيل من مصر حدث قُبيل أسابيع من غزو الهكسوس لمصر. لينقل بذلك حادثة الخروج من التاريخ الذي رجّحه البعض في القرن الثالث

عشر(7) إلى القرن السابع قبل الميلاد (تاريخيا بدأ حكم الهكسوس في عام 1650ق.م.)(8). ليس هذا فقط، بل أن بني إسرائيل قابلوا الهكسوس حينما كان كل منهم يمضى في اتجاه معاكس للآخر:" لقد قابل الإسرائيليون- حتى قبل وصولهم إلى جبل سيناء- مجموعات من الهكسوس". لم يعمد المؤلف فقط إلى تغيير التواريخ، بل قام أيضاً بتأخير دخول الهكسوس ليصبح من السهل على شاؤول أن يهزمهم، وحتى يتمكّن قائد اسرائيلي آخر هو يوآب من القضاء عليهم!(9).

قبل أن نتعرّض لبقية مغامرات فليكوفسكي التي تمتد إلى عصر الاسرة الثامنة عشرة، تنبغي الاشارة إلى أنه لم يعمد في مجلداته إلى تهويد التاريخ فقط، بل سعى إلى تهويد الكون، من خلال الحديث عن ظواهر فلكية تُفسّر من وجهة نظره المعجزات التي واكبت الخروج، والأعوام السابقة واللاحقة عليه، مثل انشقاق البحر والبلايا العشر، وتوقّف الشمس استجابة لطلب يوشع بن نون. يُقدّم فليكوفسكي أسانيده التي تُشبه أفلام الخيال العلمي، ويشير إلى مذنبات تجيء وتمضي وتُوقف دوران الأرض ثم تعيدها إلى الحركة، وإذا كان المجال هنا لا يسمح باستعراض أهم ما أشار إليه في هذا السياق، إلا أن الحاجة تدعو لاقتباس ما ورد في تعقيب عالم الفضاء الأمريكي كارل ساجان على الافتراضات العلمية التي وردت في عصور في فوضى. لأنه يُقوّض أساس عمل فليكوفسكي ويكشف أن أسانيده متهافتة. ورغم أن رده كان يركز على ما ورد في الكتاب من معلومات فلكية، إلا أن ساجان أشار إلى وجود تعارضات بين افتراضات فليكوفسكي وبين ما ورد في التوراة نفسها:" وهو أمر خطير للغاية، وهو على الأقل يُظهر أو يثير الشكوك في أن التوراة متضاربة مع افتراضات فليكوفسكي"(10).

فيما يخص الجانب الفلكي تضمنت فرضيات فليكوفسكي عشر مشكلات كبرى، تكفي كل واحدة منها للقضاء عليها من أساسها، ورغم ذلك يؤكد ساجان:" النقاط العشر أو المشاكل العشر السابقة التي ذكرتُها هي الأخطاء الجوهرية العظمى في فرضيات فليكوفسكي، على قدر ما استطعتُ أن أفنّد فرضياته"، ويشير إلى أن هناك مشكلات أخرى متنوعة صادفته، عند قراءته لعوالم في تصادم(أحد اجزاء موسوعة فليكوفسكى)، جعلته يصل إلى نتيجة نهائية:" كتاب عوالم في تصادم محاولة لإثبات صحة ما ورد في التوراة والقصص الديني القديم كتاريخ لا كعقيدة، لقد حاولتُ أن أتفهم ما ورد به دون حكم مسبق من جانبي، ووجدتُ أحداثاً دينية متشابهة وجذّابة لشعوب قديمة تستحق مزيداً من البحث، ووجدتُ أن الأحداث الدينية والمعجزات يمكن ان تُعزى في تشابهها في الثقافات القديمة إلى الانتشار المباشر، نتيجة لهجرات الشعوب القديمة. أما الجانب العلمي في النص، فإنه بالرغم من كل الادعاءات بوجود براهين تُثبته، إلا انه يصطدم بعشر مصاعب مختلفة تُعد كل منها مشكلة علمية خطيرة". رد ساجان على فليكوفسكي كاشفا زيف ادعاءاته، التي أكّد فيها وجود براهين تُثبت الجانب العلمي من نظريته، ولم يكن الزعم بوجود براهين قاصراً على الشق العلمي، بل امتد إلى الجانب التاريخي الذي كان مستهدفا بالأساس، حيث يشير ساجان في صفحات سابقة من رده، إلى مقابلة تمت بينه وبين أحد المتخصصين:" ما زلتُ أتذكّر مناقشة دارت بينى وبين أستاذ في تاريخ الحضارات السامية، في إحدى الجامعات المرموقة، وقال على ما أذكر: ما ذكره فليكوفكسي عن التاريخ الآشوري والتاريخ المصرى والتعاليم التوراتية والتلمود والمدراش.. كلام فارغ ".

لم يكتف فليكوفسكي بآرائه، بل حرّف آراء الآخرين، ففى جانب من كتابه أشار إلى اعتماده على ما ورد في كتاب " سجلات مصر القديمة"، للعالم الأمريكي هنرى بريستد، وعندما رجع الدكتور عبد المنعم عبد الحليم إلى الفقرة المشار اليها، فوجئ بأن الأول قام بتحريفها(11) لتعطى معنى مخالفا يتناسب مع ما يحاول إثباته.

(الحواديت) الطريقة التي يرويها فليكوفسكي، تتيح لنا فرصة استثنائية للشعور بالدهشة. حيث أن خياله الخصب يثير العجب، فبعد أن بدّل وعدّل ونسب الإنجاز الأعظم الذي تسبب في نشأة الدولة المصرية الحديثة إلى بني إسرائيل، عاد ليؤكد أن حتشبسوت ما هى إلا ملكة سبأ!!

يضع المؤلف فرضيته، ثم يطرح ملحوظة تتحوّل إلى منطلق لخيال أكثر جموحا، حيث يقول:" لو كان الملك سليمان ذائع الصيت ومعروفاً كما وصفته المصادر العبرية، فإن غياب أى نوع من الاتصالات بين تلك الملكة(حتشبسوت) والملك سليمان من الصعب تفسيره، وسيكون أمر شاذ جداً أن يكونا مجرد شاغلين لقاعات الحكم ". ما سبق يعتبر حُجة على فليكوفسكي، إذ أنه يضرب فرضية التوازى التاريخى بين سليمان وحتشبسوت، لكن المؤلف يملأ فراغات قصته بمزيد من الأوهام. فقد افترض أن رحلة حتشبسوت المُسجلة في الدير البحري لم تكن إلى بلاد بونت، وإنما إلى أورشليم حيث قابلت الملك سليمان! ويقرأ نقوش الدير البحري التي تؤرخ لرحلة بونت باعتبارها توثّق رحلة أورشليم!!

ولإثبات وجهة نظره، قام بتحريف النصوص الهيروغليفية وقلب معناها. يُسجّل أحد النصوص حديث الإله آمون إلى الملكة حتشبسوت، ويفتخر فيه الإله بأنه كان سبباً في نجاح بعثتها إلى بلاد بونت، لكن فليكوفسكي حرّفه، مدعيا أنه لم يكن سوى حديث الملكة حتشبسوت إلى نفسها، وهو يعمد بذلك إلى:" قلب مضمون النص بدافع الغرض

الخبيث"(12). كما اقتطع من نصوص الدير البحري عبارة تردّدت على لسان المصريين، الذين شاهدوا ضخامة كميات البخور القادمة من بونت، وأكّدوا فيها أن هذا الإنجاز العظيم لم يحدث منذ بداية الخليقة.

لو ظلت هذه المقولة في سياقها لن تخدم ادعاءات فليكوفسكي، لذلك سارع بنسبها إلى حتشبسوت نفسها، وادّعى أنها قالتْها عندما شاهدتْ قصر سليمان وانبهرت بما يحتويه(13). وفى إطار حماسه المُفرط تناسى فليكوفسكى أن الزمن ليس العائق الوحيد أمام افتراضاته، إذ أن هناك فوارق عديدة على مستوى التفصيلات نفسها، على رأسها أن حتشبسوت لم تخرج أساسا مع رحلة بونت، بينما تؤكد القصص الدينية أن بلقيس ذهبت الى سليمان بنفسها، وهذا الفارق كفيل بنسف هذه الفرضيات الوهمية من أساسها.

غير أن المؤلف لايتأثر بهذه التفصيلات فيمتد بقراءاته المغلوطة للنقوش، ويزعم أن تحتمس الثالث سطا على ثروات بني إسرائيل، ويستحضر أدلة مزعومة من نقوش الكرنك، يرى أنها تُقدّم وصفاً تفصيلياً للثروات المنهوبة:" ومن الممكن التعرف على القطع قطعة بقطعة من مذبح وآنية هيكل سليمان على حائط الكرنك"(14)، ويُفصّل أكثر:" وفي نقوش جدار معبد الكرنك لدينا معلومات مُفصّلة وممتازة لأواني وأثاث هيكل سليمان، وهى أكثر تفصيلاً من ذلك النقش الوحيد الموجود على قوس تيتوس في روما، والذي يُظهر بضعة شمعدانات وبعض الآنية المسلوبة من الهيكل الثاني، وجلبت إلى عاصمة الرومان بعد ألف عام فقط من نهب المعبد الأول على أيدى المصريين"!!(15)

هكذا يصبح نهب المعبد على أيدى المصريين حقيقة مُسلّم بها، تأتي كجملة عابرة في نهاية فقرة مُلغّمة، لتعطى انطباعاً بأنها لا ينبغي أن تناقش. ادعاءات فليكوفسكى عديدة ومتنوعة، لايُمكن الحديث عنها في جزء من فصل بكتاب، إذ أنها تحتاج الى جهود عدد من

العلماء للرد على ما ورد بها وبأسلوب منطقي. والنماذج السابقة مجرد أمثلة سريعة للكشف عما وصل إليه المغامرون في ادعاءاتهم. فليكوفسكى الأكثر جرأة كان أيضا الأكثر وقاحة، فقد وصل إلى حدود غير مسبوقة، بتزييفه نقوش الدير البحرى والكرنك، واستخدامها في محاولة إثبات تفسيرات توراتية مشكوك بصحتها، رغم أن هذه النقوش قد قرئت من قبل بواسطة عشرات العلماء المصريين والأجانب الذين اتفقوا على ماورد بها، مما يعني أنها لا تحتمل أية تفسيرات مغايرة.. أو مغامرة.

إخناتون ويوسف

الحديث عما يجري في ساحات خارجية يأتي غالباً مُذيّلاً بحديث آخر عن حتمية اليقظة، لكن الأمر كله سرعان ما يتحول إلى عبث، لأن الواقع يُثبت أن الجمهور الغربي ليس الوحيد الذي يحتاج إلى عملية غسيل مخ، تُزيل ما رسخ بقناعاته من معلومات مزيفة، ففي الداخل أيضاً يتم التكريس لمعلومات تحتاج إلى مراجعة، ولا يكتسب الأمر خطورته فقط من أن المروجين والمتلقين مصريون، لكن من أن دار النشر تكون أحيانا مؤسسة عامة، يُفترض أن تضع التصدي لهذه الأفكار على رأس أولوياتها، غير أنها بدلاً من ذلك قامت بترويجها مما أكسبها شرعية لا تستحقها!

في كتابه" إخناتون" الذي صدر عام 1997 عن الهيئة المصرية العامة للكتاب، أفرد الدكتور سيد كريم صفحاته للحديث عن هذا الملك الملغز، وإضافة إلى المعلومات التقليدية التي أصبح الكثيرون على دراية بها، تضمن الكتاب معلومات بالغة الغرابة تمضي في سياق الربط بين النبي يوسف ويويا والد الملكة تي زوجة أمنحتب الثالث وأم إخناتون. ورغم أن الفكرة ليست جديدة وهناك محاولات متتابعة لترويجها، إلا أن المؤلف تعامل

معها باعتبارها معلومة مؤكدة، وليس بوصفها فرضية تحتمل النقاش، وقال:" وكشفت الأبحاث التاريخية الحديثة أن يويا وتويا ما هما إلا سيدنا يوسف وزوجته إسنات ابنة كاهن أون"(16). ما هى هذه الأبحاث؟ وكيف يُمكن التعامل معها بهذه الثقة رغم المعارضات الشديدة التي تواجهها؟ سؤالان لا يجدان اجابة في صفحات الكتاب، الذي تعامل مع المعلومة باعتبارها بديهية، وفي سياق حديثه عن الملكة تي ومسئوليتها عن نزاع نشب بين كهنة معبد آمون والعائلة الملكية، أشار د. كريم إلى أن تي:" أرسلت إخناتون منذ طفولته للالتحاق بمعبد أون بعيداً عن كهنة معبد آمون بطيبة، وفي معبد أون بهليوبوليس تشبّع بعقيدة توحيد رع، التي كان يؤمن بها جده النبي يوسف"!! (17). وهكذا تم إحلال النبى يوسف محل يويا بجرة قلم دون أية أسانيد وبطريقة سلسة، وهو ما يعتبر كارثة في حد ذاته، لأن وضع المعلومة في هذا السياق، يوحي لجمهور لا يملك ثقافة تاريخية كافية بأنها مُسلّمة لا تحتمل النقاش. مع أن المؤلف كان يمكن أن يشير إلي الجدل الذي أثير حولها على مدار سنوات بين مؤيديها ومعارضيها، ويترك للقارئ بعدها حرية اختيار ما يقتنع به.

لم يفعل الدكتور كريم ذلك، واكتفى على ما يبدو بما أورده في صفحات سابقة، خلال حديث استهلالي عن العلاقة بين يويا ويوسف حين قال:" شخص واحد في المراحل التاريخية حصل على لقب أبى الفرعون، الذي نسبه سفر التكوين بالتوراة للنبي يوسف عليه السلام، وتداعت الأفكار في ذهني، وبالبحث حاولت أن أجد علاقة بين هذه التسمية وبين اللقب الذي حصل عليه يويا وزير أمنحتب الثالث في الأسرة 18". وجهة النظر السابقة تتفق مع رأى أحمد عثمان الذي أشار في كتابه" غريب في وادى الملوك" إلى أن لقب:" أبو الفرعون الوارد فى التوراة هو نفسه اللقب المصرى القديم " ات- نثر "، وبهذا

اعتبر أن كلمة نثر تعني فرعون رغم أنها تحمل معنى" إله" أو" مُقدّس "، مما يجعل الترجمة الصحيحة للقب هى "الأب المقدس "، وهو لقب كان يطلق على الكهنة(19). وقد كان هذا اللقب يُطلق بالفعل على والد زوجة الملك فى عهد الدولة القديمة وأوائل عصر الانتقال الأول(نحو ثمانية قرون قبل عصر يويا)، غير أن التفسير الخاطىء أكثر ملاءمة لعثمان والدكتور كريم، لأنه يتيح لهما فرصة الوصول إلى استنتاجاتهما، رغم أن استخدامه بهذه الدلالة لم يتجاوز حدود عصر الانتقال الأول، وعندما عاد للاستخدام في عصر الدولة الحديثة حمل معنى دينيا:" وقد ورد بهذا المعنى في ألقاب ما لايقل عن أربعين موظفا من كبار موظفى عصر الأسرتين الثامنة عشرة(التى عاش خلالها يويا) والتاسعة عشرة، ولم يكن هؤلاء الموظفون آباء لزوجات الملوك الذين عاصروهم"(20)، وبهذا تنتفي صحة افتراض الدكتور كريم، بأن يويا هو الوحيد الذي حصل على هذا اللقب خلال المراحل التاريخية، وبدلا من البحث عن أسانيد تاريخية وأثرية تدعم وجهة نظره، يعود المؤلف إلى التوراة لاستكمال أحداث القصة في جمل مختزلة، تصل به إلى نتيجة:" فلابد أن هناك علاقة بين النبي يوسف و يويا، وبالبحث تأكد لي أنه في 12 فبراير 1905 اكتشف عالم الآثار الانجليزي تيودور ديفيز في وادي الملوك، بالقرب من مقبرة رمسيس الثاني عشر وتحتمس الرابع مقبرة صغيرة، تتكون من غرفة واحدة بلا رسوم على الجدران، واتضح أنها مقبرة يويا وزوجته تويا، وكانت المقبرة سليمة ولم تمتد إليها يد عابثة، سوى أنه على ما يبدو وبعد دفن المومياء مباشرة دخلها سارق، ويبدو أن كل ما أخذوه هو الخاتم من إصبع يويا"(21). أين هى الواقعة التي بنى عليها الكاتب استدلاله؟ وما العلاقة بين الكشف القديم والاستنتاج الحديث؟ وهل يُمكن الربط بين شخصيتين تمضي كل منهما في سياق مختلف، لمجرد أن هناك بعض أوجه تشابه شكلية يمكن أن تتوافر في عشرات الأشخاص

الآخرين؟ لقد أكد علماء كثيرون أن محاولات الربط بين يوسف ويويا تقوم على قرائن متهافتة، تعتمد في أحوال كثيرة على التخمين، واستكمال عناصر القصة من حكايات التوراة التي لا يمكن- حتى في حالة صحتها- أن تُقدّم دليلا دامغا، على أن بطلها هو نفسه يويا. المشكلة أن الدكتور كريم أشار إلى أدلة دون أن يورد ولو بعضا منها، وهو أمر يُصادر حق القارئ في المعرفة والتفكير، وتحديد ما يوافق قناعاته الشخصية. لا يتوقف الأمر لدى الدكتور كريم عند حدود المادة المكتوبة، بل يمتد عبر كلام الصور، الذي يضفي على وجهة نظره مصداقية لا تستحقها. فكل الصور التي ضمّت يويا وتويا صاحبتها كلمات تشير إلى أن الصورة ليويا(يوسف) وتويا(اسنات)!

يمضي الأمر في النسق نفسه، عندما يحاول المؤلف إيجاد صلة بين إخناتون والنبي موسى، حيث يشير إلى أن يويا أنجب من تويا المصرية ولدا أسماه عانه، وهو الذي ينتسب إليه النبي موسى، ثم يعود في صفحات لاحقة ليعتمد على التوراة، في محاولة إيجاد علاقة بين إخناتون وموسى، ويقول:" يذكر كتاب الأنبياء في التوراة تلك العلاقة بقوله: ذهب رجل من بيت لاوي وأخذ بنت لاوي(أخي يوسف)، فحبلت وولدت ابنا، وهذا الابن هو كليم الله موسى، وبيت لاوي هم أحفاد يوسف"(22). لكن حتى الرجوع إلي التوراة لا يُعتبر كافيا لإثبات فرضية ما، فالاقتباس السابق ينصب على العلاقة بين يوسف وموسى، دون أن أية إشارة إلى علاقة مع إخناتون أو حتى أي ملك آخر من ملوك مصر القديمة، ولأن المؤلف يعرف ذلك فقد ذيّل ما سبق ببعض فرضيات عالم النفس اليهودي سيجموند فرويد، قال فيها إن موسى تلقى علومه في معبد أون، الذي تخرج منه إخناتون. وحتى هذه الاقتباسات ركّزت على العلاقة بين عقيدتي إخناتون وموسى، دون أن تشير إلي وجود تطابق او حتى صلة قرابة بين الشخصين.

ركّز الدكتور كريم في كتابه السابق على موضوع واحد ومرحلة زمنية ملتبسة، لكن كتابه" لُغز الحضارة المصرية" تطرّق إلى مناطق شائكة عديدة. تاريخيا، يُعتبر الأخير أقدم من كتاب" إخناتون" بعام، لكنهما اشتركا فى الصدور عن الهيئة نفسها، إضافة إلي اشتراكهما في التركيز على المراحل الزمنية التي تحظي بالاهتمام، وأيضا تكون أكثر عرضة لمحاولات السطو. ربما ينبع ذلك من أن الكُتّاب المشغولين بقضايا تاريخية، يرغبون غالبا في تقديم جوانب تحمل مُقوّمات إبهار خاصة تجتذب المزيد من القراء، لكن المشكلة أن اختيار هذه المناطق ثم التعامل معها باستخفاف يخدم مصالح أخرى على حساب الحقيقة، والنماذج عديدة، ففي سياق حديثه عن عقيدة التوحيد، يشير الدكتور كريم إلى ظهور نظريات حديثة، تسببت فى أكثر من ضجة بالأوساط العلمية، فيما يخص نزول عقيدة التوحيد متكاملة لأول مرة في تاريخ البشرية على أرض مصر، ويضيف:" حاول البعض تأكيد العلاقة بين ذلك التاريخ وتاريخ الطوفان العظيم الذي أغرق قارة الأطلنتس(القارة المفقودة)، كما وجدوا في أساطير الأطلنتس القديمة ما يُفسر انتقال عقيدة التوحيد إلى مصر، عن طريق كهنة معبد الشمس في الأطلنتس"(23). الأمر فى العبارات السابقة يمضي في سياق افتراضات أثارت ضجة، وهى إشارة كافية لتنبيه قارىء يحمل درجة لا باس بها من الثقافة إلى ضرورة الحذر، غير أن المؤلف يعود بعدها بفقرات ليتحدث بحسم:" لقد أجمعت تلك البحوث أخيرا بما يقطع الشك، على علاقة غرق الأطلنتس بحضارة مصر الفرعونية، وتحديد تاريخ القارة المفقودة الذي وُجد أنه يتفق مع ما ورد فى مخطوطات أون"(24). أية بحوث وأية تأكيدات تلك التي تُثبت أن الإنجاز المصري القديم كله منقول من حضارة أسطورية؟ السؤال السابق لا يحمل نزعة شيفونية بقدر ما يطرح استفسارات حقيقية عن مدى إمكانية استخدام الأسطورة غير المؤكدة في تفسير

التاريخ الثابت؟ لابد أن نشير إلى أن النموذج السابق أمر هامشي، في سياق الموضوع الذي نبحثه، لكنه يصلح كقرينة على أن البعض يُطلق عبارات تحمل دلالات متفجرة، دون الاهتمام بالبحث عما يدعمها من أسانيد أو حتى يمنحها منطقا شكلانيا.

وفق الأسلوب نفسه، يتحدث المؤلف عن لغز الهرم الأكبر، ويشير إلى قيام عالم الرياضيات البريطاني جون تيلور بدراسة الهرم الأكبر عام 1859، على ضوء ما ذكر علماء اليهود فى كتبهم السرية!! يُمكن تبرير التطرق إلى هذه الجزئية، بأن الدكتور كريم يستعرض بعض ما ارتبط بالهرم الأكبر من مغامرات بحثية، غير أنه يعود بعد عدة أسطر ليؤكد على لسانه:" كان للعلّامة نيوتن دور هام، في إثبات صحة كثير من نظريات الهرم الأكبر، وعلاقة الأبعاد بالزمن والرياضيات الكونية، التي ورد ذكرها في التوراة وكتب أسرار حكماء إسرائيل المقدسة "(25)! بافتراض حسن النية، يُمكن أيضا تمرير العبارات السابقة على اعتبار أن الهرم تراث إنساني يحظى باهتمام حكماء جميع الأديان، ولنكن أكثر ادعاء للموضوعية، فنؤكد أنه لا داعى إطلاقا لتفسير كل الأمور وفقا للمنطق التآمري، لكن كل هذا ينهار عندما يستعرض د. كريم بحوث البريطاني دافيد سون، التي صدرت عام 1924، في كتاب حمل عنوان" الرسالة المقدسة للهرم الأكبر". زعم مؤلفه أن الهرم كان مرصدا فلكيا كونيا، تم بناؤه على شكل مزولة ضخمة، تعمل كواسطة للتخاطب مع السماء، وأن دورة السنة الشمسية وعلاقة تحركها بقبة السماء تنقل رسالة التنبؤات من السماء إلى الهرم، ليحتفظ بها مسجلة على شريط التنبؤات. الغريب أن الدكتور كريم لم يلحظ أن معظم التنبؤات الرئيسية التي سجلها الهرم المصري- وفقا لادعاءات دافيدسون- كانت خاصة بأحداث التاريخ التوراتي(!!)، حتى لو تم تغليفها بنبوءات تخص عصرنا الحديث. فأول صفحة فى التاريخ الهرمي الوهمي(!) انطلقت من بدء الحياة

بعد الطوفان العظيم، عام 9500 قبل بناء الهرم. غير أن الدكتور كريم يجد أن ربط دافيد سون هذا الحدث بطوفان نوح لا ينبغي أن يمر دون تعقيب، فيوضح:" ووصفه(دافيد سون) بأنه طوفان نوح، بينما يُرجّح كثير من العلماء أن ذلك التاريخ ينطبق على تاريخ غرق قارة الأطلنتس، وهجرة حكمائها وكهنتها إلى مصر"(26). في ظرف كهذا لا نملك تعليقا إلا بعض علامات التعجب!! لأن قارة اطلنتس التي لايوجد حتى الآن دليل على وجودها، تحيلنا بحواديتها إلى قصة أوري والكائنات الفضائية التي أوردناها فى فصل سابق، لنجد أنهما يمضيان في النسق ذاته.

يواصل المؤلف استعراض النبوءات:" وتشير نقطة التحول إلى عام 1360 ق.م وهو تاريخ نزول رسالة التوحيد على إخناتون، وتستمر الرسالة أو الممر فيما أُطلق عليه منطقة الحواجز أو الصمامات الجرانيتية، التي كانت تُستعمل لغلْق الممر، وتنتهي عند بداية الممر الصاعد، وتشير بداية الممر إلى 1280 ق. م، وهو تاريخ خروج اليهود من مصر ونزول الرسالة على النبي موسى، وقد حدد تاريخ الخروج باليوم الرابع من شهر إبريل. ويرمز انسداد ممر الدخول إلى العقبات التي واجهت عقيدة التوحيد التي نادي بها إخناتون، واستمرت 142 سنة حتى نزلت رسالة التوحيد مرة أخرى في التوراة. كما يدل انخفاض الممر الصاعد الذي لا يزيد ارتفاعه على متر واحد، ويُضطر الإنسان إلى عبوره منحنيا، إلى العقبات التي واجهت رسالة موسى من اليهود أنفسهم، وقد سجّل الممر تاريخ سنوات التيه، والأحداث الهامة التي ارتبطت بالعقيدة اليهودية، منها إقامة عرش سليمان عام 950 ق. م. وزلزال القدس الكبير الذي حطم الهيكل"!!! الغريب أن الدكتور كريم اعتمد على كتابات المغامرين الأجانب، دون ان يُفكر فى سؤال أحد المتخصصين المصريين في مجال الآثار عن مدى صحة وجود مثل هذه النبوءات من عدمها. لكن البعض يُفضّل إعادة

استهلاك الادعاءات بوصفها حكايات مثيرة تحقق رواجا، وليس مُهمّا أن يكون ثمن هذا الرواج هو التكريس لبعض محاولات السطو على حضارتنا.

بالتأكيد لا يمكن استعراض كل ما ورد في كتابات الدكتور كريم، مثلما لم يكن ممكنا استحضار كل ادعاءات فليكوفسكي، لأن الأمر يحتاج في هذه الحالة إلى مؤلفات متتابعة، غير أن النماذج المُقتبسة كافية لتوضيح وجهة نظر كل منهما، بما يخدم هدفنا الأساسي في هذا الفصل، وهو إثبات أن المغامرات التاريخية لا تتوقف عند حد. وأن بعض مثقفينا يُقدّمون للصوص الحضارة أدلة جاهزة على ادعاءاتهم، والأغرب من ذلك أن ترويجها يتم عبر مؤسسة رسمية، كان ينبغي أن تُصدر الكتب التي ترد على هذه الادعاءات، لا أن تتولى عملية الترويج لها.

موسى و إخناتون(28)

ربما لا تكون استنتاجات أحمد عثمان مفاجئة لنا رغم غرابتها، لسبب بسيط هو أن ما تضمّنه كتابه" الأصول المصرية في اليهودية والمسيحية"، سبقت مناقشته على أصعدة عديدة، وأثار جدليات احتدمت حدتها، خاصة تلك المواجهة التي قام بها الدكتور عبد المنعم عبد الحليم على صفحات جريدة أخبار الأدب خلال عام 1997، وتصدى فيها لما يراه عثمان من تطابق بين شخصيتي النبى يوسف ويويا وزير أمنحتب الثالث، وقد استمر الجدل حول هذا الموضوع طويلا.

صدرت الطبعة العربية لكتاب عثمان عام 1999 عن مكتبة الشروق، ليكون امتدادا لمحولات ربطه بين مزيد من الملوك المصريين وأنبياء بني إسرائيل، فهو يرى أن إخناتون والنبى موسى ليسا شخصين منفصلين، كما أن تحتمس الثالث هو نفسه النبي داود، وبعيداً

عن جدل المتخصصين الذين يمتلكون منطقا علميا وأدلة أثرية يكفيان لطرح وجهات نظر مغايرة، فإننا نتدخّل في هذه القضية، من زاوية تعتمد على المنطق، في مناقشة المنهج الذي سار عليه عثمان، خاصة فيما يتعلق بإخناتون والنبي موسى.

إن محاولة الربط بين النصين الديني من جانب والتاريخي / الأثري من جانب آخر، تُفرز اشكالية ذات بُعدين، لكنهما يمثلان وجهين لعملة واحدة، البُعد الأول يتبناه المعارضون، ويقوم على أن هذا الاتجاه (خاصة فيما يتعلق باستنتاجات عثمان) يُجذّر لوجود بني إسرائيل في نسق الحضارة المصرية، بما يدعم مزاعم صهيونية تحاول ترسيخ ذلك عبر طرق عديدة، وهو ما يجعل عثمان مواجها في أوقات عديدة بتهمة العمالة. أما البُعد الثاني فيقتنع به أحمد عثمان، حيث يؤكد أنه يتولى مُهمة الرد على هذه المزاعم، عن طريق إثبات أن ملوك مصر هم أنبياء بني إسرائيل، مما يجعل مصر القديمة هى أصل العقائد! غير أنه حتى مع التسليم بحسن نية الباحث، فإن منطقه يُكرس للمزاعم ذاتها، لأن الخلط بين السياقين(الأثري والديني) لجعل عدد من ملوكنا هم ذاتهم أنبياء بني اسرائيل، أمر يدعم ادعاءات تغلغل بني اسرائيل القدامى في حضارة مصر القديمة، وهو أمر يمكن أن يتناوله كل طرف بعد ذلك من زاوية مختلفة، وإذا كان الأصل لدينا هو مصر القديمة فإن الكيان الصهيوني الحالى يعتمد على ادعاءات وجود مُتخيّل ضارب في القدم، تجري محاولات إحيائه عبر طرق عديدة(ولسنا في حاجة للاستشهاد بمبررات قيام دولة، على أنقاض مملكة مُختلف عليها انقرضت في تاريخ سحيق)، ولو أن لرؤى عثمان ما يدعمها من دلائل وحجج لتقبلناها كأمر واقع، لكن حتى هذه الأدلة غير متوافرة.

يبدأ الباحث استنتاجاته باستعراض ما ورد في الكتب المقدسة و النصوص التاريخية والاكتشافات الأثرية، ونقول الكتب المقدسة تجاوزا، حيث أنه اعتمد على التوراة غالباً

والقرآن أحيانا، ولسنا في حاجة إلى توضيح أن محاولة الربط بين الديني والأثري، تعني حتمية اعتراف الباحث ولو ضمنياً بصحة الطرفين، مما يعني ضرورة تطابقهما لأن الباحث المقتنع بكليهما، لكن ماذا يحدث إذا فوجئ الباحث بتعارض بينهما؟ ولأيهما يتحيز؟

واجه عثمان هذه المشكلة، عند محاولته لإثبات أن إخناتون هو نفسه النبي موسى، فعمد إلى تحوير كلا النصين الديني والأثري بما يخدم فكرته، ولجأ أكثر من مرة إلى التشكيك في دقة المعلومة التوراتية، خاصة فيما تعلق بمولد النبي موسى وإلقائه في الماء، أو فيما تعلق بعدد السنوات التي قضاها بنو إسرائيل في مصر. وإذا كانت حججه قد بدت منطقية في الجزئية الثانية، إلا أنه اعتمد في الأولى على الخيال أكثر من الوقائع المستمدة من علمي التاريخ والآثار. وهكذا نجده يرفض ما جاء في التوراة، مُشككاً في الكتبة الذين قاموا بنسخ وإعداد الكتب التوراتية، ويشير إلى وقوعهم في اخطاء عديدة(وهو أمر نتناوله بتفصيل أكثر فى فصل قادم)، وبعد أن يُجرى حساباته الخاصة، يتوصّل إلى أن مدة بقاء بنى إسرائيل في مصر تختلف عن المدة التي حدّدتها التوراة، ونتيجة لحساباته الجديدة يصل إلى أن فرعون الخروج هو رمسيس الأول، ولنترك الأخير مؤقتاً عائدين إلى إخناتون وموسى.

إن قصة الاثنين معروفة عن طريق النصين الدينى والتاريخى، وأية محاولة للربط بينهما ستواجه بتناقضات حادة، تجنّب عثمان الحديث عن معظمها، وبعد أن حاول إثبات أن ظروف الميلاد واحدة(في محاولة يشوبها كثير من الثغرات)، استعرض مساري حياة موسى وإخناتون، وانتهي الاستعراض دون تقديم أجوبة على أسئلة أساسية، منها: ما تفسيره لوجود اختلافات بين محطات أساسية في المسارين؟ لعل أهمها أنه اعتبر اختفاء إخناتون بعد عزله حدثا مماثلا لهروب موسى إلى أرض مدين بعد ان قتل المصري، وحاول إثبات فكرته بالتأكيد على أن إخناتون تعرض للنفي، وتوجّه إلى سيناء وعاش بالقرب من

سرابيط الخادم، حيث عُثر على تمثال لوالدته هناك، كما وُجدت دلالات على استمرار عبادة آتون في هذه المنطقة. غير أن هناك سؤالاً مهماً يطرح نفسه، وينبع من اختلاف موقع كلتا الحادثتين في مسار حياة صاحبها. لقد اختفى إخناتون بعد أن كان ملكا(أي أن الاختفاء يُعد نهاية)، بينما هرب موسى الذي تربّى في بلاط فرعون، وعاد بعدها ليستكمل النص الدينى مساره(أي أن الاختفاء كان في منتصف القصة)، فكيف يُبرّر ذلك؟ وإذا كان فرعون الخروج هو رمسيس الأول(1295- 1294 ق.م.)، فهل يعنى هذا أن إخناتون(1352-1336 ق.م) عاد للظهور مرة أخرى في النص التاريخي أو السياق الأثري (28)؟ وإذا افترضنا حدوث ذلك، هل يُمكن أن تختفى وقائع بهذه الأهمية من النقوش المصرية القديمة؟ الثابت أن هناك عقبة أساسية تُقوّض افتراضات عثمان، حيث توجد فوارق شكلية وموضوعية بين النصين الديني والتاريخي(الخيالي)، تجعل الربط بينهما فى سياق واحد شبه مستحيل، ويُمكن إجمال هذه الفوارق في عدة نقاط محورية:

- تشير القصة الدينية إلى أن النبى موسى عاش في بلاط الفرعون لسنوات قبل أن يهرب إلى أرض مدين، وبعد أن أمضى هناك أعواما عاد إلى مصر ليجد الفرعون نفسه مايزال على العرش. وهو مايُلغى أى احتمال لأن يكون رمسيس الأول هو فرعون الخروج، لسبب بسيط هو أن الأدلة الأثرية تؤكد أنه تولى الحكم وهو شيخ هرم، ولم يستمر فيه سوى فترة تتراوح بين عام وعامين)، وهو ما يدفع عن رمسيس الأول تهمة أنه فرعون موسى.

(لكن هنا تنبغى الإشارة إلى أن البعض حاول أن يُفرّق بين فرعون الاضطهاد وفرعون الخروج).

ـ لم تُشر النقوش الأثرية والتاريخية إلى عودة إخناتون للظهور بعد سنوات من اختفائه، وهو أمر ذو دلالة، خاصة أن إخناتون لم يكن ملكا عاديا، فرغم غيابه إلا أنه ظل حاضرا نتيجة الهجوم الضاري الذي تعرض له، ووصل لدرجة نعته بمهزوم آخت آتون.

ـ من المعروف أن إخناتون تربى في قصر أبيه أمنحتب الثالث، وليس رمسيس الأول الذي يرى عثمان أنه فرعون الخروج. كما أن الحقائق التاريخية تؤكد أن رمسيس الأول كان أحد القواد الذين ساهموا في محو الحكم الديني الذى أسسه إخناتون(29)، مما يعني أن الأول كان مجرد قائد في الجيش أثناء تولى الثاني للحكم، وهو أمر يشير إلى خطأ جوهري فى الاستنتاج الذي توصل إليه الباحث. حيث ربط بين قصتين توجد بينهما تناقضات تفوق بكثير أوجه الاتفاق. فإذا أضفنا أن الثورة على إخناتون كانت بسبب نظريته الدينية التي تبلورت قبل اختفائه، فإن هذا يضيف وجها آخر للاختلاف عن قصة النبى موسى، الذى اختفى وهو شخص عادي ثم رجع بالرسالة السماوية بعد سنوات.

يمكن أن نضيف اختلافا شكليا آخر، ويكفي أن نستحضر شخصية موسى كما تُظهرها الكتب المقدسة، وصورة إخناتون التي سجّلتها النقوش الأثرية، وأعتقد أن الاختلاف سيبدو شديد الوضوح، فالأول قوي البنية سريع الانفعال، بينما الثانى حالم شديد الضعف، حتى أن عدداً من علماء الآثار يرجحون أنه كان يعانى من أمراض عديدة.

لايجيب عثمان على هذه التساؤلات كلها لتبقى فرضيته مليئة بالثغرات المنطقية والعلمية. إضافة للسؤال المحوري عن مدى إمكانية الاستعانة بالتوراة كمرجع تاريخى. في الفصل التالي، سنكتشف أن القصص التاريخية بالتوراة لايمكن اعتمادها كمرجع موثوق به، لأسباب متعلقة بمدونيها والظروف التى جرى بها التدوين. ورغم ذلك اعتمد عثمان على التوراة حينما أراد، وانتقدها عندما كانت تقف عائقا أمام إثبات وجهة نظره!

فجأة وبعد مقدمات قليلة، يكشف لنا المؤلف في كتابه(إخناتون أبو الأنبياء) أن الملك المصري أمنحتب الرابع الشهير باخناتون هو نفسه أبو الانبياء إبراهيم عليه السلام!

ورغم ان هذه الفكرة مثيرة، تجعل القارئ ينجذب إلى صفحات الكتاب، إلا أن هذا القارئ سيكتشف تدريجياً أنها أقل الافكار إثارة، خاصة أنه لكي يتسنى للمؤلف إثباتها كان عليه ان يقلب سياق الأحداث رأساً على عقب. وهكذا أصبحت بدايات القصة الدينية الشهيرة هى نهايات القصة التي تخيّلها سعد عبد المطلب العدل. وضمن هذا النسق تتتابع الإثارة التي تشير إلى خيال شديد الخصوبة، حيث يفترض المؤلف أن عملية التضحية التى كان محورها إسماعيل عليه السلام لم تحدث في الجزيرة العربية، بل في مصر، وتحديداً في الموقع الحالي لجامع ابن طولون! حتى هذه المفاجأة تتراجع أمام أخريات أكبر منها بكثي، أهمها أن إخناتون(الذى هو ابراهيم عليه السلام) هو نفسه جلجامش صاحب الملحمة البابلية الشهيرة، ليس هذا فقط بل إنه هو نفسه حمورابي!

إثارة تفوق أى خيال، سبق أن حاول الربط بين ملوك مصر القديمة والأنبياء، مع أن فكرة الربط بين إخناتون وابراهيم عليه السلام لم تكن جديدة، إذ كانت محورا لكتاب صدر في باريس قبل سنوات، غير أن مؤلف الكتاب المصري تفوّق على الجميع، بل أنه أكد في مقدمته أن مؤلفى الكتاب الفرنسي سرقا فكرته، بعد أن تحدث عنها في مجلة أسبوعية مصرية، غير أنهما خيبا آماله:" فقد جاءت كتاباتهما في صورة خربطة مترنحة لا تصبو إلى ما يمكن أن نسميه علماً"(30).

أمنحتب الثالث والد إخناتون كان نقطة انطلاق مناسبة للمؤلف، الذي أكد أن الآسيويين كانوا ينطقون اسمه(نب معت رع) وتعني: نمرور، أي نمروذ، وفي موضع آخر من الكتاب ذكر المؤلف أن التخريج العبرى لاسم امنحتب الثالث هو تارح، وهو اسم والد ابراهيم حسبما ورد في التوراة.

وهكذا حل المؤلف- في سطوره الأولى- مشكلة شخصية النمرود، التي تلعب دوراً أساسياً في سياق القصة الدينية، لكن هذا الحل كان سبباً في مشكلات أخرى، نتجت عن عدم وجود دور مواز لأمنحتب الثالث، يتماشى مع دور النمرود في القصة الدينية المعروفة، سواء في القصة التاريخية الحقيقية، أو حتى بتلك التي افترضها المؤلف.

حدّد الكتاب شخصية النمرود ثم بدأ في التأسيس عليها، فالأصنام التي حطّمها إبراهيم/ إخناتون هي تلك التي كانت موجودة في معبد والده امنحتب الثالث في البر الغربي بالأقصر، ولم يصل الينا من هذا المعبد سوى تمثالي ممنون:" التمثالان كانا على مدخل المعبد الجنزي لأمنحتب الثالث- النمروذ- ولما كان إخناتون في صباه وبداية من مرحلة الشباب والنضج، قام هو وأتباعه بالتعدي بالهدم والتكسير والتخريب لكثير من الآثار والتماثيل التي كانت تُمثّل الوثنية في نظرهم (...)ما عدا واحداً منهما، وهو الذي كان قائماً طوال الفترة التاريخية من عهد إخناتون إلى القرن الثاني الميلادي"، وبعد أن كشف المؤلف عن شخصية النمرود كان لابد أن يتحدث عن إخناتون / إبراهيم، ويبدأ رحلته بتحليل اسم إبرام، مؤكداً أنه يتكون من كلمتين مصريتين: إب ومعناها الجواد، ورام تعني رجل، وهكذا يصبح الاسم مركبا، وترجمته: رجل على الجواد أو الفارس، و(تخيّل) الكاتب ما حدث عند عودة امنحتب الثالث/ نمرود، واكتشافه كسر التماثيل:" فلما عاد الملك الإله إلى عاصمته، فوجئ بهذا المصاب، فلما سأل على الفاعلين، لم يجد إجابة سوى أن هناك

فارساً مُتخفياً مُتنكراً أو مُلثماً قاد هذه المؤامرة". هنا نجد أن المؤلف تناسى فارقاً مهماً بين القصة الدينية والقصة(المُفترضة)، ففي الأولى كانت الاشارة إلى اسم الفاعل بوصفه علما(فتى يقال له إبراهيم)، ولأن الفاعل أصبح معروفاً تم إلقاء القبض عليه، ليمضى نسق الأحداث على النحو المعروف: النار التي أصبحت برداً وسلاماً، والمحاورة التي بُهت في نهايتها الذي كفر، بينما في القصة التاريخية (الخيالية)، ظل الفاعل مجهولاً- إلا لقلة من أتباعه- لأن اسم ابرام حسب التفسير السابق، لم يكن دالا على شخص بعينه، بقدر ما كان وصفاً يُمكن أن ينطبق على كثيرين، لهذا فقد اختل التوازي بين القصتين (الدينية والُمتخيلة) من جديد، وربما يكون ذلك هو ما دعا المؤلف إلى عدم الاشارة إلى المحاورة رغم أهميتها في القصة الدينية. استبعدها المؤلف من حيز اهتمامه واستمر في تحليلاته للأسماء، لتحمل كلمة آتون ذات المعنى المعروف معنى له دلالة مختلفة:" فكلمة آتون تحوّلت إلى آدون في العبرية وتعني: سيد، أستاذ، مولى، رب، بعل"، إذن فالكلمة في النهاية لا تُشير إلى الشمس، لكنها تدل على الربّ! ويترك المؤلف آتون ويتناول كلمة إخناتون بالتحليل ليصل إلى انها تعني : خليل الله أو خليل الرب!

الذين يقرأون التاريخ المصري، يجدون أن حكم إخناتون انتهى- كما سبق أن أشرنا- نهاية غامضة، تعرضت بعدها مدينته للتدمير، وتم تشويه آثاره. هذه هى المعلومات التاريخية التي نتجت عن الدراسة الأثرية. أما المؤلف فلديه معطيات أخرى، تتجاوز نقطة النهاية الغامضة التي تُمثل له بداية رحلة طويلة، خرج خلالها إخناتون إلى الجزيرة العربية ثم أرض كنعان، في مسار يُناقض المسار المعروف لرحلة النبي ابراهيم، وقبل هذه الرحلة يحدث أمر غريب:" فقد طلب إله إخناتون- آتون أو رع- من الملك أن يُضحى بابنه ووحيده ووارث عرشه المسلوب طبعاً، نفر نفرو اتون كيا، أو مري وع ن رع ". كيف

توصل المؤلف إلى ذلك؟ لا نعرف. وما هي الأدلة الأثرية التي جعلته يرى أن هذه الواقعة حدثت في موقع جامع أحمد بن طولون الحالي؟ لا توجد إلا إجابة ترجيحية، حيث أن المكان يُعرف حالياً باسم قلعة الكبش، دون سبب واضح لهذه التسمية!! وبناء على فرضيات الكاتب نصل إلى النتيجة :" النتيجة.. يتغيّر اسم الفتى وارث العرش، من نفر نفرو اتون مري كيا أو مري وع ن رع إلى اسم عجيب هو إسماعيل. ولا غرابة، فكلمة إسماعيل كلمة مصرية مركّبة من مكونين: اسماع أو سماع وتعني كما يقول المعجم: القربان أو الأضحية، أما المكون إيل فتعني إله بالعبرية ".

وعند عودته لمسار الرحلة يشير المؤلف إلى حجر جرانيتي أسود عُثر عليه بالعريش:" على درجة عالية من الأهمية، وبالرغم من ذلك لا يكاد أحد يذكره، وإذا ذكروه فإنما يستشهدون به في غير موضعه، جريا وراء تزوير جديد لأحداث تخص موضوعاً بعينه، حتى تنصرف الأنظار عنه ". نقل المؤلف سعد العدل النص المدون على هذا الحجر من كتاب" عصور في فوضى"! (ها هو كتاب فليكوفسكى يظهر كمرجع لكتاب مصري، صحيح أن المؤلف المصرى ينتقده، لكن المشكلة أنه يستقى المعلومات منه لإثبات فرضيته). ويرى العدل أن فليكوفسكى حاول:" أن يلوى رقبة النصوص، لتصف أحداث خروج الإسرائيليين من مصر في عهد النبى موسى، وهى محاولة مكشوفة- كما قلنا- لإبعاد هذا النص عن بلوى عظيمة مرت بالبلاد، تمثّلت في ثورة عنيفة اجتاحت العاصمة، ومنعت من في القصر الملكي من مغادرته لمدة تسعة ايام". يتحدث حجر العريش عن مجموعة من المغادرين لمصر، يرى العدل أنهم ليسوا سوى إخناتون/ إبراهيم مع أتباعه، ويحدد اتجاه الرحلة، إنه.. باخيت:" أما كلمة باخيت أو باكيت أو بكة المضيئة في بلاد النور التي هى الحجاز، وكلمة حجاز كلمة مصرية أيضاً، فالمعنى المعجمي لها:

النور أو بلاد النور، ولأول مرة في تاريخ الدراسات الإسلامية نتعرف على أصل كلمة المدينة المكرمة في القرآن مكة، ويزول العجب الآن، وعندما أطلق عليها القرآن اسم بكة التي هى باخت أو باكيت أو بكت، هى بكة التي حار فيها كل الباحثين من قبل"، ويفترض الكاتب أن سبب الاتجاه إلى هذه الأرض المقفرة، هو اتفاقية وقّعها كهنة آمون مع اخناتون، ونصّت على أن يغادر هو وأتباعه إلى خارج حدود المملكة المصرية، والجزيرة العربية كانت خارج هذه الحدود(إ ذن فقد توجّه إخناتون/ إبراهيم إلى هذا المكان مضطراً، وليس بناء على أمر إلهي حسبما تذكر القصة الدينية!!)، ولكي يُثبت وجهة نظره يدحض المؤلف وجهة نظر تبناها فريق آخر من المُغامرين، وأكد أن يهود الجزيرة لم يذهبوا إلى هذا الموقع بناء على تكليف موسى وهارون لمحاربة العماليق كما يرد في التوراة، بل هم أتباع إخناتون/ ابراهيم، الذين وفدوا إلى هذا المكان وتركوا بصماتهم عليه.

الحجاز- حسب رؤية المُؤلف- لم تكن محطة نهائية، بل مُجرّد نقطة انتقالية.. إلى بابل! وهو أمر كان محدداً من قبل، حين زار الآسيوي ابشي إخناتون لمبايعته واتبّاع ديانته(لا بد أن نُشير هنا إلى أن جدران مقابر بني حسن بمحافظة المنيا، ضمت نقوشاً تسجل زيارة ابشي، ويُرجّح العلماء أن هذا النقش يعود إلى عصر الدولة الوسطى، أي قبل عصر إخناتون بزمن طويل، واعتقد البعض أن ابشى هو النبى إبراهيم نفسه، خلال زيارته لمصر وهو ما يرى العدل أنه غير صحيح). وفق خيال المؤلف، عاد هذا الآسيوي إلى بلاده، ومهّد لحكم ملك جديد(هو إخناتون) بملاحم تُمجّده، ومن بينها ملحمة جلجامش! هنا يأتي دور المفاجأة الجديدة المذهلة، فإخناتون هو جلجامش(وكله بالأدلة!)، حيث يشير العدل إلى أن اسم جلجامش مُكوّن بدوره من كلمتين، تعنيان" خليل الله"، ليس هذا فقط، بل إن ملحمة جلجامش- في مفاجأة جديدة- تُعتبر مرثية لتوت عنخ آمون بعد وفاته! أما صراع

جلجامش وأنكيدو ضد العدو اللدود خمبابا أو حواوا، فليس إلا صراع استعادة عرش مصر من حور محب!!

ربما يدفع أحد المتخصصين بعدم منطقية هذا الربط، لوجود فجوة زمنية تُشكّك في وجود الملكين بعصر واحد، وهو ما يدعو المؤلف إلى مزيد من الافتراضات، فيقول:" هذه التواريخ السابقة والمدد الزمنية لحكم أسرات في الرافدين موجودة في المراجع كلها(...) والواضح رغم التعليق عليها بكلمة أسطوري أنها لا بد أن تُدرج في كتب التاريخ، فهل هذا لهدف العلمية في البحث أو لهدف آخر؟ أو ربما يكون للتهوين على الدارس عندما يلعب بمائتين أو ثلاثمائة أو أربعمائة من السنين، فلا يكون لافتاً للنظر عند العبث بتاريخ الملك المعين إياه. أم ماذا وراءهم غير ذلك من تبريرات؟". إنها المؤامرة تُطل من جديد لتنضم إلى سلسلة من المؤامرات، ستكون في حالة عدم كشفها عقبة تعوق افتراضات المؤلف، وأي اختلاف عن هذا سيكون من قبيل:" تلك المحاولات اليائسة لتزوير التاريخ"، وهو ما يكشفه العدل بسهولة:" حتى لو صنعوا لها وثائقها لأن وثائق الزور عرجاء".

أقام جلجامش / إخناتون دعائم مملكة بابل، وجعل أسوار مدينة أوروك أكثر ارتفاعا، ونجح في جعل البابليين يتّبعون مذهبه التوحيدي، غير أن هاجسه المستمر ظل يدور حول كيفية نشر دعوته العالمية، ولأن الكتابة المسمارية بلغتيها السومرية والأكادية كانت تتسم بالمحلية، رأى ان الحل هو استعمال اللغة العبرية كلغة رسمية للمحادثة!! ولكي لا يتعرف الحُكام المصريون على الشخصية الحقيقية للملك المُتنكّر، رأى إخناتون أن يتّبع بعض الإجراءات الأمنية، فأقام الأسوار حول مدنه، وارتدى قناعاً يخفي حقيقته! ونقل كل ملامح الحضارة المصرية إلى بابل، ثم تبنّى حركة كبرى لعبرنة الأشياء! ومن هنا جاءت

تسمية أتباعه بالعبرانيين(لا العبريين)، ومن بين ما جرى ترجمته كان اسم الملك نفسه، الذي تحول إلى حمورابي، وهي كلمة تحمل بالعبرية نفس معاني إخناتون وجلجامش، كما حول اسم الملكة نفرتيتي إلى سارا، أما زوجته الثانية كيا فقد أصبحت هاجر!! ورغم كل هذه الاحتياطات انكشفت شخصية حمورابي، واجتاحت مملكته قوات تنتمي لأربع إمبراطوريات(مصرية، حيثية، ميتانية، وعيلامية)، وتم تدمير مدنه، وفر بعض أتباعه تجاه الخليج العربي ليكونوا شعوب البحر، بينما اتجه آخرون إلى اليمن والحجاز حيث استُقبلوا بترحاب، أما الملك نفسه فاستقر في أرض كنعان!

هذه الرحلة الخيالية الطويلة من طيبة إلى آخت آتون ثم باخيت فبابل، وبعدها أرض كنعان، تكشف التناقضات الكثيرة بين القصة الدينية والرواية الخيالية التي افترضها المؤلف.

اكتشف هو بعضها فحاول علاجها بنفس أسلوبه في الكتاب، وغاب عنه البعض الآخر فلم يتطرق إليه. ومن النوعية الأولى ما يتعلق باختلاف بداية رحلتي كل من النبي ابراهيم وإخناتون ونهايتهما، وهو الاختلاف الذي لم يمنع المؤلف من اختزال كليهما في رحلة واحدة، وبرّر ذلك بقوله:" عندما بلغ إبراهيم سن الخامسة والسبعين واتجه إلى صحراء الجزيرة ثم إلى ارض الكنعانيين، تكاد تكون هذه هي نهاية القصة وليست بدايتها، أما كل الأحداث التي تلتها التوراة فهي نوع من أنواع الفلاش باك، لبعض ما حدث في الخمس والسبعين سنة الأولى من حياة ابراهيم، وربما أن مسألة الفلاش باك في القصة لم تُفهم من واضعي التوراة ومترجميها هذا الفهم الصحيح، مما أدى إلى ما هم عليه من التخبط".

أما ما ذكرته القصة الدينية عن أن النبى إبراهيم كان زائرا عابرا لمصر، وليس من أبنائها، فيرى المؤلف أنها:" قصة موضوعة ومتعمدة، خشية أن تُظهر الآثار على مر الزمن علاقة

إبراهيم بمصر، فألّف واضعو التوراة هذه الزيارة غير المنطقية، ولكن بها أحداث فلاشباكية نستفيد منها في مقارنتها مع الحدث الأصلي الحقيقى(...) وبناء على ذلك تُصبح قصة كذب إبراهيم على المصريين وعلى فرعون مصر، بالتعاون مع زوجته السيدة سارة قصة وضيعة لا أساس لها، ولا يليق بأبي الأنبياء ذلك ولم يفعل ذلك".

حاول المؤلف إثبات أن ابراهيم عليه السلام كان مصريا، فأثبت في طريقه أن يهود الجزيرة وبعضاً من عربها كانوا مصريين! وكذلك كانت حضارة بابل واثنين من أهم رموزها(جلجامش وحمورابي)، وهي أمور تشوبها فجوات عديدة تملأ القصة الخيالية، فالمؤلف لم يتعرض لعدد من أهم أحداث القصة الدينية سبق أن أشرنا إلى بعضها، لكن حتى التغاضى عن كل هذا لايمنع طرح أسئلة أخرى مثل: كيف يكسر إخناتون الأصنام اعتراضاً على الوثنية، ثم يُخلّف وراءه تماثيل ضخمة له ولزوجته نفرتيتي، تمثل بداية مدرسة فنية غير معهودة في التاريخ المصرى القديم؟

أسئلة عديدة يجب طرحها على المؤلف، الذي ينبغى أن يكون مقتنعاً بالقصة الدينية بكل تفاصيلها، إذا كان مُصرّا على دعمها تاريخياً، أما أن يختار بعض تفاصيلها وينتقد البعض الآخر ويتناسى قسما ثالثا فهو أمر غريب، يزيد من غرابته طريقة تعامله مع مفردات التاريخ الذي قدّم فيه وأخّر حسبما شاء(وهو نفس أداء فليكوفسكى)، وعند كل نقطة اختلاف يشير إلى وجود مؤامرة. ويستدعي- في سبيل إثبات فكرته- نصوصاً بالغة القدم تسبق عهد إخناتون بمئات السنوات، تنتمي إلى الأسرة الرابعة وعصر الانتقال الأول، ثم ينسبها إلى عهد إخناتون، بينما يُشكّك في مدى أثرية مفردات أخرى في مصر وبابل.

ربما يكون سعد عبد المطلب العدل أقلّ شهرة بين المغامرين، لكن لايمكن إهمال تجربته، فهى تُمثل امتدادا لاتجاه يحتاج إلى مراجعة. قد يرى البعض أن مايكتبه لايستحق عناء

البحث عن ردود، لأن القراءة الأولية تكشف عن افتقاره للمنهج العلمى، لكن المُشكلة أن هذه الأفكار هى التي تنتشر عادة لغرابتها. قبل سنوات تسلل إلى الشباب المصريين معتقد بأن كائنات من كواكب اخرى هى التى قامت ببناء الهرم. مصدر هذا الاعتقاد كانت كتابات كاتب كبير تحدث عن الذين هبطوا من السماء والذين عادوا، وكان ذلك سببا في أن يتشكك بعض من لايملكون ثقافة كافية فى حضارتهم، واليوم تتتابع الكتابات في السياق نفسه، وتقتحم عوالم جديدة أكثر جاذبية، دون أن يعنى فقدانها للمصداقية أنها لن تؤثر في قناعات جمهور قد يتسع نطاقه أو يضيق، لكنه يظل عرضة لعمليات تشويه حضارته.

النماذج السابقة ليست وحيدة بالتأكيد، وقد استعرض الكتاب عبر فصوله محاولات أخرى، في إشارات عابرة تكفى لإعطاء صورة لابأس بها عن المشهد ككل. لكن اختيارهذه النماذج تحديدا في هذا الفصل، نبع من كونها تخاطب قارئا عاما غير متخصص، في المنطقة العربية وخارجها، (إضافة لمغامرة فليكوفسكى، تُنشر كتابات أحمد عثمان بالإنجليزية غالبا قبل ترجمتها إلى العربية)، وهو مايمثل خطرا واسع النطاق. كما أنها تنطلق في فضاءات أرحب من التزييف، لأنها لاتعتمد منهجية علمية يُمكن أن تكبح جماحها، ويكفى أن النموذج الأخير(إخناتون أبو الأنبياء) قد رسم خارطة إسرائيل الكبرى بقصد أو بدون قصد، ومضى في نفس المسارات الجغرافية التي يسعى لإثباتها أصحاب الفكر التوراتى! كما أن المغامرات كلها اعتمدت على التوراة كمرجع تاريخي، وهو نفس الخطر الذي نُحذّر منه في هذا الكتاب، لأنه يقود في المديين البعيد والقريب إلى

اغتصاب الذاكرة، إضافة لأنه يُعتبر أكثر خطورة، وإذا كان المؤرخون التوراتيون يسلبون حقوقنا بمحو ذاكرة الآخرين، فإن تلك المغامرات- خاصة العربية منها- ستؤدى في النهاية الى اغتصاب ذاكراتنا نحن. وهنا لن يبقى لنا أية حقوق ولو حتى على الورق.

الهوامش

(1) إيمانويل فليكوفسكي- مرجع سابق.

(2) فليكو فسكي- المرجع السابق.

(3) فليكو فسكي- المرجع السابق.

(4) هناك اختلافات على تواريخ بداية ونهاية هذه الأسرات، لكنّها اختلافات تتأرجح في حيز سنوات قليلة، وقد اعتمدنا في هذه التواريخ على ما أورده العالم الكبير الراحل الدكتور عبد الحليم نورالدين، في كتابه" مواقع الآثار اليونانية الرومانية في مصر"- النشر على نفقة المؤلف- 1999.

(5) د. عبد المنعم عبد الحليم سيد- المغالطات والافتراءات الصهيونية على تاريخ وحضارة مصر الفرعونية والرد عليها وتفنيدها من واقع الأدلة الأثرية- دار غريب- 2000. ص: 66

(6) فليكوفسكي- المرجع السابق.

(7) د. عبد الوهاب المسيرى بالاشتراك مع سوسن حسين- موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية- مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام 1975. ذكر الدكتور المسيري:" ويذكر المؤرخون أن اليهود خرجوا من مصر في القرن الثالث عشر قبل الميلاد". ص: 177. ويجدر بالذكر أن الخلافات بين المتخصصين المقتنعين بأن الخروج حدث حقيقى تنصب على فرعون الخروج، وهو ما يحصر الخلاف في نطاق سنوات قليلة لا تصل بأي حال من الأحوال إلى عدة قرون.

(8) د. عبد المنعم عبد الحليم- المرجع السابق.

(9) رضا الطويل- عصور في فوضى.. رؤى نقدية- العروبة للدراسات والأبحاث.

(10) كارل ساجان في سياق رده على كتاب"عوالم فى تصادم "، والرد منشور ضمن مجلد رؤى نقدية الذي نشرته" العروبة للدراسات والأبحاث" للرد على كتاب فليكوفسكى. ص: 402.

(11) د. عبد المنعم عبد الحليم- المرجع السابق. ص :85

(12) د. عبد المنعم عبد الحليم- المرجع السابق. ص:69

(13) د. عبد المنعم عبد الحليم- المرجع السابق. ص:70

(14) فليكو فسكي- المرجع السابق.

(15) فليكو فسكي- المرجع السابق.

(16) د. سيد كريم- إخناتون- الهيئة المصرية العامة للكتاب.1997. ص:33

(17) د. سيد كريم- المرجع السابق. ص :134.

(18) د. سيد كريم- المرجع السابق. ص : 20

(19) د. عبد المنعم عبد الحليم- المرجع السابق. ص: 97

(20) د. عبد المنعم عبد الحليم- المرجع السابق، ص: 99

(21) د. سيد كريم- المرجع السابق. ص: 21،20

(22) د. سيد كريم- المرجع السابق. ص: 56

(23) د.سيد كريم- لغز الحضارة المصرية- الهيئة المصرية العامة للكتاب- 1996. ص : 66

(24) د. سيد كريم- المرجع السابق. ص : 67

(25) د. سيد كريم- المرجع السابق. ص: 174.

(26) د. سيد كريم– المرجع السابق. ص: 187

(27) كل كتابات أحمد عثمان تحاول الربط بين أنبياء بني إسرائيل ومصر القديمة، وقد اعتمدنا هنا على كتاب" الأصول المصرية في اليهودية والمسيحية "، الصادر عن مكتبة الشروق عام 1999 كنموذج لكتاباته.

(28) من جديد نود أن نُشير إلى أن التواريخ مُختلف عليها، لكن حدود الاختلاف لاتتعدى سنوات قليلة، واعتمدنا على الارقام الواردة في كتاب الدكتور نور الدين السابق الإشارة إليه.

(29) مُعجم الحضارة المصرية القديمة– ترجمة : أمين سلامة– مراجعة الدكتور سيد توفيق– الهيئة المصرية العامة للكتاب– 1996.

30) سعد عبد المطلب العدل – إخناتون أبو الأنبياء– نشر على نفقة المؤلف– ص 173. واعتمد الجزء الخاص بهذا الكتاب على مراجعة له كنتُ قد نشرتُها بأخبار الأدب.

ثانيا: الشوه التحليلي

الفصل السابع: تشكيل الخيال

عوالم بعيدة. يختلط فيها الأسطوري بالواقعي، حتى أن الفصل بينهما يصبح بالغ الصعوبة في أحيان كثيرة. إضافة لعوامل سياسية عديدة، يُصبح الحنين مُحرّكا لا يُستهان به لمحاولات إعادة تشكيل الماضي. وفي سبيل ذلك يتم فرض سياقات مقلوبة، تسبق فيها النتائج المعطيات ليمضى البحث باتجاه مغلوط. إنها أشبه بلعبة(بازل)، لم يعثر كل من حاول ترتيبها على غالبية قطعها، ومع ذلك يوجد من يصر على توصيف المشهد الذي يتخيل أنها ستُشكّله حال اكتمالها. الإصرار في هذه الحالة يعتمد على افتراضات غير مؤكدة، تنطلق من حكايات متواترة قد تتضارب في بعض الأحيان، وربما لا تجد ما يدعمها على أرض الواقع فى أحيان أخرى..كثيرة! الذين يلعبون(البازل) قد يملّون اللعبة في أي وقت ويتركون القطع القليلة متناثرة ويذهبون. غير أن الأمر يختلف مع لعبة إعادة تشكيل التاريخ. فالعوالم الموغلة في القدم تصبح دائمة الحضور بأذهان بعض من يحاولون إعادة صياغة الحاضر، اعتمادا على نص توراتي(1) لم يجد ما يوثّقه أثريا. في سياق مُلتبس كهذا، يطرح السؤال نفسه: إلى أي مدى يُمكن التعامل مع التوراة باعتبارها مرجعا تاريخيا؟ السؤال قديم لكنه دائم الحضور، والإجابات عليه تتفاوت بين نموذجين متناقضين: الأول يُمثله خطاب الدراسات التوراتية، الذي يرى أن التوراة قدمت تاريخ إسرائيل القديمة بدقة، وبالتالي فإنها تعد مرجعا تاريخيا أساسيا. أما النموذج الثاني المتنامي فينطلق من رفض التعامل مع التوراة على أنها تقدم تاريخا، وقد تعامل مؤيدو هذا النموذج مع الأحداث التي وردتْ في أسفارها على أنها خيال محض. في دراسته التي نشرها عام 1990 حول التسلسل الزمني التوراتي، يؤكد ج. هيوز:" إن التسلسل الزمني في سفري

القضاة و صموئيل هو خيال محض، اخترعه اليهود في المنفي لكي يمدونا بمشروع تاريخ عمره 1000 سنة، يُغطي تاريخ وجود إسرائيل في أرض كنعان، وهكذا لا يُمكن الاعتماد على هذه الرواية لتزويدنا بتسلسل تاريخ إسرائيل"(2).

بين النموذجين تتواجد نماذج أخرى عديدة، تُغّلب اللاهوتي على التاريخي أو العكس، بحسب أولويات ترتيب مصادرها. وبطبيعة الحال يُقدّم مؤيدو كل نموذج قراءاتهم المغايرة للتاريخ اعتمادا على المكتشفات الأثرية نفسها. هذه الاكتشافات تكتسب(أو تُضفي) دلالات متناقضة حسب اتجاه قراءتها. أصحاب الخطاب التوراتي- وهم الأعلى صوتا- يقومون بعملية ربط سريعة لأي اكتشاف أثري بما ورد في العهد القديم، ولأن الاكتشافات الأثرية حتى الآن لا تقدم أدلة مباشرة على وجود تاريخي، لأحداث ومواقع وشخصيات وردتْ بالتوراة، فإن مؤيدي هذا الاتجاه يعمدون في أحيان كثيرة إلى ليّ ذراع الحقيقة، واستكمال الفراغ الشاسع- الناتج عن ندرة الاكتشافات- بأحداث مُفترضة يتم استيرادها كما هي من العهد القديم. الأمثلة عديدة لكن ربما يكون أهمها ذلك الذي حدث مع نقشي: مرنبتاح في مصر، وتل القاضي بالجولان المحتل، وقد اخترنا هذين المثالين تحديدا، لأن عددا من علماء الآثار يؤكدون أنهما النقشان الوحيدان اللذان يتحدثان خارج صفحات التوراة عن وجود إسرائيل القديمة ومملكة داود.

في صيف 1993، اكتشفت إحدى البعثات العاملة في تل القاضي(3) جزءا من لوح حجري منقوش أشار إلي ملك إسرائيل كما يلي:"..ك بت دود". تلقّف علماء الآثار التوراتيون النقش بحفاوة بالغة، وبدأوا تأويله فقُرئ على أنه" ملك بيت داود"، ثم تم تفسير كلمة بيت على أنها سلالة. النص الذي لم يتضمن إلا هذه الكلمات غير المكتملة، وجد من يفسره بأنه يصف معركة ذكرها سفر الخروج! كما اعتبره البعض دليلا على أن

داود لم يكن شبحا تاريخيا(4)، و أنه مؤسس سلالة يهوذا التي حكمت القدس. وقد تعجب توماس تومسون من الحماس الشديد الذي قوبل به الكشف، رغم المشكلات العديدة التي تحيط به، و تبدأ من تاريخه ثم قراءته وتفسيره. ويوضّح أن قراءة حرف" ك" الوارد فى النقش على أنه ملك ليس إلا تخمينا. كما أنه لا يوجد فى النص ما يربط بين "بت دود " والقدس ويهوذا (5).

لم يكن تومسون وحده هو منْ تحفظ على التأويلات التي حملت النص أكثر من مضمونه، بل إن البعض شكّك في أثرية اللوح ورجّح أنه مزيف. ووسط هذا الجدل أكد اثنان من علماء الآثار شاركا في التنقيب عن هذه القطعة، أن قراءة النص لاتُقدّم استنتاجات قاطعة، فقد ذكر بيران ونافيه:" إن طبيعة المصادر التوراتية من جانب والطبيعة الجزئية لنقش دان(تل القاضي) من جهة أخرى، لا يسمحان لنا باستنتاجات قاطعة. قد تكون هناك تفسيرات أخرى محتملة، ولن يمدّنا بالدليل إلا اكتشاف قطع إضافية من هذا النقش"(6).

القصة لم تختلف كثيرا مع لوحة مرنبتاح. تم اكتشافها عام 1896 وورد فيها أول ذكر لإسرائيل فى نص لا ينتمي للتوراة. أشار النص إلي انتصار الفرعون المصري على شعوب عديدة منها إسرائيل. وذُكرت الكلمة في سياق عبارة تقول:" وإسرائيل قد خُرّبت وانقطعت بذرتها". وفي كتابه" التاريخ المبكر لشعب إسرائيل"، أشار تومسون إلى أن الجماعة المذكورة باسم إسرائيل في نصب مر نبتاح، لا علاقة لها من قريب أو بعيد بجماعة الخروج، ولا بإسرائيل السامرة التي نعرفها من العصر الآشوري اللاحق، وأن تشابه الاسم لا يؤكد وجود مثل هذه العلاقة التي ينفيها التاريخ نفيا قاطعا(7). فى مقابل هذا الرأي يؤكد بيمسون أنه:" لا يوجد أي سبب مُطلقا للشك في أن إسرائيل التي وردتْ في هذا اللوح الحجري المنقوش، هى إسرائيل التوراتية في فترة ما قبل المملكة "(8). كان

يمكن أن يظل الخلاف محصورا في المقصود من كلمة "يسرائيل". لكن رغم أن هذه الجزئية لم تُحسم، فإن علماء الآثار التوراتيين تخطّوها إلي فراغ أرحب من التخيّلات. وبعد أن أطلق بيمسون عبارته الحاسمة، التي وردت في الاقتباس السابق، أكد أن إسرائيل الواردة في لوحة مرنبتاح كانت كونفدرالية قبلية، مثل تلك التي نجدها بنشيد ديبورة(نبية يهودية). ولا يعيننا هنا التعليق على وجهة نظر بيمسون بقدر ما نود الإشارة إلي أنه أعاد تعبئة النص(الفقير) بمضامين استقاها من التوراة. المعلومات الوحيدة الواردة فى اللوح تشير فقط إلي أن مرنبتاح هزم" قوم" إسرائيل، لأن المخصص الذي استخدمه المصري القديم لم يتحدث عن بلد، مثلما فعل مع بقية البلدان المهزومة، وهو ما يُرجّح أن الجماعة المقصودة كانت من الرُحل، ورغم ذلك حاول بيمسون استغلال النص بطريقة أيديولوجية لا علمية، عمد من خلالها إلى سد الثغرات التاريخية، بأحداث لم ترد إلا فى التوراة دون أن تجد ما يدعمها أثريا. وهنا نجد أن السؤال يعيد طرح نفسه: هل تصلح التوراة في هذه الحالة أن تكون مرجعا تاريخيا؟ قبل الإجابة نشير إلى تعليق لوايتلام على تعبير" إسرائيل التوراتية"، الذي ورد في كلام بيمسون، لأن هذا التعليق سينتقل بنا إلي نقطة جديدة، تصلح كبداية للرد على هذا السؤال. يقول وايتلام أن بيمسون لم يُسهب في شرح طبيعة إسرائيل التوراتية التي يقصدها، وهل هى الصورة التي يرسمها العهد القديم في أسفار موسى الخمسة؟ أم سفر التثنية أم سفر يشوع أم سفر القضاة أم أخبار الأيام الأول والثاني؟ تساؤل وايتلام بالغ الخطورة، إذ أنه يتخطي مسألة عدم وجود أدلة أثرية تدعم التاريخ التوراتي، إلي التلميح لتناقضات التوراة ذاتها عند سردها لهذا التاريخ بصيغ مُتعارضة. إنها التناقضات التي تقدم أكثر من سياق للحدث الواحد، وهو ما يفسره وايتلام في موضع آخر من كتابه، عندما يشير إلى أن التراث التوراتي فيما يتعلق بفترة ما قبل

المملكة، لم يكن انعكاسا لحقائق تاريخية بقدر ما عكس الإحساس بالماضي لكتّاب قاموا بالتدوين في فترات لاحقة! الأمر إذن أصبح مرتبطا بإحساس الكاتب، وأحيانا انحيازه كما سيتضح بعد قليل. في نسق كهذا يُمكن أن نجد الكثير من المتناقضات تبدأ من الجذور. ففي حين يشير سفر التثنية إلى أن جذور بني إسرائيل ترجع إلى حضارة وافدة على فلسطين، فإن سفر أخبار الأيام الأول يتحدث عنهم باعتبارهم سكان المنطقة الأصليين. وما ينطبق على الجذور ينسحب على إسرائيل القديمة ونشأتها. حيث توضّح قراءة سفري يشوع والقضاة وجود تناقض جذري بين روايتين أساسيتين، تقود كل منها إلى نشأة مختلفة لإسرائيل القديمة! يُكرّس سفر يشوع لفكرة غزو بني إسرائيل لفلسطين، وفيه يصول يشوع ويجول في المدن القديمة، ويهزم كل من يقف في طريقه: " فضرب يشوع كل أرض الجبل والجنوب والسهل والسفح وكل ملوكها. لم يُبق شاردا بل حرّم كل نسمة كما أمر الرب إله إسرائيل"(يشوع -10:40). الصورة السابقة ليست وحيدة، بل تكررتْ في أماكن عديدة، حتى تمكن يشوع من هزيمة الجميع، ثم بدأ تقسيم الأرض على أتباعه. كان يمكن أن تظل هذه الرواية هي المعتمدة(توراتيا على الاقل) في انتظار أسانيد أثرية قد تدعمها، غير أنها فقدت فرصة أن تكون المرجع الوحيد، حيث تشير بدايات سفر القضاة إلى نظرية نشأة مغايرة، فيذكر النص أن بني إسرائيل لم يُنفّذوا ما أوصاهم به الرب، بألا يقطعوا عهدا مع سكان هذه الأرض وأن يهدموا مذابحهم، ولأ نهم خالفوا الوصية فقد عاقبهم الرب:" ولم تسمعوا لصوتي، فماذا عملتم؟ فقلت أيضا لا اطردهم من أمامكم بل يكونون لكم مضايقين وتكون آلهتهم لكم شركا"(قضاة –2:1)، أي أن بني إسرائيل وفقا لهذه الرواية عوقبوا على امتناعهم عن الحرب بإبقائهم وسط سكان البلاد الأصليين:" فسكن بنو إسرائيل في وسط الكنعانيين و الحثيين والأموريين والفرزيين والحويين

واليوبوسيين، واتخذوا بناتهم لأنفسهم نساء، وأعطوا بناتهم لبنيهم وعبدوا آلهتم "(قضاة – 5:3)، وهو ما يشير إلي أن نشأة إسرائيل القديمة تمت عن طريق الهجرة السلمية. الاقتباسات السابقة من السفرين قد لا تكون كافية لإظهار أوجه التناقض الحادة بين الروايتين، لكنها تصلح لتوضيح نظريتي النشأة، وعلى من يرغب فى الاطلاع على التناقضات أن يعود إلي السفرين في اصلهما، ليكتشف أنها تصل إلي حد إلغاء الأحداث لبعضها. حتى أن فراس السواح يُرجّح أن محرر سفر القضاة لم يقرأ أو يطلع على سفر يشوع! وأن القائمين على الصياغة الأخرى للنص التوراتي، لم يكونوا في موقف يساعدهم على تفضيل إحدى النظريتين على الأخرى(9). الاختلاف بين السفرين أدى منذ عقود إلى ظهور مدرستين في علم الآثار، تحاولان تحديد كيفية نشأة إسرائيل القديمة. المدرسة الأولي- بقيادة الأمريكي وليام أولبرايت- اعتمدت على سفر يشوع. وأكد أولبرايت في أربعينيات القرن الماضي أن النشأة حدثتْ في أعقاب غزو خارجي قام به بنو إسرائيل على فلسطين. أما المدرسة الثانية فكان على رأسها الألماني البرخت آلت، الذي رجّح فى نهاية عشرينيات القرن الماضي فكرة التسلل أو الهجرة لبني إسرائيل اعتمادا على سفر القضاة. كلا الفريقين حاول إثبات وجهة نظره بالاعتماد على مكتشفات أثرية، غير أن الطرفين واجها الفشل حسبما يؤكد وايتلام:" لقد برهن الكم المتزايد من الاكتشافات الأثرية في المنطقة منذ بدء آلت لبحثه، بشكل جلي على أن نشوء المستوطنات في مرتفعات فلسطين أواخر العصر البرونزي وبداية العصر الحديدي لم يعد من الممكن ربطه بالهجرة الإسرائيلية"(10)، ويشير وايتلام إلى ملحوظة مهمة توضح أن صياغة الماضي تتم من وجهة نظر الحاضر، ففي الماضي أنشئت الدولة- وفق فرضية آلت- بينما السكان الأصليون يذوبون وينقرضون، لكونهم غير متمتعين بأي وعي قومي. إنها نفس الصورة

التي تم ترويجها في عشرينيات القرن الماضي (فى فترة قريبة من صياغة آلت لنظريته)، حينما حاولت الصهيونية العالمية إنكار أي إحساس بالوعى القومي لدي الفلسطينين. حظ اولبرايت لم يكن أفضل من آلت، فقد قوّضت الحفائر نظريته، حيث يؤكد وايتلام:" ما يثير السخرية أن المكتشفات الأثرية الحديثة ذاتها من الحفائر والدراسات الاستطلاعية في المنطقة، هى نفسها التي قوّضت بشكل كامل رواياته المُختلقة عن الماضي"(11). لسنا الآن فى مجال تقييم النظريتين عبر استعراض تفاصيل علمية متخصصة، لكن الحديث عنهما جاء في سياق الإشارة إلى التناقض بين سفري يشوع والقضاة، وما ترتّب عليه من تأثيرات واضحة على الفكر الديني و الأثري. إنه التناقض الذي انتبه إليه علماء نقد التوراة. يؤكد زئيف فايسمان:" وقد فسّر علماء نقد المقرا(العهد القديم) التناقض القائم بين الواقع التاريخي الذي يرد في قصص الأحداث كما وردت في سفر القضاة، وبين الأوصاف الخاصة بالاستيلاء الكامل على البلاد كما وردت في سفر يشوع، الذي يعتمد عليه المدخل والإطار المنهجي لسفر القضاة، وذلك راجع لانحياز محرر السفر الذي حاول تقييم تلك الفترة القديمة من تاريخ إسرائيل، انطلاقا من نظرة قومية تبلورت فقط فى أواخر البيت الأول، في فترة متأخرة عن ذلك. وقد توصل البحث النقدي للمقرا في تقييمه لتطور تاريخ إسرائيل إلى رأي مغاير تماما لما ورد فى سفر يشوع وفى سفر القضاة"(12). إضافة لما يؤكده الاقتباس السابق من وجود تناقض فى أحداث التوراة، فإنه يثير عدة ملاحظات بالغة الأهمية، لأن الحديث عن انحياز محرر السفر، يدل على أن التدوين لم يكن يتم بمعزل عن رأي المحرر والظروف المحيطة به، وهى ظروف تختلف تماما عن تلك التي كانت سائدة عند نزول التوراة، مما يطرح إمكانية الإضافة أو الحذف،

سواء نتج ذلك عن عدم دقة أو لأهداف أيديولوجية(وهنا تجدر الإشارة إلى أن أول تدوين للعهد القديم بدأ بعد ما يزيد على تسعة قرون من نزوله).

كما أن الاعتراف(الإسرائيلى) بوجود تناقض بين السفرين، يجعل التشكيك في كل أحداثهما أمرا مطروحا. إذ أن التناقض لا يتعلق بوجهات نظر، بل يمس أحداثا يعتبرها البعض تاريخا موثوقا به ولا يجوز التشكيك فيه، فكيف يتحقق ذلك والأحداث تلغي بعضها؟ أي سياق يمكن أن نعترف به فى هذه الحالة وأي سياق نقوم بإلغائه؟

أما الملحوظة الأكثر أهمية، فتتمثل فيما ورد بحديث فايتسمان، عن الوصول إلى تاريخ مغاير تماما لما ورد في سفري يشوع والقضاة. لأن هذه الجزئية تُقوّض مبدا الاعتماد على التوراة كمرجع تاريخي من أساسه. وبعد أن روج مؤسسو إسرائيل الحديثة لاغتصاب الأرض اعتمادا على ما ورد بالعهد القديم، بدأت الأجيال اللاحقة من المؤرخين تتحدث عن تناقضات بين الأسفار، حول واحدة من أهم مراحل إسرائيل القديمة، لنفاجأ في النهاية بأن هناك تاريخا بديلا، يأخذ في التشكّل، ليحل محل التاريخ الذي سُلبت الأرض اعتمادا عليه!

تناقضات التوراة المرتبطة بالأحداث متعددة، لكننا لسنا في سياق رصدها، و نكتفي بالنماذج السابقة لننتقل إلى نقطة أخرى، تُمثّل إضافة عند الإجابة على السؤال المحوري لهذا الفصل. وفي هذه المرحلة سنحاول أن نلعب نفس اللعبة، ونُسقط التاريخ القديم على الجغرافيا.

تحت عنوان خراب عاي، يذكر سفر يشوع:" خُذ معك جميع رجال الحرب، وقُم اصعد إلي عاي. انظر. قد دفعت بيدك ملك عاي وشعبه ومدينته وأرضه، فتفعل بعاي وملكها كما فعلت باريحا وملكها"(يشوع- 8:1)، وقدّم النص وصفا تفصيليا للخراب الذي حل

بالمدينة قبل إحراقها:" فكان جميع الذين سقطوا في ذلك اليوم من رجال ونساء اثني عشر ألفا، جميع أهل عاي"(يشوع - 8:25). الوصف السابق يؤكد أن المدينة الكنعانية لم تكن صغيرة وأن سقوطها كان ملحميا، غير أن التنقيب في موقعها المذكور في التوراة أسفر عن مفاجأة، فلا يوجد أي أثر لهذا التدمير. ليس هذا فقط، بل أثبتت الاكتشافات في موقع المدينة- الموجودة على بُعد 15 كليو مترا من القدس- أن أهل المدينة هجروها تماما، قبل الوصول المفترض لبني إسرائيل بنحو ألف عام!!(13)، وقد قامت بعثات عديدة بالتنقيب عن آثار عاي وجبعون القريبة منها، لكنها- على عكس ما ورد في التوراة- لم تعثر على أي مدينة معاصرة ليشوع. حتى أن عالم الآثار جيمس بريتشارد، الذي نقب هناك لفترة كبيرة عام 1965، أكد:" إنه ليس هناك شك بناء على أفضل ما يتوافر من شواهد، في أنه لم يكن هناك مدينة معاصرة ليشوع" (14)! وهو ما يؤكد ما ذكره السواح عن مدينة جبعون، التي ذكرت التوراة أنها صالحت يشوع، فقد أشار إلى أنها لم تكن قائمة خلال القرن الثالث عشر قبل الميلاد بكامله(التاريخ المرجح لظهور يشوع).

ومثلما سقطت عاي في الرواية التوراتية، سبقتها أريحا:" وكانت أريحا مغلقة مُقفلة بسبب بني إسرائيل. لا أحد يخرج ولا أحد يدخل، فقال الرب ليشوع: انظر. قد دفعت بيدك أريحا وملكها. جبابرة البأس تدورون دائرة المدينة، جميع رجال الحرب، حول المدينة مرة واحدة. هكذا تفعلون ستة أيام. وسبعة كهنة يحملون أبواق الهتاف السبعة أمام التابوت، وفي اليوم السابع تدورون دائرة المدينة سبع مرات، والكهنة يضربون بالأبواق ويكون عند امتداد صوت قرن الهتاف، عند استماعكم صوت البوق، أن جميع الشعب يهتف هتافا عظيما فيسقط سور المدينة في مكانه، ويصعد الشعب كل رجل مع وجهه"(يشوع1- 6). وهكذا حدثت المعجزة وسقطت أسوار المدينة، وقُتل كل سكانها:" و حرّموا كل ما في

المدينة من رجل وامرأة، من طفل وشيخ، حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف"(يشوع 21:6) لم تنج إلا راحاب الزانية وأهلها(15)، لأنها كانت قد خبأت جاسوس يشوع من قبل، لذلك تم إخراجهم من المدينة التي أحرقت بالكامل بعد ذلك، وحلف يشوع أن من يعيد بناءها ملعون.

هذه هي القصة التوراتية التي تسرد أحداثها واقعة الحصار ثم الانتصار، غير أن التنقيبات الأثرية بدأت عام 1876، واستمرت حتى ستينات القرن الماضي، وانتهت بمفارقة أخرى، فقد أثبتتْ أن آخر أثر للسكن بأريحا توقف قبل قرن من هجوم يشوع، بل أن أسوارها التي ذكرت التوراة أنها هُدمت بمعجزة كانت قد تهدّمت فعليا قبل ثلاثة قرون من القصة المذكورة!

يتكرّر الأمر مع المدن الأخرى التي مرّت بها حملة يشوع، حيث لم يُعثر على آثار دمار إلا في تل الدوير(الخيش) وتل بيت مرسيم(دبير)، تعود إلى فترة قريبة من تاريخ الحملة، كما تم العثور فى مدينة بيت إيل بالقرب من القدس على آثار تدمير هائل. وقد نقّب اولبرايت بالمنطقة الأخيرة، في النصف الأول من القرن الماضي، وعمل معه جورج ارنست رايت الذي أكد أن تميز المدينة عمرانيا ينفي كل شك في أن تدميرها كان من صُنع الإسرائيليين، وأضاف أن الأمر نفسه ينطبق على تل بيت مرسيم، غير أن وايتلام رأى أن رايت لم يُقدّم دليلا مقنعا على وجهة نظره، كما أن السواح أشار إلى أن لدمار المدن احتمالات عديدة، بخلاف ما يحاول التوراتيون ترويجه. كأن يكون المسئول عنه هو رمسيس الثانى أو ابنه مرنبتاح، أو شعوب البحر التي كانت المنطقة تمتلئ بها. الاحتمالات عديدة إذن، يأتي الإسرائيليون القدامى في آخرها، خاصة مع غياب أي سجل أثري يؤكد ذلك.

الحديث عن السجلات يعيدنا من جديد إلى الحدث التوراتي، الذي لم يجد ما يدعمه أثريا. في تاريخ إسرائيل القديمة لحظتان حاسمتان: الأولى هى لحظة النشأة، وقد تحدثنا عن التناقض الذي وقعت فيه أسفار العهد القديم بخصوصها. أما الثانية فتتمثل في التطور الذي بلغ ذروته فى مملكة داود وسليمان. والثانية ليست أفضل حظا من الأولى، فبدورها لم تجد اسانيد أثرية تنقلها من صفحات التوراة إلى حيز الواقع، مما جعل البعض يشككون في وجودها أساسا، فقد نقل وايتلام عن ليتش قوله:" إننى شخصيا أجد هذه الأفكار غير قابلة للتصديق إلى حد بعيد، لا توجد أى آثار تدل على وجود هؤلاء الأبطال أو حدوث أي من الأحداث المرتبطة بهم. لو لم تكن هذه القصص مُقدّسة لكنا رفضناها تماما من الناحية التاريخية "(16). بدوره ينتقد وايتمان محاولات تعريف آثار عصر سليمان بناء على التراث التوراتي. لذلك جاء نقش تل القاضى- الذي سبقت الإشارة له- كطوق نجاة لعلماء الآثار التوراتيين. ورغم أنه لا يحتوي على أية معلومات ذات أهمية بخصوص مملكة داود، إلا أنه تحول بعد تحميله ما لا طاقة له به إلى:" ضربة قاضية لغرورهم الظاهري" (17). والضمير في العبارة السابقة يعود على أصحاب المدرسة التفكيكية، التي تنتقد تفسير التاريخ توراتيا. أما الاقتباس ذاته فمجتزأ من هجوم ريني على فيليب ديفيز ومن حذا حذوه، حيث أضاف:" مجرد مجموعة من الهواة يعتقدون أنه لا يوجد شيء في التراث التوراتي يعود إلى ما قبل الفترة الفارسية". كلام ريني يرى أن النقش- الذي لا يُقدم استنتاجات قاطعة حسب اثنين من مكتشفيه- يُعتبر ضربة قاضية، وهو ما يثير علامات تعجب عديدة تتزايد بكثافة، عند استعراض وجهات نظر توراتيين آخرين، فقد استنتج برايت عام 1972 أن فتوحات داود حوّلت إسرائيل بشكل مفاجئ إلى أكبر قوة في فلسطين وسوريا، بل في الواقع ربما كانت إسرائيل في تلك اللحظة لا تقل جبروتا عن أي

قوة في عالمها! إنه الاستنتاج الذي كان باحث آخر هو راد قد توصل عام 1965 إلى صيغة أكثر مبالغة منه، عندما أشار إلى أن عصر داود وسليمان أنتجا أعمالا تاريخية أصيلة، لم يكن بمقدور أية حضارة في الشرق الأدني القديم الإتيان بمثلها، حتى الإغريق لم يتمكنوا من الوصول إلى مثلها إلا في ذروة تقدمهم بالقرن الخامس. لا يكتفي بهذه الخيالات، بل يصل إلي حكمه النهائي المبالغ فيه:" حضارة إسرائيل يجب أن تقف في صف الحضارة الإغريقية الأغنى والأكثر عمقا في القرون اللاحقة"(18)! وهكذا يتحول الأمر من بحث وتنقيب عما يكرس الوجود التاريخي، إلى الحديث عن حضارة تتفوق على حضارات الشرق الأدنى القديم، وتقف جنبا إلي جنب مع الحضارة الإغريقية. كل هذا يتم بجرة قلم لا تدعمها أية دلائل أثرية أو تاريخية. ولأن علو صوت الخطاب التوراتي يتيح له أن يطغى على كل ما عداه، تتواري أسئلة بديهية تستفسر عن إنجازات هذه الحضارة الإسرائيلية(!) وأعمالها الأصيلة. خاصة أن الحضارات(الأدني!) منها تركت إنجازات لا تزال قائمة حتى الآن. فإذا تغاضينا مؤقتا عن هذه النقطة لصالح فكرتنا المحورية، فإننا ننتقل لسؤال آخر: لماذا لم يتم تسجيل هذه الإنجازات والأحداث الكبرى في مدونات الحضارات الموازية؟ تلك الحضارات التي لا يُمكنها أن تتجاهل حضارة هائلة ظهرت فجاة، خاصة مع وجود بعض أنواع التعاملات المتبادلة فيما بينها، فالعهد القديم يذكر أن سليمان تزوج ابنة الفرعون المصري، في حين لم تُشر أي من الوثائق الأثرية المصرية لهذا الحدث. الأمر نفسه ينطبق على النقوش الأشورية التي تجاهلت أى ذكر لقيام مملكة قوية في فلسطين، كما تجاهلت وجود سليمان على رأسها رغم أن شهرته وصلت إلى اليمن! الأمر لم يتوقف عند تجاهل الحضارات الموازية لحضارة بنى إسرائيل، فالعكس ايضا حدث.

خلال نهايات القرن الثانى عشر قبل الميلاد حكم رمسيس السادس مصر، وهناك أدلة أثرية تثبت أن نفوذه كان مستمرا على المواقع الاستراتيجية في فلسطين، ومن بينها مرج بن عامر(المعروف توراتيا باسم وادى يزرعيل)، وقد عُثر على قاعدة تمثال له في مجدو. كما أن قوات آشور وصلت إلي مسافة لاتبعد الا بضع عشرات من الأميال عن مسرح قصص سفر القضاة، فلماذا لم ترد أخبار مصر وآشور ضمن أحداث هذه المرحلة في العهد القديم؟ التساؤل السابق طرحه فراس السواح، ثم أجاب مؤكدا أن عدم حدوث ذلك:" يدل على أن محرري التوراة الذين كانوا خلال العصر الفارسى يُؤسّسون لأصول إسرائيل فى عصر منقطع عنهم تماما، لم يكونوا يعرفون شيئا عن هذا العصر، ولم يكن في حوزتهم أية معلومات تاريخية مباشرة أو غير مباشرة عنه، ولا عن أهله وثقافاته ودوله: إن عصر القضاة ليس له وجود خارج مجال القصة والجنس الادبي التوراتي المؤيد بالأيديولوجية"(19).

عند هذه النقطة ينبغي أن نعود عدة خطوات إلي الوراء، وتحديدا إلى تلك النقطة الفاصلة التي تؤكد عدم العثور على أية مكتشفات أثرية تُثبت حقيقة القصص التوراتية، فلا يُمكن المرور عليها دون التطرق إلى جزئية بالغة الأهمية، وهى أن هناك ردودا سابقة التجهيز يُمكن أن تساق على الجانب الآخر. هناك من سيؤكد وجود عشرات بل ومئات المواقع التي تثبت حقيقة الوجود الإسرائيلي في الماضي. وهنا ينبغي أن نشير إلى أن التنقيبات الأثرية التي تمت في فلسطين كانت منذ بدايتها انتقائية زمانيا ومكانيا، حيث ركّزت على الفترة الانتقالية بين عصر البرونز والحديد ومناطق التلال. كان البحث مُكرّسا لإثبات الوجود الإسرائيلي وإهمال مادون ذلك. فلم يكن هناك تركيز على الفترات السابقة واللاحقة أو بالجغرافيا المحيطة، مما يعني أن أعمال التنقيب ثم النشر كانت جزئية، وهو

مايشير إلى خلل منهجى، لأنه بدون ربط ما يُكتشف بالسياقات الزمانية والمكانية الأخرى تظل المعلومات مجتزأة وغير دالة، بل وقد تعطى فى أحيان كثيرة دلالات خاطئة، لأنها تُقدّم مسارا أحاديا للتاريخ، غير أنه لا ينبغي أن يُفهم من ذلك أننا نُمهّد للطعن فى منهجية الاكتشافات لأنها قدمت حقائق مغايرة لما نحاول إثباته، فقد أضافت التنقيبات عشرات بل ومئات المواقع الأثرية، وهذا أمر صحيح، تم تصنيفها على أنها مواقع إسرائيلية وهذا ايضا صحيح (الحكم هنا على واقعة التصنيف لا على صحة التصنيف نفسه). لكن المسار بين موطني الصحة كان مليئا بالمغالطات. النماذج عديدة، نستدعي منها تلك التأويلات العجيبة لنصي لوحي مرنبتاح وتل القاضي، ثم نطرح نموذجا إضافيا.

في الخمسينيات من القرن الماضي، قام أهاروني بمسح اكتشف خلاله عددا من المواقع الصغيرة المتقاربة، وحدّد زمنها بالعصر البرونزى المتأخر وبدايات العصر الحديدى. ماوفّرته التنقيبات لم يكن كافيا للوصول إلى استنتاجات دقيقة، غير أن الرجل اعتمد تلقائيا على النص التوراتي، واستنتج أن هذه المواقع نشأت عن موجة استيطانية إسرائيلية! وهكذا تم استغلال التوراة في استكمال معلومات مُفترضة، ثم أعيد استدعاء الموقع بعد ذلك كدليل يدعم ما ورد بالتوراة!! إنها حلقة مُفرغة نتجت عن استدلال علّق عليه وايتلام بقوله:" وهذا استدلال يدور في حلقة مُفرغة، كي يحافظ على مفهوم الهوية والأرض: فتعريف الثقافة الإسرائيلية والمواقع الإسرائيلية تم تحديده بواسطة علم الآثار، لكن التوراة العبرية هى التي تحدد المواقع التي كانت إسرائيلية خلال فترة العصر البرونزي المتأخر، والمواقع التي كانت في تلك المناطق إسرائيلية. والآثار المادية الثقافية الإسرائيلية تُحدد على أنها الثقافة المادية في المواقع الكائنة في المناطق التي تحددها التوراة العبرية بأنها إسرائيلية "(20). أي أن التوراة تُحدد مُسبقا قائمة المواقع الإسرائيلية، ثم يجري تصنيف

أي اكتشاف على هذه الخارطة تلقائيا على أنه إسرائيلى، دون الحاجة إلى قرائن علمية! والأمثلة عديدة وتتكرّر فى كل المواقع تقريبا، يؤكد وايتلام :" إن القبضة الحديدية لخطاب الدراسات التوراتية الذي يتحكم في التفسير، ويمنع الباحثين من الإفلات من أسر النماذج والمسلمات المسيطرة، تتضح في مجموعة كبيرة ومتنوعة من الأعمال الأثرية المنشورة"(21)، لنكتشف أن تاريخ التوراة يرسم جغرافيا الحاضر إنطلاقا من الماضي، وهو موقف خطير، خاصة أنه لا يتوقف عند حد، ومن يحاول الخروج على هذا الخطاب ورفضه يُجابه بأكثر من طريقة، تبدأ بالاستخفاف وتنتهى بإجراءات تطرح تساؤلات عديدة حول أسطورة حرية البحث العلمي التي يُروج لها الغرب.

فى عام 1992 طُرد البرفيسور توماس تومسون من عمله كأستاذ لعلم الآثار في إحدى الجامعات الأمريكية، لأنه تبنّى وجهة نظر ربما تكون قد اتضحت في سطور سابقة من هذا الفصل. ولم يكن هذا هو الإجراء الوحيد الذي اتُخذ ضده، فبين عامي 1975 و1985 اضطُر لملازمة منزله بعد وقفه عن التدريس ومنع أبحاثه من النشر! ورغم كل هذه الضغوط أصرّ على موقفه مؤكدا:" بإضفائنا للصبغة التاريخية على هذا التراث تاهت عن أعيننا الركيزة العقلية للعهد القديم، ومعها ركيزتنا العقلية ايضا، ومسألة الأصول التي غلبت على البحث الحديث في العهد القديم تنتمي للاهوت لا إلى التاريخ "(22). لم يكتف تومسون- الذى شارك في حفائر عديدة بفلسطين- بآرائه، لكنه أشار إلى براهين مهمة كرستها هذه المفارقة، فقد تم اكتشاف نقش بتل دير علا بوادي الأردن، يقدم قصة تحكى عن رؤي بلعام بن يعور الذي كان عرافا بيؤاب القديمة. في العهد القديم ورد الاسم نفسه على أنه نبي عاش بسوريا. كان يمكن أن يكون النقش دليلا مُهما ونادرا على اتساق النسقين التوراتي والأثري، غير أن تاريخ النقش:" أقدم من أي حقبة ترتبط بموسى

وبمئات السنين"، وهو ما جعل تومسون يستنتج أن:" الدور الذي يُسنده العهد القديم للأنبياء من بلعام وحتى صموئيل، ومن ماموس إلى أرمياء يرجع إلى موروث أدبي عميق الأصول في فلسطين القديمة "، لكن حتى هذا النقش لا يُثبت وجود شخصية بلعام التاريخية، بل يؤكد كما يرى تومسون وجود أسلوب قديم لسرد الحكايات عن الأنبياء والقديسين. المحاور كلها تعود لتجتمع عند سؤال البداية، والحيثيات السابقة تؤكد أن التوراة لا تصلح إطلاقا لأن تكون مرجعا تاريخيا. فالأحداث المتناقضة وأخطاء التدوين ثم الترجمة، أدّت كلها إلى تشويش المعاني والدلالات، كما أن ما نُسب إلي محرريها من انحيازات يُشكّك بدوره في صحة الأحداث، إضافة إلى أن اهتمامهم الواضح بتاريخ بني إسرائيل دون غيرهم، أدّى إلى نزع الحدث- بفرض صحته- من سياقاته الزمانية، وبالتالي إسكات مقارنات مهمة كان من الممكن أن تسهم في التعرف عليه ضمن إطاره وحجمه الحقيقيين، بعد أن تُنزع عنه مبالغات مجازية، تُبررها الطبيعة اللاهوتية للكتاب المقدس، الذي لايُورد- حسب تومسون- حقائق تاريخية إلا:" حين تكون بمثابة الحنطة لطواحينه الأدبية المتعددة. فالعهد القديم لا يعرف شيئا تقريبا عن معظم الأحداث التحوّلية الكبرى في تاريخ فلسطين(...) ولا يكاد يعرف شيئا عن حالات الجفاف الكبرى التي غيرت تاريخ فلسطين لعدة قرون من الزمان، كما أنه لا يعرف شيئا عن المعارك التاريخية الكبرى التي دارت في مجدو وقادش ولاكيشي. ولا يُنبّئنا العهد القديم بأي شيء عن أربعمئة سنة من الوجود المصري، كما لا يُخبرنا شيئا عن التنافس حول يزرعيل في العصر الحديدي المبكر أو عن التوطين الإجبارى للبدو على طول الضلع الجنوبي في فلسطين" (23). إن تومسون يري أن لغة العهد القديم ليست لغة تاريخية، لكنها لغة أدب رفيع وخطابة، تمثل أداة للفلسفة والتعاليم الأخلاقية. ورغم ماتوصلنا إليه من أن التوراة لا تصلح كمرجع

تاريخي إلا أنني لا أؤيد فكرة النفي الكلي لشخصياتها وأحداثها. لكن ذلك يتم وفق شروط تُلح على ضرورة التعامل معها كشخصيات(وأحداث) محلية عاشت(ودارت) في إطار ضيق وجرى تضخيمها(24)، مثلما يحدث في الدراما المعاصرة، لأسباب متعلقة بتدعيم الأخلاق والعقيدة، لذلك ينبغى الفصل بين المجازي والحقيقي عند التعامل معها، لأن الخلط بينهما يؤدي إلى تداخل في السياقات. وهو أمر يُخطط لتحقيقه على الدوام، ليس فقط في الدراسات التوراتية بل يمتد إلي الديانات الأخرى، فتظهر ما تُسمي بالمسيحية الصهيونية، وتمتلئ تفسيرات القرآن الكريم بالإسرائيليات التي تُمثل:" أقدم وأخطر وسائل الغزو الفكرى غير العقلي للعقل المسلم. فورود هذه الحكايات الخرافية والأساطير في كتب التفسير أعطاها شكلا من اشكال المصداقية لدى العقل المسلم، الذي قبلها كما هى دون أن يشك في صحتها، وبنوع من التسليم الديني "(25).

إنها الأيديولوجيا.. التى دفعت مُحرّر التوراة لأن ينحاز قبل عشرات القرون، تدس أطروحاتها في العقول عبر قنوات تنساب فيها الأفكار دون مقاومة. والهدف أن نقتنع- نحن الرافضين- بأن استلاب فلسطين أمر طبيعي، باعتبارها الأرض التي شهدت أحداث تاريخ بني إسرائيل. وقتها ستصبح العوالم البعيدة أكثرقربا، وتطغي الأسطورة على الواقع. وبفضل الحنين سيتشكل المشهد حسبما يريد اللاعبون. حتى مع اختفاء كل قطع لعبة (البازل)!

الهوامش

(1) رغم أن التوراة تُطلق فى الشريعة اليهودية على الأسفار الخمسة الاولى من العهد القديم، إلا أننا سنستخدم هذا الاسم كإشارة عامة إلى العهد القديم، مع أن هذه الأسفار الخمسة لن تكون محورا مهما فى بحثنا، حيث سنركز على الأسفار التالية، التي تُكوّن ما يُطلق عليه مصطلح" كتب تاريخ شعب الله".

(2) كيث وايتلام - اختلاق إسرائيل القديمة.. إسكات التاريخ الفلسطيني، ترجمة الدكتورة سحر الهنيدي، مراجعة الدكتور فؤاد زكريا- سلسلة عالم المعرفة الكويتية- 1999. ص: 67. ومعظم اقتباسات هذا الفصل التي تمضي في نفس النسق ستكون منه، ما لم يتم الإشارة إلى غير ذلك.

(3) تُعتبر موقعا أثريا مهما، وتقع على بعد ثلاثة أميال غرب بانياس، وقد عُثر فيها على اللوح الذي نتناوله بالتحليل، ورغم أن نقوشه لا تعطي دلالات حاسمة على أي شيء، إلا أنه كان سببا في الاعتقاد بأن هذه المدينة هى دان القديمة، وهى إحدى المناطق التي حاولت إسرائيل تسجيلها على قائمة التراث العالمي بوصفها تراثا إسرائيليا!

(4) وصف" شبح تاريخي" خاص بفراس السواح، وقد ورد في كتابه" آرام دمشق وإسرائيل.. في االتاريخ والتاريخ التوراتي"- دار علاء الدين – سوريا- 1995. ص: 133.

(5) كيت وايتلام- المرجع السابق- ص: 260.

(6) كيت وايتلام- المرجع السابق- ص:260.

(7) فراس السواح- المرجع السابق- ص: 99.

(8) كيت وايتلام- المرجع السابق- ص: 319.

(9) فراس السواح- المرجع السابق- ص :86.

(10) كيت وايتلام- المرجع السابق- ص : 139.

(11) كيت وايتلام- المرجع السابق- ص: 153

(12) بوعز عفرون- الحساب القومي- ترجمة ودراسة د. محمد محمود أبو غدير- مركز الدراسات الشرقية بكلية الآداب جامعة القاهرة- 1995، ص :35.

(13) فراس السواح- المراجع السابق- ص : 95.

(14) هامش للدكتورة سحر الهنيدى فى كتاب" اختلاق إسرائيل القديمة"- ص: 153.

(15) يُعلّق توماس تومسون على هذه القصة بقوله:" كيف يمكن لقصة كهذه أن يكون لها أدنى صلة بعلم الآثار أو بأية عملية إعادة بناء أثرية لماض تاريخي؟ ما الذي يُمكن البحث عنه في حفرية تؤكد تاريخ قصة كهذه؟ كيف يمكن تمييز بيت عاهرة في عملية حفر أثرية؟ هل نبحث عن الخيط القرمزي؟! وهل يكفي وجود بيت مُشيّد في جدار ولم يتداع؟هل نبحث عن جدران تهاوت دون سبب ملموس؟ أم نبحث عن كنز من الأبواق؟ ولم يتم العثور على الجدران على الإطلاق. مما أدى إلى تراجع الجدل الأثرى وتحولّه إلى مشاجرة حول التحديد الزمني في محاولة لإنقاذ القصة للتاريخ"- أسفار العهد القديم فى التاريخ- ص : 58.

(16) كيت وايتلام- المرجع السابق- ص: 254.

(17) كيت وايتلام- المرجع السابق- ص : 263.

(18) كيت وايتلام- المرجع السابق- ص:225.

(19) فراس السواح- المرجع السابق- ص: 107.

(20) كيت وايتلام- المرجع السابق- ص: 292.

(21) كيت وايتلام- المرجع السابق- ص: 293.

(22) توماس تومسون- المرجع السابق- ص: 16.

(23) توماس تومسون- المرجع السابق- ص: 127.

(24) يروي توماس تومسون قصة مشاركته في بعثة تنقيب عملت بإسرائيل عام 1976. عثرت البعثة ذات مرة على مبنى:" بدا واضحا قبل أن نبدأ الحفر أنها كانت بوابة سليمانية معاصرة لسائر بوابات سليمان في كل من مجدو وحتسور، وهو ما أكده شكل البوابة ومقاييسها، وسرعان ما بدأ تعديل المدن وتواريخ الطبقات الأرضية في ثلاثة مواقع كبرى، في ضوء فقرات من العهد القديم(تأكدت تاريخيا)"، لكنه يعود ليؤكد أن هذه التلفيقات- حسب تعبيره- بدأت في التداعي عندما كشفت الفرق الإسرائيلية عن بوابات أخرى مماثلة، في القطاع غير الإسرائيلي من أشدود ومواقع أخرى، وأرجع الباحثون تاريخها إلى حقبة مختلفة تماما. هنا:" تحولت تسمية بوابات سليمان، إلى (مايعرف) ببوابات سليمان، وبتراكم المعلومات بدأ المؤرخون في النزول بمملكة شاؤول وداود وسليمان وإمبراطوريتهم إلى مستوى مشيخة قبيلة"- المرجع السابق- ص: 239 و240.

(25) د.محمد خليفة حسن- رؤية عربية في تاريخ الشرق الأدنى القديم وحضارته- دار قباء- 1998. ص: 75.

الفصل الثامن: الوجود وحده لا يكفي

لأن الأمور تمضي ضمن نسق يكتسب نكهة النُكتة، فإن كل التفاصيل تُصبح يهودية! وبما أن الشعب اليهودى حظى دون غيره بنعمة الاختيار من الرب، فإن وجود بعض أفراده في مكان ما كفيل بأن يُحوّل حضارة هذا المكان إلى منحة لسكانه الأصليين من اليهود(وقبلهم العبرانيون وبنو إسرائيل)(1). ووفق ممارسات تسطو على أية ثقافة بجرأة غير معهودة، تُصبح(الفلافل) مثلا أكلة إسرائيلية يتم الترويج لها عبر(كتالوجات) شركات السياحة. الأمر لا يقتصر على المطبوعات التي يمكن نفى الصبغة العلمية عنها، بل تمتد إلى المراجع والموسوعات:" تلجأ بعض المراجع لحيلة رخيصة لتأكيد وجود حضارة يهودية مستقلة وهوية يهودية ثقافية مستقلة نابعة منها، فتتحدث موسوعة الثقافة اليهودية عن هذا الزى اليهودي الصميم الذي يرتديه يهود المغرب، والذي يُسمى Keswa Kubra، وهي الكسوة الكبيرة، وتُكتب الكلمة بحروف لاتينية دون ترجمة فيتصور القارئ الذي لا يعرف العربية أن هذه كلمة عبرية أو كلمة عربية عبرية! ويوجد للزي اليهودي الصميم شيء يُسمى cumوهو الكُم، ويأكل أعضاء الجماعات اليهودية في بُخارى طعاما يهوديا مميزا يُسمى yachni أي الياخني، أما في اليمن فهم يأكلون طعاما خاصا للغاية لم نسمع عنه قط من قبل، يُسمى khubz أي خبز"!!(2). هذا ما يحدث في موسوعة يُفترض أن تتوافر فيها اشتراطات الموضوعية وعلى مستوى التفاصيل البسيطة، فما

بالنا بالأمور الرئيسية التي تتضافر مع بعضها لتشكيل حضارة متكاملة. هنا يصبح السؤال عن الوجود إرهاصة أساسية، تحتاج إلى حساسية خاصة في التعامل معها، لأننا عادة ما نواجه بواحد من أسلوبين في تناولها، يمكن وصفهما بالمتطرفين: الأول صهيوني يعمل على تضخيم كل شيء حتى التفاصيل الصغيرة، مثلما شاهدنا فى الاقتباس السابق، لنُفاجأ بأن الوجود اليهودى في المنطقة(قديما وحديثا) هو المُكوّن الأساسي لحضارتها. سواء كان ذلك باختراع الفلافل أو حتى بناء الأهرامات!!! بينهما تتوالى الإضافات ليتم اختزال التاريخ الحضاري للمنطقة في أولئك المنتمين لعرق أو دين بعينه. الأسلوب الثاني خاص بنا، ويقوم عادة على تشنج غير مبرر، ينبع من حساسية مفرطة تجاه كل ما هو يهودي(أو عبراني أو منتم لبني إسرائيل). أصحاب الأسلوب الثاني يُصابون بحالة ذعر إذا تمت الإشارة إلى ظهور أجناس سامية أو آسيوية في أي مرحلة تاريخية قديمة. رغم أن الواقع يشير إلى عدم إمكانية نفي هذا الوجود تماما. وفي إطار مواجهة مستمرة لمحاولات سطو ممتدة يُفقدنا نفي الآخر(تماما مثل التغاضي عن ادعاءاته) أرضيات كان ينبغي ألا تضيع منا، على الرغم من أن المناقشة الهادئة الواثقة تتيح لنا فرصة أكبر لكسب المعركة بمنطق علمي بسيط لكنه يحتاج إلى دعم دعائي مفرط.

الوجود والحضارة كلمتان تشكلان ملامح مُغالطة تاريخية كبرى، إذا تم التعامل معهما كعنصرين متلازمين، ففي الحالة اليهودية يصبح ربط الوجود بالحضارة بمثابة وضع أُطر تنظيرية لعمليات السطو. لأن وجود اليهود فى

منطقة ما لا يعني بالضرورة أنهم كانوا مؤثرين حضاريا فيها(وهذا ما سنثبته بعد قليل). في أحسن الأحوال ينتمى التميز الفردي اليهودي(إذا وُجد) إلى سياق الحضارة التي عاشوا في نسقها:" لا توجد إذن ثقافة يهودية مستقلة، عالمية، تحدد وجدان اليهود وسلوكهم وإنما توجد ثقافات يهودية مختلفة باختلاف التشكيل الحضاري الذي يوجد اليهود داخله"(3) وهكذا نكتشف:" أن الثقافة العربية اليهودية هى في نهاية الأمر جزء من الثقافة العربية ولا توجد ملامح يهودية خاصة إلا في بعض الموضوعات وبعض المضامين"(4)، ما ينطبق على ثنائية اليهود والعرب يمتد إلى الثنائيات الأخرى التي كان اليهود أو بنو إسرائيل أو العبرانيون طرفا فيها، مع الحضارات والقوميات الحديثة والقديمة. بالنسبة للحضارات القديمة تطرأ مشكلة منهجية تواجه الباحث، فقبل الحديث عن مدى تأثير وتأثر بني إسرائيل بالحضارات التى وُجدوا فيها، لابد أولا من تحديد كيفية إثبات هذا الوجود، هل يتم ذلك على أساس ما ورد في العهد القديم أم اعتمادا على الأدلة الأثرية؟ اختيار البديل الأول سيترتب عليه مشكلات عديدة، بدأ طرحها في الفصل السابق، لكن يمكن استعراض بعض ملامحها في هذا السياق، وإذا كان الثابت أن تدوين أسفار التوراة لم يبدأ إلا في القرن التاسع قبل الميلاد على أيدي كتبة سليمان فإن اهتمامهم كان يميل إلى إضفاء الشرعية على غزوات داود عبر تضخيم الأحداث، وهو الأمر الذي يجعل من الصعب التحقق من صحة هذه الأحداث تاريخيا من خلال اللُقى الأثرية أو الوثائق. أول الأحداث التي أمكن التحقق من صحتها-

حسب جارودي- ترتبط بسليمان، حيث وُجد القليل منها في النصوص الآشورية(5)، حتى هذا الوجود يصبح مشكوكا فيه إذا اعتمدنا على كتابات وايتلام وتومسون، على كل حال لا توجد- قبل ذلك- أية مصادر أخرى غير التوراة يمكن بها إثبات هذا الوجود من الناحية التاريخية. ليس هذا فقط بل إن علم الآثار كما سبق أن أشرنا يؤكد خطأ بعض الأحداث التوراتية، فالحفائر- مثلا - تشير إلى عدم إمكانية تحقق حدث مهم مثل سقوط أريحا بالكيفية التي أوردتها التوراة في نهاية القرن الثالث عشر قبل الميلاد، لسبب بسيط هو أن المدينة دُمّرت قبلها بقرون(6). الحدث السابق إذن تم نفيه إجمالا، ووفقا لهذا يمتد النفي إلى تفصيلاته الزمانية والمكانية، وأيضا إلى العنصر البشري، فوجود بني إسرائيل قُرب أريحا وفقا للرواية التوراتية يصبح مشكوكا فيه من الأساس. وما ينطبق على القصة السابقة يمتد إلى أحداث أخرى ورد ذكرها في العهد القديم. إن طول الفترة بين نزول التوراة وتدوينها جعل دور المدونين يتزايد، لتنحرف الأحداث عن مساراتها الواقعية التي حدثت بها، خاصة أنهم حاولوا إكسابها ملامح أسطورية كما أنهم في أحيان أخرى كان يمكن أن ينحازوا لوجهة نظر دون غيرها. إضافة إلى كل ذلك وردت أثناء التدوين إشارات إلى أحداث تاريخية قديمة بمفاهيم العصور اللاحقة:" لأن كاتب التوراة عندما دوّنها في هذه العصور اللاحقة لم يدرك أن ما كان سائدا في عصره يختلف عما كان سائدا فى العصور الأقدم"(7)، والأمثلة عديدة، منها ما ورد في سفر التكوين عما قدمه فرعون مصر من هدايا إلى النبى إبراهيم و من بينها

الجمال(8)، رغم أن الشرق القديم كله لم يعرف الجمل المستأنس إلا في القرن الحادي عشر قبل الميلاد. وفي سفر التثنية يرد على لسان موسى:" أن الرب أخرجكم من كور الحديد من مصر"، برغم أن المصرين لم يعرفوا صهر الحديد إلا بعد موسى بما لا يقل عن نحو 700 سنة(9). إضافة لاستخدام محررى التوراة لقب فرعون لجميع حكام مصر على الإطلاق رغم أنه لم يستخدم إلا في عصر الدولة الحديثة. الأمثلة عديدة أوردنا الكثير منها في الفصل السابق، غير أننا نضيف جزئية تبدو لنا مهمة في هذا السياق. فالعثور على مخطوطات البحر الميت(10) قدّم معلومات لا بأس بها عن كيفية تدوين أسفار العهد القديم أو صناعة النص وإنشاء التراث و توارثه حسب تعبير توماس تومسون. يعقد الأخير مقارنة بين ما ورد في عدد من المخطوطات وما سجله العهد القديم، ليكتشف أن العبارات نفسها تحتمل أكثر من تأويل في النصين، فعبارة ما تشير في النص التوراتى إلى خطبة موسى للشعب يتحدث فيها على لسان يهوه، تتحول في نص بلفائف البحر الميت إلى وصف خطاب مباشر من يهوه إلى موسى. تمضي المقارنة بعد ذلك دون ملاحظات حيث يتطابق النصان، غير أن مفاجأة لا بأس بها تظهر بعد قليل، حيث أن العبارات الواردة في النصين موضع المقارنة(التوراتي ومخطوطات البحر الميت) تبدو متطابقة تماما إلا في جزئية واحدة. حيث يتحدث النص التوراتي عن سقوط أريحا، بينما تشير مخطوطات البحر الميت إلى مدينة أخرى قد تكون أورشليم!!(11)، ما ينطبق على الأحداث السابقة يمتد إلى ما يتعلق بالوجود نفسه، إذ أن

التشكيك في بعض التفاصيل الأساسية يجعل الشك يمتد إلى بقية الأمور، خاصة في ظل عدم وجود ما يؤكدها أثريا. إذا كان تومسون قد اعتبر مخطوطات البحر الميت هي إحدى مراحل صناعة النص التوراتي فإن الفوارق بين مرحلتي بداية ونهاية التدوين عديدة، ولا تقتصر على الأمثلة السابقة، مما يجعل الاعتماد على التوراة في إثبات وجود بني إسرائيل في أماكن بعينها أمرا لا يبعث على الاطمئنان، خاصة بعد كل ما ورد من أسانيد تؤكد أن دور المدونين كان أوسع نطاقا مما ينبغي، وهو ما أدى إلى تأثيرات سلبية على النص الأصلي تاريخيا وجغرافيا. هنا يصبح اللجوء للبديل الثاني وهو الأدلة الأثرية حتميا، في هذه الحالة سنكتشف أن الأدلة نادرة لدرجة عجيبة، ربما تكون هذه الندرة هى السبب الأساسي في عمليات السطو المتتابعة على التاريخ، لسد فراغات تصيب سياقات مزعومة بحالة من الخلل تهدد بانهيارها أمام أبسط استفسار. وهكذا تتضافر الجهود ويجتمع مروجو التفاهة وصناع السينما ومغامرو التاريخ في محاولة لتحقيق ما فشل فيه العلم. و إذا كانت الاكتشافات الأثرية تنفي الوجود، فلا مانع من هدم التاريخ نفسه رأسا على عقب، وإعادة بنائه وفق مقاييس محددة سلفا لصالح فئة بعينها.

إذا أخذنا مصر نموذجا لاختبار العلاقة بين الوجود والحضارة، سيمضي الأمر في اتجاه مخالف لما يجرى ترويجه. كان أقدم ذكر لكلمة عبرو في الآثار المصرية خلال عصر تحتمس الثالث(1483 – 1429 ق. م.)، ضمن قصة تروي كيف استطاع أحد قواد جيشه أن يفتح مدينة يافا، ويهزم أميرها

الذي عاونته جماعات من العبرو. القصة تشير إلى أن هؤلاء كانوا يعيشون في جنوب فلسطين أثناء النصف الأول من القرن الخامس عشر قبل الميلاد(12)، ويبدو واضحا من القصة أن العبرو كانوا يشكلون جماعات أو قبائل متفرقة، شاركت في المعركة كقوات مساعدة قد تكون أشبه بالمرتزقة، بعدها بسنوات ورد ذكر هؤلاء مرة ثانية في عصر أمنحتب الثاني(1429 – 1405 ق. م.) حيث دوّن الأخير أخبار انتصاراته في الشام، وسجل أعداد الأسرى الذين عاد بهم ومن بينهم 3600 أسير من العبرو:" ويتبين مما ورد على هذه اللوحة أن الملك أمنحتب الثاني كان أول من جلب العبرو إلى مصر أي انهم وجدوا في مصر، طبقا لنص هذه اللوحة ابتداء من أواخر القرن الخامس عشر قبل الميلاد"(13). وركزت بردية ليدن الأولى على طبيعة الدور الذي قام به هؤلاء في مصر، حيث أشارت إلى أن رمسيس الثانى(1279 – 1213 ق. م.) استخدمهم في جر الأحجار اللازمة لبناء صرح معبده:" ومن هذا يتبين أن المصريين كانوا يُسخّرون هؤلاء العبرو في الأعمال الشاقة مثل سائر أسرى الحروب في مصر"(14)، وهو ما تؤكده بردية هاريس التي أشارت إلى أن رمسيس الثالث(1188 – 1157ق.م.) أهدى عددا من العبرو إلى معبد الإله رع في عين شمس، كما تؤيده لوحة نحتها رمسيس الرابع(1157 – 1151ق.م.) على صخور وادي الحمامات، سجّلت أنه أرسل ثمانمائة من العبرو ضمن بعثته التي أرسلها لقطع الحجارة.

فى إطار المشهد السابق تصبح النتيجة طبيعة:" بطبيعة الحال فإن قوما هذا وضعهم الاجتماعي، لا يمكن أن يكون لهم أقل مساهمة في حضارة مصر الفرعونية"(15)، ورغم ذلك تستمر محاولات استنطاق التاريخ بما لا يتفق مع سياقاته، عن طريق وضع سيناريوهات افتراضية تبدأ على هيئة حكايات قد تبدو مضحكة، لكنها تحل تدريجيا في أذهان البعض محل الحقيقة. وقد أشرنا في فصل سابق إلى مزاعم فليكوفسكي التى ركزت على أن تحتمس الثالث نهب كنوز معبد سليمان، بعد أن قام بلعبة تحريك التواريخ ليُحوّل تحتمس الثالث من وضعه الطبيعي كملك حكم مصر في مرحلة ما قبل الخروج، إلى منطقة زمنية أخرى تلى الخروج بقرون، ثم يتحول أمنحتب الثاني إلى زارح الكوشي(الإثيوبي):" ويبدو أن فليكوفسكي ساءه أن يكون بنى جلدته من العبرانيين من بين من أسرهم هذا الملك فزيّف شخصية الملك أمنحتب الثاني "(16). لماذا؟ لأن زارح الكوشي:" انهزم أمام الملك الإسرائيلي المُسمي أسا ملك دولة يهوذا، فهو يهدف من توحيد الشخصيتين إلى إثبات أن فرعون مصر أمنحتب الثاني صاحب الانتصارات العظيمة قد انهزم أمام الملك اليهودي "(17)، وهكذا يتم خلط الأوراق في محاولة لإخفاء أوضاع متردية، لا توحي بأدنى قدرة على المشاركة في صنع حضارة، وتحويل الثابت في اللوحة المحفوظة بالمتحف المصري إلى مجرد عملية أسْر عادية بمرحلة جاءت بعد قرون من خروج بني إسرائيل من مصر، التى زعموا أنهم ساهموا في تأسيس حضارتها لكنها طردتهم. تكريس الاختلاف الذي يسعى إليه فليكوفسكي

يؤدي إلى نتيجة مغايرة، عبر تحويل الوجود المتردي لبني إسرائيل(الثابت أثريا) من مرحلة ما قبل الخروج إلى مرحلة أخرى تليها بقرون، بهدف ترويج رؤى مخالفة للسائد. فالوجود غير المؤثر استمر لعدة قرون، دون أن يقدم دليلا واحدا على إمكانية إسهام هؤلاء فى تأسيس الحضارة المصرية، والغريب أن ذلك يتحول- بعد عمليات التجميل السابقة- إلى وجود مؤقت ناتج عن صراع بين حضارتين(!!). وهكذا تتحول النقوش المصرية إلى أدلة على أن بني إسرائيل الذين ظهروا في مصر كانوا يُشكّلون قبل أسْرهم حضارة متقدمة! محاولة فليكوفسكي تتضمن تصريحات وتلميحات وأفكارا واضحة وأخرى تُفهم من بين السطور، لم تكن كافية لأخذها كنموذج يحتذى به في التزييف، لأنها تظل حكرا- في تلقيها- على فئة محددة. وهو ما انتبه إليه كريستيان جاك في روايته عن رمسيس الثاني. حيث استهدف الروائي جمهورا أوسع نطاقا وأقل ثقافة من جمهور المغامر، لهذا كان ينبغي أن تصبح المعلومة المراد توصيلها أكثر وضوحا.

انطلق بعض علماء المصريات من بردية ليدن مرجحين أن رمسيس الثاني هو فرعون التسخير، الذي استخدم العبرو في جر الأحجار اللازمة لبناء مدينتي بر رعمسيس وبيتوم، لكن جاك اعتبر بررعمسيس إنجازا يهوديا على مستوى الفكرة لا التنفيذ(وهو فارق حضاري كبير)، وزعم أن مهندسها هو موسى العبراني(صديق طفولة رمسيس الثاني!!) وليس أحدا من المصريين. غير مهم بعد ذلك من الذي قام بالعمل الشاق، فالمهم أن أصل الفكرة قد تم السطو عليه. في مجال البحث العلمي تتراجع المغامرات

غالبا لصالح الحقائق التاريخية التي تؤكد أن وضع اليهود(أو أجدادهم المفترضين أيا كانت أسماؤهم) لم يتعد الخط الفاصل بين الوجود والحضارة. غير أنه لا ينبغي أن يُفهم من العبارات السابقة أن ظروف الوجود المتردي هى التي منعتهم من الإسهام الحضاري، في المجتمع المصري القديم. إذ أن صفة الخواء الحضاري- كما يطلق عليها الدكتور عبد المنعم عبد الحليم- ظلت ملازمة لهم حتى عندما توافرت أمامهم فرص الحياة الحرة في مصر. ففي عصر الأسرة السادسة والعشرين(672 – 525 ق. م.) لجأ يهود أورشليم إلى مصر هربا من الملك الفارسي نبوخذ نصر، وقد سمح فرعون مصر حع ايب رع لهم بالسكن في مدينة على بعد 15 كليو مترا غرب مدينة القنطرة الحالية. الحفائر التي قام بها بتري أكدت عدم وجود أية آثار حضارية لليهود في هذا الموقع، لأنه لم يُعثر إلا على آثار مصرية أو يونانية و لم يجد أمامه إلا مبنى وحيدا يمكن اعتباره الأثر الباقي من تلك الجالية اليهودية، وأطلق عليه اسم" قصر بنت اليهودي"(18).

الحديث عن إسهام حضاري بارز لليهود وأجدادهم في الحضارة المصرية لا يجد إذن ما يدعمه، غير أن هناك احتمالات ولو ضعيفة أن يكون لبعضهم دور ما في مراحل لاحقة من التاريخ المصري. الاحتمالات تتزايد نسبيا كلما اقتربنا من العصور الحديثة، فهناك عدد من الأطباء اليهود الذين ظهروا في مصر الإسلامية، ربما يكون أكثرهم شهرة هو موسى بن ميمون(19) الذي برز في العصر الأيوبي، ويعقوب بن كلس الذي ولاه الخليفة العزيز بن المعز لدين الله الفاطمي الوزارة ولقّبه بالوزير الأجلّ، وأمر ألا يخاطبه

أحد إلا به. قد تبدو السطور السابقة خروجا عن الموضوع، لكنها تصب في نسقه. لأننا نستعين بها نتيجة لعدم وجود أمثلة شبيهة تؤكدها الأدلة الأثرية لعبرانيين تميزوا في مصر القديمة. وإذا اعتمدنا على المصادر الدينية وأضفنا النبي يوسف(20) إلى قائمة المتميزين الذين ساهموا بدرجة ما في دعم الحضارة المصرية(وليس تأسيسها)، فإن السؤال الذي يُطرح في هذا السياق هو: هل تميز هؤلاء نتيجة انتمائهم لعرق بعينه؟ أم لأنهم جزء من بيئة عامة أسهمت في تأسيسهم ونبوغهم بعد ذلك؟ قلْب السؤال لن يغير المعني لكنه يمنحه دلالات إضافية: هل وجود هؤلاء في سياق حضاري غير مختلف عليه هو الذي منحهم مقومات تميزهم أم أن انتماءهم لعرق ما هو الذي أضفى عليهم عبقرية استثنائية؟ الثابت أن تجمعات العبرانيين ثم بني إسرائيل فاليهود لم تُخلّف في أماكن وجودهم مظاهر حضارية تشير إلى أن هناك مقومات نبوغ متفردة تميزوا بها، لا أنماط معمارية، أو فنون أو حتى ملابس تحمل نكهة خاصة بهم، فكيف تختفي مقومات نبوغهم في نطاقهم الضيق، ورغم ذلك تقفز خارج هذا النطاق إلى سياق حضاري أوسع؟ سؤال مفصلي تدعمه محاولات سطو هؤلاء على تفصيلات قد تعتبر أحيانا مجرد مفردات غير أساسية في حضارة الآخرين:" حينما ترتدي مضيفات شركة العال زيّ الفلاحة الفلسطينية، فهذا زى إسرائيلي نابع من الثقافة اليهودية"(21).

قبل سنوات، زار المرحوم الدكتور رفعت عبد العظيم مدير عام المتحف الإسلامى الأسبق أمريكا، وفي أحد المتاحف اليهودية فوجىء بنموذجين

إسلاميين معروضين على أنهما ينتميان لحضارة يهودية. النموذجان يُعتبران صورة طبق الأصل من أثرين محفوظين بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة، وعندما واجه الدكتور عبد العظيم مسئولي المتحف بذلك، زعموا أن صنّاعهما كانوا يهودا!! ما الذي يدفعهم للبحث عن مفردات تبدو شديدة البساطة إذا قيست من منظور الرؤية الحضارية الأشمل؟ نعتقد أن من يملك مقومات الإسهام الحضاري لن يسعى لاغتصاب تفاصيل صغيرة لا دور له فيها. من جديد نجد أنفسنا أمام السؤال المحوري ذاته: هل كانت لدى العبرانيين سمات عبقرية خاصة جعلتهم أشبه بمضخات حضارية إذا جاز التعبيرأم أن العكس هو الذي حدث؟ فى كتابه فجر الضمير يُقدم هنري برستد جانبا من الإجابة، حيث يؤكد بكل وضوح:" لابد أن النشأة المصرية القديمة التي يرجع إليها الفضل في جعل موسى قائدا قوميا، قد ساهمت في إدراكه لتلك الصورة الواجبة ليهوه في حياة قومه،فإننا نرى مثلا أن نشاة موسى وتسميته باسم مصرى جعلاه يحضّ مواطنيه على الأخذ بشريعة الختان، وهى عادة مصرية قديمة جدا كانت مراعاتها عامة فى أيامه بين سكان وادى النيل، ويرجع عهدها إلى مالا يقل عن ثلاثة آلاف سنة أو تزيد قبل عصره"(22). عادة الختان ليست نموذجا وحيدا، لكنها تعد:" برهانا قاطعا على أنه كان يستقي تعاليم مما كان يعرفه عن الديانة المصرية القديمة"(23)، وهكذا نكتشف تدريجيا أن الوجود العبرانى في مصر- وغيرها من الحضارات القديمة- لم يكن ذا تأثير حضاري، حتى أن المصري القديم الذي لم يكن يغفل عن تسجيل أية أمور مهما بلغت ضآلتها، لم

يكترث لحادثة الخروج رغم أهميتها فى النص التوراتي والتاريخ اليهودي كله. بالتأكيد ليس الهدف هو نفي أية ملامح تميز عند العبرانيين، لأننا بذلك نكون قد اتخذنا اتجاها متطرفا لا يختلف كثيرا عن أصحاب الموقف المُضاد، لكن المقصود هو أن العناصر اليهودية المستقلة المتميزة:" إن وُجدت فليس لها مركزية تفسيرية، أي أنه لتفسير بنية فكر فيلسوف أو مفكر يهودي ما، وطبيعة أدب يهودى ما، فعلينا تبيُن نماذج تفسيرية مشتقة من الحضارة التي ينتمى إليها هذا المفكر أو الاديب اليهودي، بدلا من العودة للتوراة والتلمود وتاريخ العبرانيين والكنعانيين "(24). ما ينطبق على الوجود العبراني(ثم اليهودي) في البلدان المختلفة عبر العصور، يمتد إلى المرحلة التي شهدت وجود مملكتين عبرانيتين، فقد كانتا ضعيفتين وتابعتين للإمبراطوريات الكبرى القديمة في المنطقة، والتبعية السياسية:" كانت تؤدي إلى تبعية ثقافية بل وأحيانا دينية، ولذا استعارت الثقافة العبرانية الكثير من حضارات هذه الإمبراطوريات"(25). هنا يمكن ببساطة تغيير دفة الحوار من النقيض إلى النقيض، لأن فكرة الوجود بما ترتب عليه من مشاركة في الحضارة، يمكن أن تنقلب رأسا على عقب، بحيث يصبح هذا الوجود نفسه هو ركيزة تطور بني إسرائيل حضاريا وفكريا، بل و دينيا أيضا.

التاريخ الحقيقي غير الخاضع لعمليات القص واللصق يؤيد هذا ويدعمه بشدة. وإشارة برستد السابقة تؤيد ذلك. التفاصيل التي أوردها برستد كثيرة، وعلى الرغم من ذلك أشار إلى انه لا يمكن أن يتطرق إليها كلها:"

الواقع أنه يمكن كتابة مجلد بأكمله، عن العناصر الثقافية الأجنبية التي انتشرت في فلسطين قبل أن يستوطنها العبرانيون، وظل أثرها يزداد بعد ظهور الملكية العبرانية في عالم الوجود. وربما كان من الواضح أيضا منذ زمن بعيد أن الأدب العبراني، وبصفته معبرا عن الحياة العبرانية، لابد أنه كان بطبيعة الحال مُطعّما مثل تلك الحياة نفسها بالمؤثرات الثقافية المنحدرة من الخارج، سواء كانت في القانون أو في الأساطير أو في الدين بوجه عام"(26). يتحدث بريستد عن فلسطين على أنها الوسيط، الذي نقل عن حضارات أخرى كان التعامل معها مستمرا، إلى عبرانين احتلوا الأرض ثم اغتصبوا ثقافتها عنوة أو بحكم التأثر التدريجي، لكنه في مواضع أخرى من كتابه، يشير إلى عمليات نقل مباشرة قام بها العبرانيون، من الحضارات التي عاشوا في كنفها.

قصة النبي يوسف- مثلا- مُشتقة من قصة شعبية مصرية، تُعرف عادة بقصة الأخوين، واقعة العرض الأنثوى لممارسة الجنس متشابهة، والامتحان الخلقي واحد، كما أن النتيجة لا تختلف، وهو ما يجعل برستد يؤكد أن القصة المصرية:" كانت- لابد- قد انتشرت في فلسطين الكنعانية، حيث سمع بها ذلك الكاتب الموهوب الذي ألف قصة يوسف"(27). في فصل سابق، أشرنا إلى وجهة نظر برستد التي تؤكد على فضل الحضارة المصرية، وبالذات في فترة إخناتون على العقيدة الموسوية، لذلك لن نُكرر الحديث عن نفس الجزئية، وإن كنا سنتطرق إلى تفصيلات أخرى لم نتعرض لها من قبل.

لعل أكثر ما ردده برستد شهرة في أوساط المثقفين، هو حديثه عن العلاقة بين بعض المزامير ونشيد إخناتون، الذي ألّفه في منتصف القرن الرابع عشر قبل الميلاد. انتقل النشيد إلى آسيا وتُرجم إلى عدد من اللهجات السامية، ليتم إعادة استخدامه في العهد القديم. مقارنة الفقرات المتشابهة في النصين يقود إلى وجود تشابه، وصفه برستد بأنه مدهش لا على مستوى المضمون فقط، لكن أيضا على مستويي تتابع الأفكار وترتيبها الظاهري:" ولا يُمكن بحال أن تكون تلك التشابهات من قبيل الصدفة، بل إنها بالعكس، دليل على وجود جزء عظيم من الأنشودة المصرية الدينية القديمة منشورا بشكل معدل فى المزامير العبرانية"(28). الأمر ليس احتماليا فقد أجّل برستد الإعلان عن وجهة نظره حتى اكتشف ما يدعمها. الأبحاث والكشوف أوجدت الأصل الهيروغليفي المصري الذي تُرجمت ونُشرت منه فقرات بأكملها في العهد القديم. والتأثر لم يعد قاصرا على مجرد حكايات وقصص شعبية، بل امتد إلى طبيعة الفكر الديني ذاته، وهو ما أشار إليه هوجو جرسمان بقوله:" إن أقدم موضوع أسطوري تناولته الأناشيد العبرانية هو خلق العالم، وهو وأسطورة الخلق نفسها يحتمل أنهما نشآ في بابل، وأما موضوع العناية الربانية بالعالم، فإنها فكرة جاءت فيما بعد، وشقت طريقها إلى المزامير(الفلسطينية)(29) بتأثير مصر القديمة". يمكن أن نرجئ موضوع التأثر بالحضارة البابلية مؤقتا، لنستكمل جزئية بالغة الأهمية فيما يتعلق بتأثيرات مصر القديمة. يتعرض برستد لسفر الأمثال مؤكدا أن كتاب الأمثال حسب العهد القديم نفسه، تم جمعه من مصادر متفرقة.

جانب منه حمل عنوان كلمات الحكماء، وقد عجز الباحثون لفترة طويلة عن تحديد ماهية هؤلاء الحكماء، لكن الأمر اختلف بعد ما ظهرت معطيات جديدة:" طُبعت بردية كانت قد مكثت مدة طويلة في المتحف البريطاني، فكشفت لنا عن أن مؤلف ذلك الجزء، لم يكن سوى صديقنا المصرى القديم أمينوبي! وجميع العلماء بكتاب العهد القديم الذين يُعتد بآرائهم وأبحاثهم فيه، يجزمون الآن بأن محتويات ذلك الجزء الذي يؤلّف نحو فصل ونصف فصل من كتاب الأمثال، قد أُخذ معظمه بالنص عن حكم الحكيم المصرى القديم امينوبي. أي أن النسخة العبرانية هى تقريبا ترجمة حرفية عن الأصل الهيروغليفي العتيق"(30). أدلة عديدة تشير إلى أننا لا نعرف كيف ندافع عن حقوقنا المستلبة، بدليل أن كثيرين لا يعلمون شيئا عن استنتاجات برستد الذي لا يُمكن اعتباره معاديا لليهود.

ما حدث مع الحضارة المصرية، تكرّر في العلاقة بالحضارات الأخرى، إشارات سابقة ألمحت إلى بابل. وإذا كان الوجود العبراني في مصر يُمثل ركيزة أساسية في التاريخ اليهودى، فان الأمر نفسه ينطبق على بابل. بدأ اليهود إقامتهم بها منذ السبى الآشورى الأول عام 722 ق.م. أما السبي البابلي فقد تم على يد نبوخذ نصر، وعبر ثلاث دفعات حدثت خلال سنوات 597، 586، 581 ق.م. وقد أصبحت بابل وطنا جديدا لليهود لدرجة أنها صارت مقصد كل اليهود الذين تعرضوا للاضطهاد، حتى أن عددهم بها زاد على المليون بعد سقوط أورشليم في أيدي الرومان وتخريب الهيكل عام 70 ميلادية. في بابل تبلورت اليهودية على شكل بنية وفكر

دينى واضح واقتبس اليهود الكثير من تراثها ونُظمها وأساطيرها(31)، حتى أن هناك تشابهات بين سفر التكوين وملحمة الخلق البابلية، كما أن هناك تشابها بين الأعمار المديدة لآباء البشرية منذ آدم حتى نوح وبين قائمة سومرية ضمت ثمانية ملوك حكموا قبل الطوفان وأخرى بابلية كانت تضم عشرة حكام. قصة الطوفان بدورها كما وردت في سفر التكوين تشابهت مع ملحمة جلجامش التي ورثها البابليون عن الحضارة السومرية(32). بل إن انتقال الأسطورة البابلية إلى العقيدة اليهودية ربما سبق فترة وجود اليهود ببابل:"على هذا النحو شقّت أسطورة الطوفان البابلي طريقها متجهة غربا شطر البحر الأبيض المتوسط، حيث انتشرت في سورية وفلسطين إلى أن مُنحت في النهاية طريقا إلى الأدب العبراني، ومن ثم وصلت إلينا عن طريق العهد القديم"(33)، كما اتضح تأثير قانون حمورابي الذي تم سنّه في عام 1900 قبل الميلاد تقريبا على التشريع الوارد بسفر الخروج(34)، حيث كانت بعض التشريعات القديمة ومن بينها قانون حمورابي متداولة في فلسطين قبل عهد العبرانيين لتصل من هناك إلى العهد القديم ثم إلى الفكر الغربي بعدها بقرون(35). كالعادة تتصاعد الأمور تدريجيا حتى تصل إلى نقطة الذروة. تدعم البراهين السابقة كلها وجهة نظرنا عن تأثر العبرانيين بالحضارات التي عاصروها لا العكس، لكن أخطر هذه الأدلة هي تلك الأنشودة البابلية، التي كانت تُستخدم في عبادة سن إله القمر بمعبده بمدينة أور. حيث يرى برستد أن هذه الأنشودة تتضمن طموحا دينيا في مستوى عال يرجح أنه أحدث تأثيرا واسع النطاق فى آسيا الغربية:"

والواقع أن هذه الأنشودة تذكرنا بالمزامير العبرانية، مع أنها ترجع إلى ما قبل ظهور الدين العبراني بزمن بعيد"(36).

من هنا جاء مصطلح مهد الحضارات الذي يطلق على حضارة وادي الرافدين، لكن الغريب أن تجميع المعلومات عن هذه الحضارات التي ظلت مجهولة حتى القرن التاسع عشر كان يتم في سياق أيديولوجية مسيحية استوعبت تراث التوراة(37). وهكذا يسعى صاموئيل نواح كرامر الذي ارتبط مصطلح مهد الحضارات باسمه، إلى عقد مقارنات بين الأساطير السومرية ومقاطع من التوراة، ويبدو أن ذلك كان يمضي في سياق عكسي وهو ما جعل دكتور خالد الناشف يضيف العبارات التالية في سياق حديثه عن هذه المقارنات:" هذا بالرغم من أن التأثيرات الخارجية على التوراة جاءت بشكل مباشر نتيجة احتكاك مجموعة كهنوتية من القدس مع المجتمع البابلي في القرن السادس ق.م. أي حوالي ألفي عام بعد الوجود السومري في العراق"(38)، لكن المشكلة الأساسية أن محاولات العبث بالأدلة التاريخية مستمرة، تسعى إلى تغيير دلالاتها، أو تبديل مساراتها في اتجاه عكسي، لنفاجأ بأن الفكر التوراتي هو الذي يسيطر في بعض الأحيان على أنساق التفكير. وبدلا من أن يرسخ البعض لفكرة المصادر الأجنبية التي استقى منها مدونو التوراة أحداثهم ورؤاهم وأحيانا تعبيراتهم، نجد محاولات مضادة- من بينها محاولة فليكوفسكي- لإثبات خطأ النظريات التقليدية عن طريق تغيير الأزمنة. هذه المحاولة التي امتدت إلى الاكتشافات التي عُثر عليها في رأس شمرا بسوريا وأثبتت أن ثقافة

أوغاريت ظهرت- مثلها مثل حضارتي مصر ووادي الرافدين- بشكل واضح في الصياغات التوراتية. وبهذا يحاول التوراتيون قلب السياق التاريخي لتصبح أوغاريت معاصرة للممالك الإسرائيلية، بحيث تكون هى التي تأثرت بالثقافة اليهودية لا العكس.

من هنا تستمر المقارنات في اتجاهها المخطط له سلفا:" لهذا تأخذ مقارنة هذه الأساطير بالروايات التوراتية بُعدا خاصا، لتضعها في الإطار الفكري التوراتي"(39)، حتى التفسيرات اللغوية يتم اقحامها في هذا النسق، فالمقارنات تجري بين اللغتين الآكادية والسومرية مع العبرية القديمة في المقام الأول:" وكثيرا ما يخرج المرء بانطباع أن ما ينتج هو صورة مركبة لما يريده الغرب لحضارة وادي الرافدين، في حين أنه لا تُجرى قط أي مقارنات مع التراث الشعبي العراقي أو اللهجة المحكية في العراق"(40). ما هى دوافع الغرب؟ إنها دوافع تتراوح بين حسن النية وسوئها، لكنها في الحالتين تصب بمجال تغليب وجهات نظر الفكر التوراتي، ومن دواعي العجب أن بعض مثقفينا يسقطون في الفخ دون أن ينتبهوا. ففي إطار الإشارة إلى مدى خطورة ما سيحدث للعراق وآثاره من جراء الغزو الأمريكي، كان عديدون يحذرون قبل الحرب من كارثة مرتقبة، مستخدمين أمثلة يمكن التحفظ عليها:" كالتذكير بما جاء في التوراة بأن أور هى مسقط رأس إبراهيم، علما بأن هذه المعلومات التي ظهرت في أواخر الألف الأول قبل الميلاد لا تتعدى كونها تفسيرا أكاديميا لتراث شعبي محلي مرتبط بالخليل، ولا يمتّ بصلة إلى أور السومرية"(41).

ما سبق يكشف أن وجود اليهود(وأجدادهم المفترضين) في مواطن الحضارات القديمة لم ينتج عنه إسهام يمكن إثباته في المنجز الحضاري بمستوياته المعتمدة، فالعكس هو الذي حدث، سواء كان ذلك على مستوى الفكر العام(دينيا وثقافيا واجتماعيا)، أو حتى على مستوى التفاصيل الصغيرة، وإذا كان هؤلاء قد حاولوا السطو على كل شيء حتى أنواع الأكلات، فإن الاكتشافات الأثرية تُثبت أن ما حدث على أرض الواقع يخالف تماما ما يتم ترويجه. ورغم أن هذه النتيجة تحسم القضية دون الحاجة إلى مناقشات تنظيرية أخرى، إلا أن هناك نقطة مهمة يجب التركيز عليها. وهى أن محاولة ربط وجود بني إسرائيل بكونهم مؤثرين حضاريا تتضمن مغالطة منهجية كبرى، لأنه حتى في حالة تحقق ذلك فإن إضافاتهم تتم في سياق حضاري أشمل، يتيح للأقلية كما للأغلبية فرصة الابتكار. وهو ما يجعل منجزهم الحضاري(بفرض وجوده) جزءا من البنية الحضارية الأشمل التي عاشوا فيها.

الهوامش

(1) استخدام تعبيرات اليهود وبني إسرائيل والعبرانيين يتم من منطلق أنها مسميات استخدمت للتعبير عن شعب ما، في عصور مختلفة، لكن هذا لا يعنى بالضرورة أننا مقتنعون بأن كل اليهود الحاليين هم الامتداد الطبيعي لبني إسرائيل والعبرانيين من قبلهم.

(2) د. عبد الوهاب المسيري- الأكاذيب الصهيونية من بداية الاستيطان حتى انتفاضة الأقصى- دار المعارف- 2002. ص: 39.

(3) د. عبد الوهاب المسيري- المرجع السابق. ص: 30.

(4) د. عبد الوهاب المسيري- المرجع السابقز ص: 30.

(5) روجيه جاروديز الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية- دار الشروق- 1998. ص : 66.

(6) جارودي- المرجع السابق، فراس السواح – مرجع سابق.

(7) د. عبد المنعم عبد الحليم- مرجع سابق.

(8) لم يكن لفظ الفرعونية مستخدما في هذا العصر.

(9) د. عبد المنعم عبد الحليم- مرجع سابق.

(10) عُثر على مخطوطات البحر الميت بالصدفة عام 1928 في مدينة قمران، وقد استولى عليها الإسرائيليون بعد الاحتلال، لتتحول هذه المخطوطات إلى مصدر جدل واسع، خصوصا أن حكومات إسرائيل المتعاقبة مُتّهمة من جانب بعض الباحثين بوضع مُعوّقات تجعل الاطلاع

عليها صعبا. هؤلاء الباحثون أشاروا إلى أن هذه العرقلة تهدف أساسا لإخفاء حقائق جديدة، عن فترة نزول الكتاب المقدس والديانة المسيحية والتاريخ اليهودي في فلسطين. الإسرائيليون يبررون عرقلتهم بأن العمل في المخطوطات لم ينته بعد، ويبرهنون على عدم وجود عرقلة بما نشره منها السياسي الصهيوني البروفيسور إيفال يادين(أسامة العيسة- مخطوطات البحر الميت- قدمس للنشر والتوزيع- سوريا- 2004 - من مراجعة للكتاب على شبكة الإنترنت).

(11) توماس توسون- مرجع سابق.

(12) د. عبد المنعم عبد الحليم- مرجع سابق. ص : 54.

(13) د. عبد المنعم عبد الحليم- مرجع سابق. ص : 55.

(14) د. عبد المنعم عبد الحليم- مرجع سابق. ص:55.

(15) د. عبد المنعم عبد الحليم- مرجع سابق. ص : 56. وهنا قد يكون مفيدا استحضار رأي الإسرائيلى نداف نئتمان، الذي رأى أن كلمة خبيرو(تُستخدم أحيانا كمرادف لكلمة عبيرو أو عابيرو) لا تصف جماعة عرقية، بل تُعبّر عن وصف سوسيولوجى لمجموعات عمل هامشية، لا تستقر في مكان ما وتقوم بأعمال السرقة والنهب.

(16) د. عبد المنعم عبد الحليم- مرجع سابق. ص : 84.

(17) د. عبد المنعم عبد الحليم- مرجع سابق. ص :84.

(18) د. عبد المنعم عبد الحليم- مرجع سابق. ص : 58.

(19) مفكر عربي يهودى من أهم كتبه" مشناة التوراة"، و" دلالة الحائرين" الذي يُعتبر أهم كتبه على الإطلاق. الكتاب الذي تم تأليفه بالعربية وتُرجم بعد ذلك إلى العبرية، يشرح فكرة وحدانية الله:" وفي هذا الكتاب يبدو أثر التفكير الإسلامي واضحا وجليا"، حسبما يرى الدكتور عبد الوهاب المسيري في " موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية". ص: 386، وهو ما يشير إلى أن تميّز هذا المفكر نبع من وجوده في بيئة وفّرت له مقومات التفوق.

(20) هنا تجب الإشارة أيضا إلى أن قدوم يوسف إلى مصر، حدث حسب القصص الدينية في سن صغيرة، مما يجعل تميزه نابعا من حضارة عاش في كنفها، لا لانتمائه لجنس ما.

(21) د. عبد الوهاب المسيري- الأكاذيب الصهيونية. ص:40.

(22) هنري برستيد- مرجع سابق.ص:379.

(23) هنري برستيد- مرجع سابق. ص:379.

(24) د. عبد الوهاب المسيري- المرجع السابق. ص: 35.

(25) د. عبد الوهاب المسيري- المرجع السابق.

(26) هنري برستيد- مرجع سابق. ص:411.

(27) هنري برستيد- المرجع السابق. ص:383.

(28) هنري برستيد- المرجع السابق. ص:394.

(29) هكذا وردت الكلمة في ترجمة سليم حسن لكتاب فجر الضمير.

(30) هنري برستيد - مرجع سابق. ص:397.

(31) د. عبد الوهاب المسيري- موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية. ص:274.

(32) د. عبد الوهاب المسيري- المرجع السابق. ص: 274.

(33) هنري برستيد- مرجع سابق. ص:361.

(34) د. عبد الوهاب المسيري. المرجع السابق. ص: 274.

(35) هنري برستيد- مرجع سابق.

(36) هنري برستيد- مرجع سابق. ص: 365.

(37) د. خالد الناشف- مرجع سابق. ص:117.

(38) د. خالد الناشف- مرجع سابق. ص : 118.

(39) د. خالد الناشف- مرجع سابق. ص:118.

(40) د. خالد الناشف- المرجع السابق. ص:118. يُركّز الناشف على النموذج العراقي، لكننا نجد أن وجهة نظره تمتد إلى سياقات أخرى، لذلك نعمد إلى مزجها بوقائع خاصة بحضارات مختلفة، والغريب أن القارىء إذا تجاهل عنصر المكان في هذا الفصل أثناء القراءة، لتخيّل أن الأحداث تمضي في الأماكن نفسها التي تناولتها الفصول السابقة.

(41) د. خالد الناشف- المرجع السابق. ص: 119.

الفصل التاسع: سرقة شجرة العائلة!

في أحد الاجتماعات السياسية، سُئل وزير الدفاع الإسرائيلي الأسبق موشى ديان، عن مطالب إسرائيل المُتعلقة بالأماكن التاريخية أو الدينية في أجزاء من الأرض المحتلة، وهل يجب أن تمثل دورا في السياسة الإسرائيلية، فأجاب مؤكدا أن هذا هو أساس الوجود الإسرائيلي، وأنه أحد العناصر الثلاثة التي تُشكّل إسرائيل وهى: الشعب اليهودي، الكتاب المقدس، وأرض اليهود(1). هكذا قدّم ديان مزيجا يجمع بين التاريخ الافتراضى والجغرافيا والعنصر البشري، الذي يُفترض أن يرثهما بعد تزييف شجرة عائلة، تتيح له اغتصاب ميراث لا يستحقه! في فصول سابقة، أشرنا إلى ممارسات تزييف تاريخ المنطقة، واستعرضنا ردودا عديدة قدّمها علماء عرب وأجانب في سياق العمل المضاد. وانطلاقا مما سبق فإن مزاعم ديان وغيره يُمكن دحضها، بالرؤى القائلة بأن التاريخ التوراتى مشكوك فيه من أساسه، وأن كل الإجابات التراثية التي تُطرح عند البحث عن جذور إسرائيل وتطورها ينبغى أن تحال إلى التقاعد:" فآباء التكوين المؤسسون لم يكونوا تاريخيين، والجزم بأن إسرائيل كانت شعبا قبل دخول فلسطين، سواء في هذه القصص أو في قصص يشوع هو أمر ليس له أساس تاريخي(...) وليس في التاريخ حقبة تعرف بحقبة القضاة، ولا إمبراطورية حكمت مملكة موحدة من أورشليم، ولم يعرف التاريخ أمة إسرائيلية متجانسة عرقيا على الإطلاق"(2). العبارات من العينة السابقة كفيلة

بحسم النزاع ولو على الورق، وإثبات أن كل هذا التاريخ باطل، وبالتالي فإن كل ما بُنى على باطل يُعد باطلا. غير أننا فى هذا الفصل سنخرج على هذا النسق، وننطلق من العبارة الأخيرة فى الاقتباس السابق، والتي تتحدث عن الأمة الإسرائيلية. حيث كانت فكرة الأمة هذه سببا أساسيا من أسباب إسكات التاريخ الفلسطيني القديم، فإسرائيل القديمة(تلك الدولة القومية) حلّت محل الثقافة الكنعانية، التي تُمثل الحضارات البدائية غير القابلة للتطور(3). العبارة السابقة ذكرها وايتلام باعتبارها إحدى المغالطات التاريخية الكبرى، لأن الحضارة الكنعانية كانت أرقى بكثير من أي وجود حضاري لبني إسرائيل في المنطقة، والُلقى الأثرية تبرهن على ذلك، وهو ما حاول البعض إخفاءه، عبر الزعم بأن الديانة اليهودية عوّضت التفاوت الحضاري، لأنها كانت أرقى وأنها أسهمت في تشكيل إسرائيل القومية.

الحديث عن العقيدة والدولة القومية أو الأمة، يحيلنا إلى شق آخر يتمثل في فكرة النقاء العرقي الذي تفرضه العقيدة، مما يجعل اليهود منتمين لأمة نقية الجنس لم تسمح لأبنائها بأن يندمجوا في مجتمعات الشتات. فيما يشبه المسار الدائري تعود بنا هذه الفكرة إلى الاقتباس الأول بهذا الفصل، لنصل إلى أن الشعب اليهودي- حسب مزاعم التوراتيين- هو صاحب الحق الوحيد في ميراث أجداده. سنحاول الخروج من حدود الدائرة المغلقة، متغاضين عن مدى صحة مقولة الحقوق التاريخية، لنناقش موضوعا آخر لا يقل أهمية، وهو مدى أحقية يهود الحاضر في الحصول على هذا الميراث. فالحفائر

والتنقيبات التي تتم في فلسطين وهضبة الجولان المحتلة، وتلك التي سبق أن أجريت في سيناء وجنوب لبنان، تسعى لإثبات تاريخ مزعوم في المنطقة، لكن حتى بافتراض وجود هذا التاريخ فمن له الحق في وراثته؟

بدأب يزعم الإسرائيليون أنهم هم الأحق بهذا الميراث، انطلاقا من كذبة ترددت كثيرا حتى أن بعضنا صدقها، وهى أن اليهود تمكّنوا من الحفاظ على نقائهم عبر العصور، ليصبحوا في العصر الحديث امتدادا طبيعيا ليهود المملكة القديمة، وقبلهم بني إسرائيل والعبرانيين. والغريب أن أعداء اليهود أنفسهم صدقوا هذه الكذبة، فأثناء محاكمة مجرمى الحرب في نورمبرج، تم استجواب عالم الأجناس جوليوس سترايتشر، حين سُئل عن مدى إسهامه في صياغة مشروع القوانين العرقية عام 1935، أجاب بأنه شارك فيها على اعتبار أنه ظل يكتب على مدى عدة سنوات عن ضرورة منع اختلاط الدم الألماني بالدم اليهودي منعا باتا في المستقبل، ومع ذلك أقرّ بأنه انطلق في ذلك من النموذج اليهودي نفسه:" ذكرتُ مرارا وتكرارا أنه ينبغى علينا أن نتخذ الجنس اليهودي أو الشعب اليهودي نموذجا لنا، كما ذكرتُ في مقالاتي مرارا وتكرارا أنه يتعين على كل الأجناس الأخرى أن تتخذ من اليهود نموذجا يُحتذى، لأنهم ألزموا أنفسهم بشريعة عرقية هى الشريعة التي تقول: متى دخلت أرضا غريبة فلا تصاهر الغرباء"، ويضرب مثالا:"عندما اكتشف المُشرع اليهودي عزرا بعد عدة قرون، أن كثيرا من اليهود قد تزوجوا من غير اليهود بالمخالفة للشريعة، أمر بإبطال هذه الزيجات جميعها. وفي هذا يكمن أصل الهوية اليهودية التي استطاعت

بفضل شرائعها العرقية أن تحافظ على وجودها على مر العصور، بينما أصاب الخراب جميع الأجناس والحضارات الأخرى"(4). رؤية سترايتشر تتضمن خلطا واضحا بين الشريعة والتطبيق، فحتى لو كانت الشريعة الموسوية عرقية، فإن الأتباع لم يصبروا كثيرا على تطبيقها، والأمثلة عديدة لا تنتهي بالحالات التي اكتشفها المشرع عزرا و أبطلها، فالديانة وقوانينها- حسب يحزقيل كويفمان- لم تكن وسيلة للحفاظ على الشعب من الدمار أو للحفاظ على الجنس من الاختلاط بالآخرين(5). وقد أشرنا في فصل سابق إلى ما ذكره العهد القديم عن عقاب الرب لبني إسرائيل، هذا العقاب الذي تمثل في تركهم يعيشون مع أعدائهم و يتزوجون منهم. لكن نموذج سترايتشر يُوضّح أن وجهة النظر الرائجة لنقاء الشعب اليهودي، رسخت حتى في أذهان أعدائه. إنها المفارقة التي رصدها حاييم كوهين(كان أحد قضاة المحكمة العليا الإسرائيلية) في قوله:" من مفارقات القدر المريرة أن تكون الدعاوى البيولوجية والعرقية التي روجها النازيون، والتي استلهمتها قوانين نورمبرج المشينة، هى نفسها التي تُشكل أساس تعريف اليهودى داخل دولة إسرائيل"(6).

فكرة النقاء العرقي، دعمتها فكرة أخرى هى أن الديانة اليهودية مغلقة، أي أنها الديانة السماوية الوحيدة، التي تشترك مع كثير من العقائد غير السماوية في إحجامها عن التبشير. والعقائد المغلقة تُصنّف عادة إلى نوعين: عقائد جغرافية وأخرى عنصرية. والثابت أن اليهود بدأوا ديانة جغرافية وعنصرية معا وبصرامة، لكنهم منذ الشتات انتشروا وأصبحت الديانة

عالمية(7). في كتابه" الشتات والغربة"، يرفض كويفمان بدوره الفرضية القائلة بأن الديانة اليهودية عرقية، من نوع الديانات الوثنية الدُنيا لأنه:" إذا كانت الديانات مجرد تعبير عن حياة شعب، و إذا لم يكن الرب سوى روح العشيرة أو الشعب، فإن الديانة قد تُصاب بالفساد وتتفسّخ تلقائيا "(8)، والغريب أن الزعم بأن اليهودية ديانة مغلقة ينتقل بها إلى مصاف الديانات البدائية، رغم أن هذا يتناقض تماما مع الفكرة الأخرى، التي تُروّج لأن حلول إسرائيل القديمة محل الوجود الكنعاني الأكثر تميزا من الناحية الحضارية، كان سببه الأساسي هو تميُز الدين اليهودى عن الديانات البدائية!!

بين مقولتي النقاء العرقي والديانة المغلقة، تستقر ثقافة اغتصاب التاريخ والجغرافيا، إذ أن المقولتين تكرسان- كما سبق أن ذكرنا- لكون يهود الحاضر امتدادا حتميا لكيانات أخرى تاريخية، ومن هنا كان طبيعيا أن تنطلق الدعوة الصهيونية:"على الشعب اليهودي إذن أن يتجمع مرة أخرى فى أرض خاصة به، والمكان المُناسب لذلك هو وطنه القديم، أرض إسرائيل، التي تكوّن فيها الشعب وفيها تكوّنت ثقافته، ويثبت حقه القومي في البلاد عن طريق تمسّكه بها في صلواته، وفي عاداته على امتداد الأجيال، منذ سُبي منها بعد انتصار القوى التي غزته وقمعته، وفيها فقط يستطيع التحول إلى شعب طبيعي"(9)، بهذه الأرض سيظهر اليهودي الجديد، الحقيقي، الذي يُعد استمرارا لليهودي القديم الذي عاش على أرضه(10).

المُقدمات السابقة تقودنا تلقائيا إلى التساؤل حول مدى دقة مقولتي: نقاء الجنس وانغلاق الديانة. وإذا كنا في الفقرات السابقة قد طرحنا وجهات نظر تحمل انتقادات لهما تتسم بالعمومية، فإن الأمر يحتاج إلى طرح أكثر موضوعية، يُثبت أن الاعتراضات السابقة لم تنبع من فراغ. قبل الدخول في تفصيلات تدعم وجهة نظرنا، ننطلق من قرينة رقمية، فعندما حدث الشتات الروماني(الثالث والأخير) لليهود عام 70 ميلادية، لم يكن عددهم يتجاوز أربعين ألفا، وفي القرن الخامس الميلادي، قدّر البعض أن عدد يهود الإمبراطورية الرومانية أصبح يتراوح بين 4و7 ملايين، أي أن يهود الشتات ضاعفوا عددهم بين 100 و 180 مرة في أقل من 500 سنة!(11) وهو أمر يبدو غريبا، خاصة إذا ما وضع في نسق يقول بأن اليهود كانوا منغلقين على أنفسهم، لأن معدل هذه الزيادة سيكون غير طبيعي إطلاقا. هنا لا يبقي إلا احتمال وحيد يجعل المعدل نفسه طبيعيا، وهو انفتاح اليهود على الآخرين وسماحهم لأعراق أخرى بالامتزاج معهم. يتأكد هذا الوضع إذا ما وضعنا في الاعتبار أن رفض الزواج بين اليهود و الأغيار، لم يكن قائما على محاذير مُتعلّقة بالحفاظ على نقاء الجنس، بل كان نابعا من معايير دينية، وهو ما تغيّر بعد ذلك:" هكذا يذكر المؤرخ جوزيفوس أن يهود انطاكية نجحوا في تحويل الكثيرين إلى عقيدتهم، وأدخلوهم مجتمعاتهم. وقد حدث عدد كبير للغاية من التحول إلى اليهودية بلا شك في القرن الثاني الميلادي. ومن الأمثلة الهامة.. النساء اليهوديات اللاتي تم بيعهن كإماء وأُخذن إلى مقاطعة الراين كزوجات لجنود الرومان،

وبعض هؤلاء الجنود هجروهن عند نقلهم إلى مواقع أخرى، فشب أبناؤهم كيهود"(12). غير أن الأرقام تظل ترجيحية، إذ أن هناك إحصائيات أخرى تُقدّم معلومات مختلفة إلى حد التناقض، فقد أشار البعض إلى أن عدد اليهود في القرن الأول الميلادي، تراوح بين 5 و8 ملايين نسمة(13)، لكن يبدو أن هذا الرقم مُبالغ فيه، حيث يُعقّب هنتنجتون(وهو جغرافي يهودي متعصب) على الأرقام التي أوردها المؤرخ جوزيفوس(14)، بأنها مبالغ فيها يمكن نبذها واعتبارها خرافية(15)، لكن حتى مع الاعتراف(مؤقتا) بأن عددهم تراوح بين خمسة وثمانية ملايين نسمة في القرن الأول الميلادي، فإن متابعة عددهم- في ضوء هذه الإحصائيات المبالغ فيها- تشير إلى أنهم لم يتجاوزوا المليون أو المليونين في القرن السادس الميلادي، وهو ما استمر دون تغيير ملحوظ حتى القرن الخامس عشر. المفارقة تتمثل في أن الأرقام التي تمضي في اتجاهات متناقضة، تقود إلى النتيجة نفسها، لأن الانخفاض الحاد في الأعداد، حدث خلال فترة لم تشهد حدوث عمليات إبادة ضخمة ضد اليهود، وهو أمر لا يمكن تفسيره:" إلا بأن عملية الاندماج والانصهار والذوبان، كانت مستمرة على قدم وساق"(16). وهكذا فإن ازدياد أعداد اليهود أو تناقصها بصورة مبالغ فيها، يشير إلى أن فكرة نقاء الدم اليهودى الناتج عن العزلة مجرد أسطورة، من بين أساطير عديدة روّجها اليهود عن أنفسهم.

الأرقام ستظل في كل الأحوال نسبية، وأكثر اعتمادا على القناعات الشخصية، لذلك أشرنا منذ البداية إلى أنها قرينة لا ترقى إلى مستوى

الدليل، لكنها تقدم غالبا دلالات تفيد في إضاءة المشهد. التركيز على الصفات الجسدية يُمكن أن يُقدم إضافة جيدة في هذا المجال، وهنا تُعتبر محاولة الدكتور جمال حمدان مناسبة، إذ ينطلق فيها من البحث عن يهود معاصرين، يُمكن اعتبارهم استمرارا نقيا لبني إسرائيل في عصر التوراة، لكي يستند إليهم في المقارنة. وهو أمر ليس سهلا لأنه:" ليس بالعالم اليوم مجتمع يهودي واحد أفلت من الاختلاط البيولوجي مع غيره"(17)، لكن ربما يمثل السامريون النموذج الأقرب لأجدادهم، بعد أن ظلوا منغلقين على أنفسهم، يعيشون في عزلة كاملة ولا يتزاوجون إلا من بينهم، لدرجة أنهم آخذون في الانقراض. اعتمادا على هؤلاء وعلى أدلة أخرى محدودة، مثل بعض الجماجم التي عُثر عليها في فلسطين وخارجها، ويُعتقد أنها تنتمي إلى عصر سليمان، يبدأ الدكتور حمدان رحلة مع الصفات الجسمانية لليهود، ويؤكد أن معظمها صفات مرنة تتأثر بالبيئة الطبيعية والاجتماعية. مثل قصر القامة وضيق الصدر، اللذين يعتبران من الصفات الجسمانية المرتبطة باليهود في أذهان الناس، لكنه يُعقب بأنه لايمكن الاعتماد على هاتين الصفتين كدليل قاطع في تحديد الأصول الوراثية لليهود. الأمر نفسه ينطبق على لون الشعر والعينين، ففي حين يسود اعتقاد بأن اليهودي أسود الشعر والعينين، نجد أن نسبة هذا اللون بين اليهود تتوافر فقط في ثلثي العينة محل الدراسة:" ففي مناطق معينة من بولندا، وُجد أن نحو ثلثي اليهود ذوو شعر فاتح. كذلك فمن الثابت أن هناك عنصرا أوضح من الشقرة بين اليهود الشرقيين، يجنح بهم إلى اللون الأصهب، وحتى بين

السفارديم هناك كثير من الشُقر. وتبدو الشقرة واضحة في يهود الإلزاس واللورين، وأوضح في يهود إنجلترا"(18). التنوع السابق يُقدم دليلا على أن الدم اليهودي اختلط بدماء البيئات المحيطة، ويثبت أيضا أن صفة النقاء ليست إلا أكذوبة كبرى. يدعم ذلك لون البشرة، فهناك يهود بيض وسود(الفلاشا والتاميل)، وليس هناك نمط موحد للون بشرة اليهود، ففي تركستان يتشابهون في اللون مع جيرانهم تاجيك الجبال، وفي أوروبا لا يختلفون عن الأوروبيين من حيث لون البشرة. والنتائج السابقة ليست حكرا على المفكرين العرب، فقد رأى آخرون عند حديثهم عن اليهود اليمنيين- الذين يُعدون من بقايا المملكة اليهودية التي أسسها يوسف ذو النواس هناك- أنهم لا يختلفون من الناحية الجسمانية عن المسلمين اليمنيين(19).

فحص الأنف وسحنة الوجه يقود إلى النتائج نفسها، فالدكتور حمدان لايعتبر سحنة الوجه صفة جسمانية بقدر ما هى تعبير اجتماعي مكتسب من البيئة، أي أنها نتيجة الانتخاب الصناعي لا الوراثة. الصفات السابقة كلها لا تدل على أصل عرقي واحد، بل بالعكس تُبرهن على انعدام أي وحدة حولها. ينتقل الدكتور حمدان إلى صفة جنسية أخرى، يرى أنها يمكن أن تُمثّل مؤشرا وثيقا للنقاوة أو الاختلاط، وهى شكل الرأس الذي يُعتبر محكا أساسيا ومحورا للدراسات الأنثروبولوجية. من المصادر التوراتية يتبيّن أن اليهود القدامى كانوا ككل الساميين المحيطين طوال الرؤوس، غير أن استعراض رؤوس الأشكيناز والسفارديم والشرقيين يُظهر حقائق غريبة.

فجميع رؤوس الاشكيناز عريضة، وأحيانا عريضة جدا تشبه شكل رؤوس المحيطين بهم محليا:" فليس ثمة فارق مثلا بين اليهود والمسيحيين بروسيا وبولندا في شكل الرأس، بينما في منطقة القوقاز تتحول رؤوسهم إلى شكل قمع السكر الشهير عند الأرمينيين والقوقاز"، ومع أن الشائع هو أن رؤوس السفارديم تتسم بالطول بصفة عامة، إلا أن هناك جماعات يهودية شمال إيطاليا والبلقان أخذت رؤوسها الشكل العريض، لكن الدكتور حمدان يتغاضى عن ذلك من قبيل التبسيط، مؤكدا على ضرورة ملاحظة أن السفارديم يعيشون بين شعوب طويلة الرأس كالبربر و العرب، وبهذا فإن التزاوج مع المحيطين بهم يؤكد صفة طول الرأس، لكن دون أن يجعلها حكرا عليهم. أما بالنسبة لليهود الشرقيين، فقد تنوّعت أشكال رؤوسهم بين الطويل والعريض، حسب البيئة التى يعيشون فيها. النتيجة النهائية يصوغها الدكتور جمال حمدان في أرقام، حيث يوضح أن نسبة مجموعة عراض الرؤوس تتراوح بين 80 و90 بالمائة من يهود العالم، وهو ما يؤكد أن أشكال رؤوس الأغلبية الساحقة منهم، تحولت من الطويل إلى العريض عن طريق وحيد، وهو التزاوج والاختلاط الجنسى مع غير اليهود.

التركيز على نفي فكرة نقاء الجنس اليهودى ليس ترفا في سياق هذا الكتاب، بل يتحد مع الشق التالي، الذي نبحث فيه مدى دقة الزعم بأن اليهودية ديانة مغلقة، لإثبات أنه حتى في حالة نجاح جيوش الأثريين الإسرائيليين في اكتشاف أية آثار تنتمي إلى العبرانيين أو بني إسرائيل، فإن ذلك لا يعني اكتشاف ميراث معترف به ليهود اليوم. لأن الإقرار بأنهم امتداد طبيعي لمن

سبقوهم محض ادعاء، ثبت(أو سيثبت بعد قليل) انه خاطئ. وهو ما يجعل حيازتهم للتراث الثقافي العبراني أو الإسرائيلي القديم يصب في سياق اغتصاب الذاكرة الذي نوثق له، سواء كانت هذه الحيازة مادية أو معرفية.

يحاول البعض الترويج لمقولة الديانة المغلقة، اعتمادا على ما ورد في التوراة، لا استنادا على ما حدث بأرض الواقع. التاريخ نفسه يُثبت أن هناك فجوة لا يُستهان بها بين التشريع النظري وبين التطبيق، وخلال القرون التالية لظهور اليهودية كديانة كانت هناك عمليات تحوّل إليها من أجناس أخرى، أشرنا قبل قليل إلى اليمن الذي اعتنق عدد من سكانه اليهودية في القرن السادس الميلادي، والأمر نفسه امتد إلى شبه الجزيرة العربية، التي تحوّل عدد من قبائلها إلى اليهودية مثل بني قريظة(20). كما أسّس البربر مملكة يهودية في المغرب العربي تحت زعامة كاهنة يهودية(21)، والنماذج ممتدة حتى عصرنا الحديث، فمع الهجرة للعالم الجديد تحوّل كثير من الهنود الحمر والزنوج في أمريكا الوسطى والجنوبية إلى اليهودية، دون أن تكون لهم أية علاقة من ناحية الجنس أو الدم باليهود القدماء(22) (أو حتى المحدثين).

استثنينا من النماذج السابقة مثالا رأينا أنه فى حاجة إلى بعض التفصيل، وهو يهود الخزر، الذين يعتبر البعض- مثل المؤرخ الإنجليزي بيوري- تحولهم إلى اليهودية حدثا فريدا في التاريخ(23). الملابسات التي أدت إلى اعتناق الخزر الديانة اليهودية وردت في الكتابات العربية واليهودية، واختلطت فيها الحقيقة بالأسطورة. لكن الذي يعنينا هنا هو النتيجة النهائية. فقد

اعتنقت القبيلة ذات الأصل التركي اليهودية اتباعا لملكهم بولان(786 – 809 م.)، الذي جعلها الديانة الرسمية للدولة(24).

يمكن أن نكتفى بذلك على اعتبار أن القصة تقدم دليلا حاسما، يتحدى الفكرة الصهيونية الخاصة بنقاء اليهود العرقي، غير أن هناك إضافة لا ينبغي إهمالها في هذا السياق، حيث يرى البعض أن هناك شواهد تاريخية تؤكد أن اليهود الحاليين ينتمون إلى أصل خزرى تركي، أكثر من انتمائهم إلى أصل سامي:" نستطيع أن نقول: إن معظم من اعتنقوا اليهودية في القرون الوسطي كانوا من الخزر. وقد هاجر جانب كبير منهم إلى بولندة وليتوانيا و هنغاريا والبلقان، حيث أقاموا الجماعة اليهودية الشرقية، التي أصبحت بدورها الأغلبية الغالبة من الشعب اليهودي في العالم"(25). الأدلة كثيرة على تحول اليهودية من ديانة منغلقة إلى أخرى منفتحة، تعمل على استقطاب القبائل والشعوب المجاورة، التي تقع تحت سيطرتها(مثلما حدث مع الدولة الحشمونية اليهودية) (26)، سواء تم ذلك بالقوة أو بالتبشير، وهو اتجاه يؤيده بعض المؤرخين الجدد في إسرائيل، حيث يؤكد يحزقيل كويفان أن قوانين الديانة اليهودية لم تضع أية حواجز أمام الراغبين في اعتناقها(27).

نصل مما سبق، إلى أن فكرتى النقاء العرقي والديانة المغلقة ما هما إلا أسطورتان تم الترويج لهما بعناية، لدرجة أن أعداء اليهود أنفسهم اقتنعوا بأنهما حقيقتان لا شك فيهما. ونقْل هاتين الفكرتين من مجال المسلمات إلى نطاق الخرافات، يُقوّض بالكامل فكرة الحق التاريخى التي قامت عليها

إسرائيل، كما يقطع أى اتصال مُفترض بين الحاضر والماضي. مما ينسف مزاعم الإسرائيليين الجدد بأنهم أصحاب الميراث الحقيقيين، لممالك عاشت بالمنطقة قبل ثلاثة آلاف عام. ورغم أن الأدلة الأثرية لم تُثبت وجود هذه الممالك بشكل يقيني، فإنه حتى في حالة إثبات هذا الوجود يظل الإسرائيليون لصوص تاريخ، لأنهم يحاولون اغتصاب ميراث مزعوم عن طريق تزييف إعلام وراثة! صدّق بعض الورثة الأصليين أنه حقيقي!

الهوامش

(1) د. أسعد رزوق- إسرائيل الكبرى.. دراسة في الفكر التوسعي الصهيوني- منظمة التحرير الفلسطينية- مركز الأبحاث- 1968. ص: 604.

(2) توماس تومسون- مرجع سابق. ص: 226.

(3) كيت وايتلام- مرجع سابق. ص: 106.

(4) روجيه جارودي- مرجع سابق. ص:78.

(5) بوعز عفرون- مرجع سابق. ص:175.

(6) روجيه جارودي- مرجع سابق. ص: 76.

(7) جمال حمدان- اليهود أنثرو بولوجيا- دار المعارف- 2003. ص:41.

(8) بوعز عفرون- مرجع سابق. ص:177.

(9) بوعز عفرون- مرجع سابق. ص:142.

(10) بوعز عفرون- مرجع سابق. ص :142.

(11) جمال حمدان- مرجع سابق. ص: 25.

(12) جمال حمدان- مرجع سابق. ص: 86.

(13) د. عبد الوهاب المسيري- الأكاذيب الصهيونية من بداية الاستيطان. ص: 69.

(14) ذكر جوزيفوس أن هناك 1350000 يهودي قُتلوا في معارك عديدة، كما تم أسْر نحو 900 ألف آخرين، إضافة إلى مئات الآلاف الذين ماتوا فى الأوبئة والمجاعات والمذابح.

(15) جمال حمدان- مرجع سابق. ص: 23.

(16) د. عبد الوهاب المسيري- مرجع سابق. ص:69.

(17) د. جمال حمدان- مرجع سابق. ص : 64.

(18) د. جمال حمدان- مرجع سابق. ص:68.

(19) بوعز عفرون- مرجع سابق. ص: 86.

(20) بوعز عفرون- مرجع سابق. ص:86.

(21) بوعز عفرون- مرجع سابق، ص: 86.

(22) د. جمال حمدان- مرجع سابق. ص :89.

(23) آرثر كويستلر- القبيلة الثالثة عشرة- دار المعارف- 2003. ص: 35.

(24) د. عبد الوهاب المسيري- موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية. ص: 177.

(25) آرثر كويستلر- المرجع السابق. ص:106.

(26) د. عبد الوهاب المسيري- الأكاذيب الصهيونية. والحشمانيون هم أسرة من الكهنة، حكمت اليهود بفلسطين في القرن الثاني قبل الميلاد. وفي عهد حكم هركانس أخضع بالقوة بعض الشعوب الوثنية المجاورة(

الأدوميين والجليليين) وفرض عليهم اليهودية بحد السيف(الدكتور عبد الوهاب المسيري- موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية).

(27) بوعز عفرون- مرجع سابق. ص: 179.

الخاتمة: قبل النهاية بكثير

لأن الأحداث في هذا السياق مستمرة، فإن الوصول إلى خاتمة للكتاب يُعتبر حلما صعبا. البديل- هنا- أن نقتنع بوقفة مؤقتة، تصلح لالتقاط الأنفاس وسط أحداث لاهثة، تمضي فيها محاولات اغتصاب الذاكرة بمُعدّلات مُتسارعة. فبمجرد دفع هذا الكتاب للمطبعة، ظهرتْ معلومات جديدة، تصبّ في نسقه بصورة مُباشرة أو غير مُباشرة، انتهت في أواخر نوفمبر 2005، بإعلان الاتحاد الأوروبي عن خطة إسرائيلية لتهويد القُدس الشرقية. ما نشرتْه" الجارديان" البريطانية وصحف عالمية أخرى بنبرات تحمل مواصفات الدهشة، لا يتضمن أية مفاجآت لنا بالتأكيد، لكن اقتناص الفُرصة من جانبنا كان ينبغي أن يُمثّل هدفا أساسيا، غير أن الأمر لم يجد صدى حقيقيا لدينا، وانتهى بمجرد نشْر أخبار مُتناثرة عنه في صحفنا، وهو استخفاف بالغ يضر كثيرا بقضية مصيرية، تُعتبر محورا لصراع الوجود والبقاء.

إن الأمر يحتاج إلى وقفة على مُستويي التوثيق والتحليل، بحيث يتم فضح المُمارسات التي تُعيد تغليف تاريخنا، وتُثبّت معلومات مُزيّفة على المُغلّفات، لتُقدمه مجانا لبعض مُحترفي السرقة. في هذا النسق ينبغي الاشتغال على عدد من المُحددات الأساسية، التي تناولتها الفصول الثلاثة الأخيرة من الكتاب، وهى: التكريس لفكرة عدم إمكانية الاعتماد على التوراة كمرجع تاريخي، ووجود فارق جوهري بين الوجود التاريخي والإسهام الحضاري،

وأخيرا الكشف عن زيف الدعاوى القائلة بأن اليهودية ديانة مُغلقة وأن اليهود عرق نقي، لأن فضح ذلك سيُقوّض ركنا أساسيا في مزاعم الصهيونية، التي تربط بين اليهود المعاصرين وبني إسرائيل القُدامى، وهى المزاعم التي تسعى بالأساس لجعلهم ورثة وحيدين لتاريخ مشكوك فيه!

إن الحق الذي لا يجد من يُدافع عنه، أضعف بكثير من الباطل المدعوم بآلات دعاية تُكرّس له، وهى حقيقة لا تحتاج إلى إثبات، لأننا لا نحيا في كوكب مثالي، بل في عالم تحكمه معايير نفْعية وأُخرى استهلاكية، ومن لا تُحركه المصالح يُمكن أن تخدعه الدعاية. الحديث عن دعاية مُضادة صار مُستهلكا لكنه ضروري، ولكي لا يُصبح حديثنا هزليا ينبغي أن نبدأ من الداخل، الذي يحتاج إلى مُراجعات عديدة، حتى لا نُفاجأ بعد فترة بأن التحرك الخارجي(إذا حدث!) قد شغلنا عن مزاعم داخلية، تدعم بشدة ما نسعى للتشكيك فيه خارج الحدود.

إن الفصل بين السياقين التاريخي والديني وإقناع العقلية العربية بذلك أمر ضروري. قد يستنكر البعض هذا المطلب، لكن الغريب أنه انطلق في ستينيات القرن الماضي كدعوة دينية، على يد الشيخ أمين الخولي. فقد طالب الشيخ المُستنير بالفصل بين العلم والدين، وانتقد مُحاولات تفسير القرآن علميا، وأكد أن القرآن ثابت والعلم مُتغيّر، ولا يجوز تفسير الثابت بالمُتغيّر. والتاريخ جزء من هذه العلوم المُتغيّرة، تتبدّل تفسيراته أحيانا حسب الاكتشافات الأثرية، وفي أحيان أخرى كثيرة يتم تزييفه.

الأمر يحتاج إلى وقفة بالتأكيد، لكن المُهم ألا تتحول هذه الوقفة إلى حالة جمود، في مواجهة عدو يتحرك بسرعة هادرة وفي اتجاهات عديدة. يسرق بدم بارد بينما نُدافع عن حقوقنا بقلوب تبدو مُرتجفة. ولكي نتخلص من تأثيرات قلوب قد تخضع لمعايير عاطفية، فإن التحرك العلمي ينبغي أن يكون هو الأساس، لأن العالم لا يقتنع إلا بالمنطق، أما الشعارات فلم تعد تُثير إلا السخرية.

(كانت هذه هى خاتمة الطبعة الأولى، ووفقا لأسلوب تعاملنا مع الأزمة، ستظل داخل نطاق الخدمة لسنوات طويلة قادمة!).